

رواية

د. نرمين نحمد الله

# ضياء يونس

لا تلومي الظلام

الطبعة  
3

دار دَوْن

نرمين نحمد الله

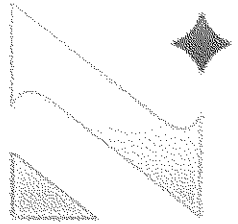


BOOKS

دُون

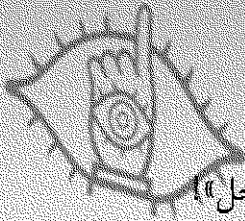


للنشر والتوزيع



## إهداء

إلى رجل يساوي كل العالم.  
إلى رجلٍ دللني كابنته  
وتعلق بي كأمه  
واحترمني كمعلمته  
وأحبني كأمرأته.  
إلى رجلٍ يستحق أن يقال عليه «رجل»!



# كتب PDF عربية

[www.kutub-pdf-ar.com](http://www.kutub-pdf-ar.com)

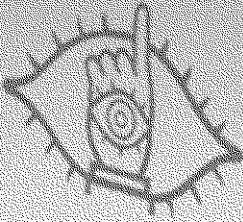
## إهداء

إلى جناحي اللذين طالما حلقتُ بهما فلم يخذلاني يوماً؛

نرمين شمس الدين

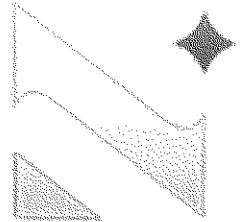
فاطمة حمص

دُمنا صُحبةً دُنيا وجَنَّة.



ONE PIECE

# BOOKS



في كل مرة كنت ألعن ظلماتي «الثلاث»، كانت اللعنة تصطدم  
بحرف من حروف اسمك، تتصافر مع خصلات شعرك، تتعثر  
بلمعة حدقتيك، وتذوب على صفتي شفيتك.

تموت هي وتبقين أنت!

فلا ظلمة تحل ليونس وأنتِ قمره وشمسه.

أجل، كنتِ وستبقين. ضي يونس!

«يونس»

ONE PIECE

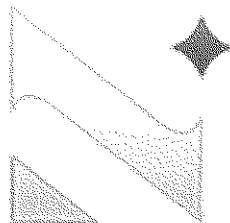
مادمت عبداً لظلامك

ولازلت ملكة النور

فكيف عسانا نلتقي سوى في خداع الظلال؟!!

«ضي»

BOOKS



ذكريات الليلة العصيبة تشعل المزيد من النيران في مثلث  
ظلماتي، نظراتي تصطدم بـ«بقعتي البيضاء» - التي ترك فيها  
جرح ضيّ ندبة خفيفة لا تميزها سوى عيني - فبدوا لي كقنديل  
بحر بمجسّ واحد، «هيولان»! أحتاجكم الآن بأكثر من أي  
وقت مضى!

ابتسامتي الساخرة تصفع إدراكي، لكنني أشهق بعنف وأنا  
أميز هذه الشاحنة الضخمة أمامي، أحاول تجاوزها لكنني لا  
أستطيع، صوت اصطدام مدوّ ثم ظلام.. ظلام.. ظلام!  
نفق طويل يمتد أمامي لألمح النور في آخره،  
أصل لنتهاء أخيراً وأنا أحاول فهم ما حدث،  
أين سيارتي؟! بل أين أنا؟!  
عالمٌ أزرق صافٍ ينساب حولي كأنني سقطتُ فجأة في  
البحر.

أحاول تحريك قدمي لكنهما محجرتان!

يदाي كذلك خرجتا عن قيود سيطرتي لتبدوا لي وكأنهما  
مكبلتان بقيد غير مرئي.

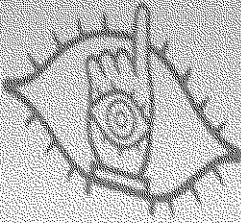
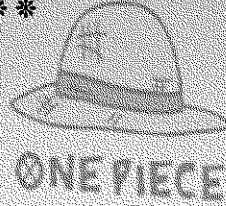
أدور ببصري حولي فأنتهه - لتوي - لسخني الذي بدا لي  
هرمي الشكل بواجهاته المثلثة شبه الزجاجية التي تتيح لي رؤية  
ما حولي.

هل هو كابوس جديد؟! لا! أنا لا أشعر بالخوف، على

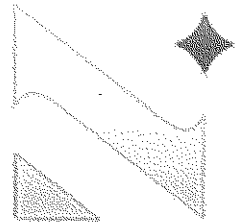
العكس، الجو حولي يمنحني سكينه غريبة تشبه شعوري في  
حوض ضيّ، حتى الرائحة حولي تشبه رائحتها، تراها مثلي  
سجينة هنا؟!!

أهتف باسمها لكن صوتي لا يغادر حلقي، بل يرتد كسهم  
يؤلم معدتي، يحذرني من تكرارها! أتلفت حولي لتسع عينايا  
بصدمة وأنا أميز هذا «الكيان» الذي يقترّب نحوي.  
«هيولان»! أنتم حقاً هنا!!

\*\*\*



# BOOKS



## (الظلمة الأولى)

جاي من بلادي البعيدة، لا زاد ولا مية

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- دكتور يونس، نريد التواصل معك بشأن أبحاثك الجديدة،  
التعاون سيكون مثمراً لكلينا.  
أمط شفتي باستياء وأنا أقرأ أولى الرسائل المتروكة على  
بريدي الإلكتروني صباحاً  
لا يملون من تكرار عروضهم السخيفة، لا يعلمون أنني  
أبرمت العقد - الأمل - الذي لا يجيب!  
البيضة الذهبية، بل الدجاجة نفسها!  
لا أحب الشعور ببدايات الصباح، ومثل هؤلاء الأغبياء  
يزيدون الأمر سوءاً.

- يونس.. أرجوك اتصل بي، افتقدتك منذ آخر ليلة بيننا،  
لماذا هجرتني بهذه الطريقة؟! لقد ذهبت إلى كل مكان يمكنني  
رؤيتك فيه ولم أجدك، لم يبق لي إلا أن آتيك في الجامعة، أخشى  
أنني سأفعلها من فرط شوقي إليك!  
أكزّ على أسناني بغضب وأنا أقرأ رسالتها الصوتية التي



تركتها على هاتفي.

متى ستفهم هذه موقعها من حياتي؟! هي مجرد لقمة مضغتها  
ثم ألقيتها دون حتى أن أبتلعها، مثل هؤلاء لا يليق بهن سوى  
هذه المعاملة

ربما هذا أسرعت بترك رسالتي الصوتية إليها بأقصى نبرة  
أمتلكها:

- افعلها واحطبي خطوة واحدة داخل مبنى الجامعة  
وسأجعلك تندمين على يوم مولدك، ما بيننا انتهى في تلك الليلة،  
احطبي لسانك وإلا أجبرتك أن تبتلعه للأبد!  
مريض أنا هؤلاء الساقطات! يشتهيهن عقلي وينبذهن  
جسدي.

قلبي؟! قلب يونس مفقود منذ زمن، ضاع في «مثلث ظلماته»!!  
حدثوني منذ صغري عن تشابه اسمي بنبي الله الذي التقمه  
الحوت وسط ظلمات ثلاث؛ الليل والبحر وبطن الحوت.  
وكبرت لأدرك أنني غارق في ثلاث ظلمات كذلك.

ثلاث ظلمات ابتلعت نور عالمي كله؛  
الدين، الوطن، الحب!

زفرة ساخطة تغادر صدري بعدها، لكنها لم تساو شيئاً أمام  
هذه الرجفة التي انتابتني مع الاسم الذي تركه لي «دياب» في  
رسالة قصيرة عالمياً أنه وحده كفيل بجعلي أتصل به فوراً.

«نجية»!!

- رفَضْتُ استلام المال هذا الشهر حتى تعلم أين أنت ولماذا لا تزورها.

ارتجاف صوته بهذه الكلمات يعني أنه لا يزال يُخفي المزيد، هو صديقي الوحيد الذي ارتضته قيود ظلماتي، ربما لأن غربة واحدة جمعتنا في إيطاليا التي قضيت فيها آخر سنوات من عمري في مختبر بحوث شهير هناك، لا، دياب ليس عالم بحار مثلي، هو مجرد ضحية لهجرة غير شرعية قذفت به لتلك البلاد البعيدة ليجد نفسه هناك كما كان هنا؛ مجرد نفاية تركلها أقدام الأثرياء، الأثرياء الذين صرحت أنا متهم بعدما بعثت روحي لـ «الشیطان» كما يزعمون، لكنني لسبب ما وجدت في دياب توأم مأساتي، ربما لهذا تشابكت خطواتنا هناك، وحتى بعد عودتي الاستثنائية - المؤقتة - هنا للعمل في الجامعة عاد هو معي، لا أدري هل كانت حاجته هو لي، أم حاجتي أنا له كي يعينني بخبرته في - عالم الظلام - كي أنفذ انتقامي الذي عزمته عليه والذي لأجله عدت، دياب ليس مجرد صديق - خاصة لرجل صار يكفر بالمشاعر مثلي - بل هو «رفيق الظلام» الذي تلفنا عباءته معاً دون أسرار، لهذا كان لغضبي ما يبرره:

- انطق يا دياب! ماذا قالت بالضبط؟! -

صمتٌ ثقيل يسبق كلماته - التي نقلها عنها - وقد سقطت

على قلبي كمطرقة:

- قلب أمك غضبان عليك، بحق دمي ودم أبيك الذي  
يجري في عروقك ارجع لدارك.

أرجع لداري؟! كأن الأمر حقاً بهذه السهولة!

قدماي تسيران دون وعي لخزائني السرية هذه التي أخفيها  
خلف لوحة قديمة.

عادة ما تكون خزائني هذه هي وجهتي، لكن الآن هذه  
اللوحة هي ما تعنيني، لوحة زيتية قديمة عمرها يزيد عن  
العشرين عامًا دفع ثمنها أبي يومها بـ ١٠٠ كرامته

وقتها كان قد اصطحبني من قريتنا في الصعيد للعاصمة التي  
بهرتني أضواؤها، جاء يبحث عن عمل يساعده في سد مصاريفنا،  
فأرشده أحدهم للعمل كـ «بواب» في فيلا لأحد الأثرياء، الرجل  
كان يهوى الرسم، كذلك كنت أنا، كنت أتخصص ليلاً لمراقبته  
وهو يعمل، تلك الليلة لم أستطع مقاومة فضولي وأنا أنتظره

لينصرف ثم أدخل المرسم لأراقب اللوحة عن كثب، خلفيتها  
سوداء قائمة تجثم على صورة لرجلين أحدهما عظيم الهيئة يمسك  
سوطاً يهوي به على ظهر الآخر الذي بدا مستضعفاً، ساعتها  
وقفت أرقبها برهبة وقد مددت أناملي نحوها، وفجأة ينبعث  
صوت «البية» هادراً باسمي من خلفي، فيلطح إبهامي اللوحة  
التي كانت ألوانها لا تزال طازجة!

- ربّ ابنك يا جابر، اللوحة هذه ثمنها يعادل راتبك لعام على الأقل!

كلماته توازي صفقة قوية نالها وجه جابر الذي دفعني بعيداً عن بطش سيده وهاتفاً باستعطاف أنني لا أزال صغيراً، لكن السيد الغاضب ينزع عنه حزام سر واله ليهوي به فوق ظهر أبي، فأسمع صوت صرخاته، بينما يطرده الرجل هاتفاً بصوته الكريه: - اخرجوا جميعاً من بيتي، وخذ معك هذه التي أفسدها «بغلك» الصغير.

يقذفنا باللوحة التي تلطخت ألوانها فأحسها لصدري دون وعي، نقضي ليلتها في «عشّة» صغيرة يسكنها أحد معارف أبي، هذه التي جلست أمامها أنكي، لكن جابر يلحق بي ليهتف بلهجته الصعيدية الثقيلة:

- الرجال لا تبكي، الحِمل بقدر الكتف يا «ولد جابر»، وكنت أباك حَمال.

كانت المرة الأولى التي ألمح فيها ابتسامته تمتزج بدموع القهر هذه في عينيه، لقد أخفى عن أمي أن الرجل قد ضرب ظهره، لكنني رأيت!

- انظر يا يونس ماذا صنع إبهامك باللوحة! بصمتك تلطخت السوط، محته تماماً، تبدو كبقعة نور وسط الظلمة خلفها، بشرى خير يا «ابن بطني»، فليجعلك الله في قلب العتمة الضيّ!

أبتسم ساخراً وأنا أذكر كلمات «نجية» هذه وقتها، لم تكن  
بشرى خير يا طيبة، بل نبوءة شر.  
بصمتي لم تكن سوى انجذابي اللامرئي لعالم الظلمات الذي  
اجتذبتني دوامته.

- يونس!

هتاف دياب القلق ينتزعني من شرود ذكرياتي، فأنتهد  
بحرقة لأرد:

- أخبرها أني مت!!

- ستعلم أني أكذب! وسترفض المال أيضاً، لماذا لا تزورها؟!  
المسكينة ليس لها سوالك بعد وفاة والدك و...  
- دياب! تعلم أنني لن أفعلها.

أقاطع بها عبارته وأنا أغلق الاتصال بعنف، لن أسمع  
للماضي أن يتسرب عبر شقوق جداري من جديد، عالم «نجية»  
الآن هو أبعد ما يكون عن عالمي.

انس يا يونس.. انس!

أطوي بها صفحات ذكرياتي بحزم وأنا أتوجه نحو مرآتي  
كي أرتدي ملابسني، اليوم هو أول أيام الفصل الدراسي الثاني،  
نظيره الفصل الدراسي الأول كان مملاً خاصة لرجل مثلي عاد  
لتوه لبلد يكرهه بكل ما فيه، لكنها - هي - أكسبته المزيد من  
الإثارة! هي!

كان يمكن أن تكون إحدى طالباتي فحسب، لكنني أظلمها كثيراً بهذا الوصف، فليست مني مجرد طالبة ولست منها مجرد أستاذ.

الغريب أنني لم أحدثها يوماً خارج قاعة المحاضرات، لكن لا تفوتني نظراتها المتوهلة نحوي.

سمراء شهية لها هذه العجيزة اليتيمة التي تبدو كغمسة إصبع طفل في كعكة شيكولاتة، لها هاتان العينان الزرقاوان كلجنة بحر صافية لم تعرف الكدر يوماً، لها هذا الثغر الذي يبدو كبوابة فردوس تنفج بلا وعي كلما التقت عينانا. ولها هذا الاسم الذي يثير سخريتي أنا بالذات كلما تذكرته، كأنها يذكرني أي تناقض هناك بيننا!

«ضي» مالي و«الضي»!؟

أنا يونس سيد الظلام!

أفكاري تتشتت وأنا أنهي ارتداء ملابسي، سروالي الأسود، قميصي بنفس اللون، والذي أصرّ أن أغلق آخر أزراره كي أداري «ندبتي هلالية الشكل».

لن ينتبه إليها أحدهم، لكن كفاني أنني أنا أفعل! أرتدي رابطة عنقي الرمادية وأمشط شعري الخشن. أتأمل ملاحني للمرة الأخيرة، فلا تبدو لي شديدة الوسامة ولا شديدة القبح، وسامة شرسة كما وصفتها إحداهن يوماً ووجدتها على حق.

«شبه ابتسامة» ترسم على شفتي وأنا أرتدي ساعتني لأخفي  
«البقعة البيضاء» على معصمي.  
هل تتخذ صورة «قنديل بحر»؟! أم أنني صرت مهووسًا  
حقًا بأبحاثي؟!

\*\*\*

\* صوتي \*

\*\*\*

- أسرعني، أنا أحضرت الفطور.  
صوت العمة «يافا» هو أفضل ما يمكن أن أبدأ به يومي  
صباحًا، خاصةً بلهجته الفلسطينية هذه التي تذكرني بأبي الراحل.  
أقبل معصمي حيث تستقر ساعتني التي ارتديها منذ وفاته فلا  
أخلعها أبدًا، ثم أرفع صوتي لأجيبها:  
- «تكرمي» يا عمتي، حالاً.  
أنظر لمراتي فتعانقني ملامحي التي ازدادت جمالاً؛ فقط لأنني  
اليوم سأراه، بعد أيام الإجازة التي مرت كدهر، اليوم سألقاه؛  
يونس.

أبتسم وأنا أفتح هذه الدلاية المعلقة في عنقي لتبرز صورة أبي،  
كم يشبهه حد التطابق، لا أصدق إلى الآن كيف يمكن أن يتشابه  
الاثنان هكذا، ربما لهذا عشقته منذ أول لحظة تعثرت به نظراتي.  
تهيدة حاملة تغادر صدري وأنا ألفت وشاحي حول رأسي،  
أتراه ينتبه لي؟! أم أنني فقط في عينيه واحدة من طالباته؟!  
ليتك تفعل يا يونس!

الزميلات يتندرن على عبقريتك، طبعك الغريب، قسوتك الجامدة، ملاحك قليلة الوسامة شديدة الجاذبية بعينيك السوداوين الواسعتين كليلا بلا قمر، شعرك المجعد الخشن، ونظارتك الطبية بلا إطار تصفي المزيد من الرهبة على وجهك الذي يبدو كصندوق من الأسرار، شرودك الذي يهزمك أحيانا في وقت المحاضرة، أناقتك المبالغ فيها بهذه «الماركات الشهيرة» التي تصر على ارتدائها، طبيعتك غير الاجتماعية حتى مع زملائك، وأخيرا، عزوفك عن الزواج رغم تحطيك الخامسة والثلاثين.

لكنني أعشق كل هذا فيك، وبالذات الأخيرة هذه. ضحكة خجول تحمّر لها وجنتاي، تخرج بصوت الهمة يافا من الخارج.

- هيا يا «عندلورة»، «المناقش» كادت تبرد.

هكذا يجب أن يكون فطورنا يوميا بهذه اللمسة الفلسطينية التي تقدها عمتي حتى بعد استقرارنا في مصر - وطن أمي - الذي عدنا إليه بعد وفاة والدي إثر غارة يهودية على غزة.

تماما كما تصرّ ألا ترتدي في البيت سوى «الثوب الفلسطيني»

بشكله المعروف والذي تطرزه هي يدويا بنفسها.

كانها تخشى أن ننسى، وهل يمكن أن ننسى!؟

أخرج إليها لتشرق ملاحظها وهي تتبين أناقتي البسيطة فينسب لسانها بدعواتها الطيبة لي.

- فاتنة! كعرائس الحكايات.

أحتاج إطراءها هذا اليوم بالذات كي يمنحني المزيد من



الثقة في مواجهته، الثقة التي تتبخر تمامًا عندما أدرك ضعف فرصتي أمامه، ربما أكون جميلة حقًا كما تقول عمتي، لكن هل يفتقر عالمه للجماليات!؟

- كلي جيدًا حتى تكلمي يومك دون تعب، لا تسكع خارج أسوار الجامعة، لا طعام من الخارج، لا حديث مع زملائك من الشباب، «عسكري حرب»! أريدك واحدًا من عساكر الحرب هناك. كلماتها التي تمزج صرامتها بحنانها والتي اعتدتها بحكم عشرينا الطويلة لا تثير تحفظي بقدر ما تثير شفقتي نحوها، هي تخاف عليّ حقًا، فليس لها في الحياة سواي أنا و«نضال» ابنها المتزوج المقيم في غزة. حاولت كثيرًا إقناعه بالقدوم إلى هنا، وحاول هو أكثر إقناعنا بالعودة إلى هناك، لكنني لا أقوى على العودة إلى هناك حيث ذكرياتي القاسية، ربما لهذا تفهمت عمتي وطاوعتني في البقاء هنا حيث وطن أمي التي توفيت منذ سنوات قليلة.

- خذي مصروفك.

أمدًا لها أناملي على استحياء كي آخذه منها، أعلم أن مصاريف دراستي عبءٌ عليها، وأنها لجأت لحياكة الملابس لبعض نساء الحي كي توفر لنا المزيد من المال، عرضت عليها العمل بأي مهنة جانبية لكنها رفضت بشدة، طالما يهبأ إليها أنني فريسة مطاردة وأن هذا العالم كله ليس سوى صياد كبير.

أقبل حينها بتقدير فدمع عيناها كعهدها كلما فعلتها، أعلم أن قلبها مقسّمٌ بالتساوي بيني وبين نضال، وأنها لا تشتهي في هذه الحياة سوى أن تطمئن علينا معًا ويجمعنا وطن واحد، لكن

كيف نفعل؟! أنا زهدت الأرض التي مات فيها أبي غدراً ونضال  
لا يريد سوى العيش فيها، وبيننا هي حائرة.  
- أكملني طعامك.

- تأخرت يا عمتي، المحاضرة الأولى لدكتور يونس وهو لا  
يسامح في التأخير.

هل التمتعت عيناها فاضحة شكها في لهفتي للمغادرة؟ أم  
أنني «كالمرب بكاد يقول خذوني»؟!  
ابتسامتها الخائفة تودعني فأردها لها بأخرى مطمئنة مع  
قبلة على وجنتها الناعمة المشدودة رغم تقدم سنهائه أهبط الدرج  
ركضاً متشبثة بحقيبتني وكشكولي.  
- يونس! كم افتقدتكم!

الابتسامة الحمقاء تطرف حول شفتي وأنا أسير في طرقات  
حارتنا الضيقة، ذكرياتي القليلة معه تدور في رأسي تباعاً كشريط  
قصير يعاد عرضه، ثلاث مرات بالضبط التقت فيها عيوننا بأكثر  
من لمحة عابرة لأشعر فيها أنه يميزني حقاً، فلا تمر بي نظراته إلا  
وقد تلكأت فوق ملاححي كأنها ترسمها.

هل تراني جميلة يا يونس؟! تراك لم تتزوج حتى الآن لأنك  
تبحث عن مثلي؟! ماذا ستفعل لو أريتك صورة أبي لتدرك لماذا  
عشقتك من أول نظرة؟!  
BROOK

يبتلعني المزيد من الشرود المبتسم وأنا أتخيل حديثاً يدور  
بيننا، صوته الذي عشقته يخنني أخيراً وحدي، عيناه العميقتان  
ترسو سفنهما فوق شواطئي، وابتسامته التي لم ألمحها يوماً تولد

كطفل بريء يحتضنه مهد عينيّ.

عاشتك أنا يا يونس، بل مهووستك!!

- ضي!

الصوت «الكريه» يستوقفني فأشهوq وأنا أتوقف مكاني

لأرفع عيني نحوه فأصطدم بملاحة التي يتصارع حولها ألف  
شيطان، ابتسامته اللزجة تواري خطوة تقدمها هو وتأخرتها أنا،  
ليهمس بما بدالي كالفحيح:

- اشتقتك يا بنت خالتي!

يمديه بما بدا كمصافحة، لكنني كنت أعلم ما خلفها وما يشيره  
بداخلي من غثيان، لهذا نفضت كفي عنه بسرعة لأغمغم بتلعثم:

- صباح الخير يا «خطاب»، أنا متعجلة لأجل محاضراتي،  
عمتي يافا بالبيت لو أردت المرور عليها.

ضحكته الساخرة المكتومة تثير المزيد من غثياني، لكنني  
أجتاوزه بسرعة لألقي نفسي في أول حافلة أجدها، أراه عبر  
زجاج نافذتها يرمقني بنظراته المخيفة، باللمفارقة!

هذا البغيض هو كل ما بقي لي من رائحة أمي!

عمتي يافا لا تحبه، أهل الحارة لا يحبونه، كل عاقل يملك  
ذرة شعور لا يحبه، كتلة من كل ما يمكنك أن تبغضه في البشر.  
صفاقته، وقاحته، ملاحه الشرسة، بذاءته،

عمل!؟

خطاب لا يعمل، إلا لو كانوا يعترفون بـ«البلطجة» كمهنة

رسمية هذه الأيام، تبالك يا خطاب!

أفسدت اليوم بظهورك البغيض مثلك!  
لا.. لا.. لا يفسد اليوم ويونس فيه.  
نفسٌ عميقٌ أسمح له بغسيل صدري، عشرون دقيقة  
تفصلني عن السعادة، فليذهب ما دون ذلك للجحيم إذا.

الابتسامة الملونة بحروف اسمه تعاود احتياح شفتي،  
الحافلة تصل أخيراً للموقف القريب من مبنى الجامعة، أترجل  
منها لأعدل ملاسبي وحجايي، حقيبي تسقط، أنحني لألتقطها  
فتلنقظ أذني صوت صرير عنيف لسيارة.

الخوف يشلني مكاني مع تفصد جيبي بالعرق، أنفاسي  
تختنق داخل صدري بهذه الحالة التي تلازمي منذ صغري عندما  
كنت أسمع صوت القصف حولنا.

- أنت بخير؟!

دموعي تسيل دون وعي، ولا زلت عاجزة عن التقاط  
أنفاسي خاصة مع جنون خفقاتي، لكن الصوت الحبيب يجعلني  
أرفع عيني لصاحب السيارة الذي ترجل منها لتوه، فتمتم  
شفتاي دون صوت تقريباً:

- يونس!

BOOKS

## (الظلمة الثانية)

وغرقتي صاحبتني.. بتحوم حواليا

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- حاجباك مصبوعان!

لم أكن ممن يمتلكون مهارة جذب الجنس الناعم، ولولا انجذاب بعضهم إليّ لأجل ثرائني - المستحدث - ومركزي المرموق لما حظيت بتلك العلاقات التافهة - غير الكاملة - ربما لهذا كانت كلماتي الأولى هذه - بعدما اختليت بها في مكثي بالجامعة - ضرباً من الغباء أو الفظاظة، أو كليهما معاً.

حقاً لم أستطع منع نفسي من التعليق على لون حاجبيها

الفاتح، ماذا يكون لون شعرها إذا؟!

تباً! خيالاتي بها ستقتلني!

لكنها بدت شديدة التسامح مع فظاظتي هذه، فقد أشرقت

ملاحظتها لتجيبني ببراءة لا أظنها تصنعها:

- أبدأ، كثيرون يعتقدون هذا، كما يعتقدون أنني أضع

عدسات لاصقة؛ لأن عيني لا تلتان سمرة ملاحي، ورثت

الأولى من أمي والثانية من أبي.

أرقبها جالسة أمامي ببعض الدهشة وأنا أرى وجنتيها تحمران  
بقوة، تبًا! ألا تعلم هذه ما تفعله حمرة الخجل بالسمراوات؟!  
خلاياي تنتفض بأثر لم أعرفه لامرأة قبلها، خاصةً بهذا  
المزيج النادر من تلعثم الخجل وتمكّن الثقة.

امرأة؟! هل يجوز وصفها بهذا؟!!

عيناى الماكرتان تحاولان سبر أغوار أنوثتها، لكنها تعود  
حائبة أمام حجابها الساتر، ولا تزال تردف بنفس المزيج من  
العفوية والخجل، بينما تطرق بوجهها وتشبك أناملها.

- أنا نصف مصرية، أب فلسطيني وأم مصرية.

ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتي وأنا أتبين ربة الفخر في  
صوتها وهي تتحدث، ربما لهذا تخلّيتُ عن حذري وعفويتها  
تنتقل إليّ:

- تبدين فخورة جدًا بهذا.

هنا ترفع لجنتيها الزرقاوين نحوي فأتبين هذا الصفاء النادر

فيها، لترجح كفة الثقة في نبرة صوتها أكثر مع هذا الإيثار:

- لو لم يكن الفخر بهذا فبمّ إذا؟! فلسطين أرض العزة،

ومصر أم الدنيا، وأنا ابتنتها معًا.

أتحكم في ابتسامتي الساخرة فأبتلعها تمامًا وأنا أتجاوز الأمر

لأسأله:

- كيف تعيشين هنا؟!!

لم تتردد كثيرًا وهي تحكي لي كأنها هو فيض النهر الذي انزاح  
عنه السد فجأة، تدمع عيناها وهي تروي لي عن عيشها هنا مع  
عمتها، عن يتمها الكامل بعد وفاة أمها وأبيها قبلها، عن طفولتها  
التي قضتها معه في غزة حيث لا تزال تذكر تفاصيل جملها، عن  
صفات الرجل التي تقارب أبطال القصص، عن استشهاده -  
كما تزعم- تحت قصف اليهود، وعن عهده الذي صدقه مع الله  
فصدقه الله عهده.

هذه المرة لم أستطع طمس ابتسامتي الساخرة التي تلونت  
بمرارها، واحدة أخرى من الحمقى الذين لا يزالون يؤمنون  
بهذا الهراء.

لكن ابتسامتي تتجمد مرة أخرى وأنا أراها تتلمس سلسلتها  
لتفتح دلايتها المغلقة فتبدو لي صورة الرجل.

تبا! لهذا كانت تطيل النظر نحوي حتى ظننتها مخبولة! لولا  
ثقتي أنها ليست صورتي لظننته أنا!

- يشبهك كثيرًا.

همسها يتلثم من جديد بهذا الخجل، فتلقتي عينانا للحظة  
واحدة، لجثاها الصافيتان تشعلان بداخلي النار، وربما النور.

النور! عدوك يا يونس!

- طريق الله يا يونس، عرفت فالزم.

- «البلد» في حاجة لك يا يونس! مصر التي يريد «أولاد

ال...» حرقها!

- أحبك يا يونس! سأعيش وأموت عليها!  
«الومضات» السابقة من تاريخي تجتاحني خاطفة، بل مكتسحة!  
الأولى بصوت الشيخ غريب، الثانية بصوت مجدي، والثالثة  
بصوت «قمر».

ومضاتٌ نستبيح ظلماتي بنيران لم أعد أحيا سوى لإطفائها،  
فليعيش ظلام يونس دون نار ولا نور.  
- لو صرت الآن بخير.. اخرجني!  
تبدو فظاظتي وكأنها أخرجتها هذه المرة، فتعود أنفاسها  
للتلاحق مذكرةً إيبي بحالتها منذ قليل عندما كدت أضدمها  
بسيارتي، لم أصدق وقتها أن يدبر لنا القدر لقاءً كهذا يخترق  
حاجز الصمت بيننا، القدر! هل عدت تؤمن بالقدر يا يونس!  
أهز رأسي نفيًا في إجابة لخاطري الأخير وأنا أراها تقف  
مكانها، تعلق دلالة سلسلتها على صورتها بأنامل مرتجفة فضحت  
عاطفتها، وكأنها تنقصها حركة كهذه.  
- شكرًا.

تمتم بها دون صوت تقريبًا، تمامًا كما فعلت باسمي منذ  
قليل عندما توجهت إليها بعد حادث السيارة، فلا يختلف تأثير  
الثانية عن الأولى، كلاهما مهلك.  
ربها لهذا وقفت دون وعي أطارد ملاحها عبر هذا القرب،  
وجهاها كان خاليًا تمامًا من مساحيق التجميل، لكنني كدت



أقسم في هذه اللحظة أنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي، ربما أجمل من «قمر».

تبًا! هل عدت أذكرها؟! بل هل نسيتها حقًا؟! هذه الفتاة خطيرة جدًا تشعل ثوراتي التي قمعتها منذ زمن.

- اخرجني!

لا أدري هل ارتفع بها صوتي حقًا أم أنها قرأتها في نظراتي النافرة، لكنها ابتسمت رغم هذا لتغمغم بنبرتها المتأرجحة بين حجل وثقة:

- اسمي ضي!

كأنني لا أعرفه! كأنه لا يلسعني بما يشبه الشياطين!

- فخورة جدًا بأن عبقرية مثلك يدرّس لي، كفخري بوطني معًا.

الابتسامة الساخرة إيها تتصارع مع النظرة الغاضبة في عيني وأنا أراها تعطيني ظهرها لتغادر، تُرى هل ستبقى على فخرها - المزعوم - هذا لو علمت...؟!!

فلتبقِ مخدوعة، الوهم أرحم بنا من الحقيقة أحيانًا.  
ولأبقِ أنا مختبئًا في مثلك ظلماتي.

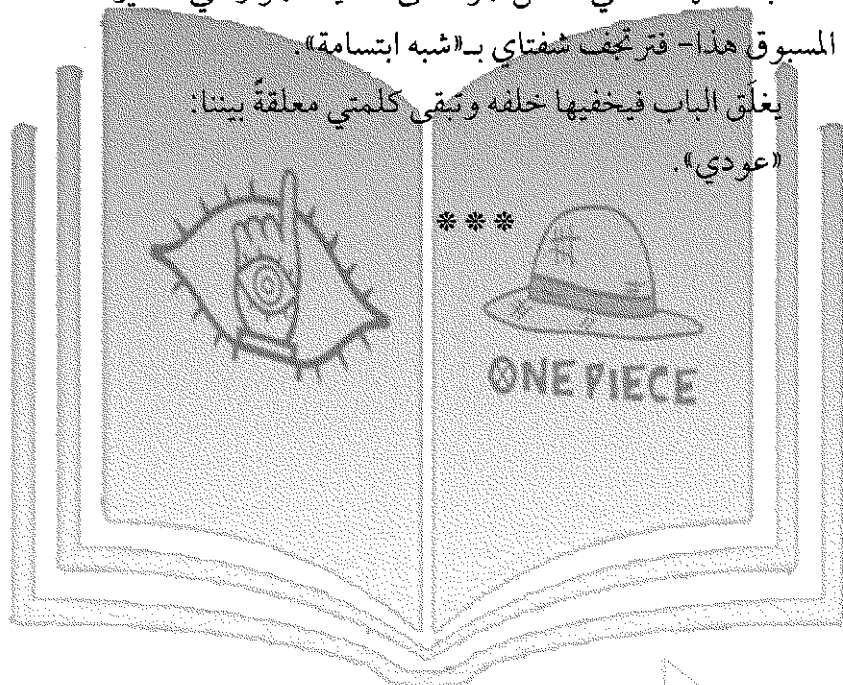
لا تعودني هنا، لا تنظري إلي بعينيك هاتين بعد الآن أبدًا،  
أخفي دلالة سلسلتك هذه بصورتها التي تشبهني والتي تتأرجح  
قرب قلبك ببطء مغيظ، اغربي.. أعتمي..

خواطري الشائرة تكاد تحرق حناياي، لكنني - وللعجب-  
وجدت لساني يترجمها قسرًا للعكس:

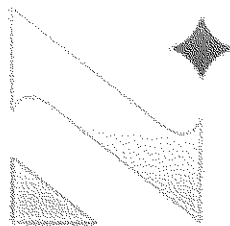
- لو صعب عليك فهم أي شيء، عودي.

ابتسامتها تمنحني أفضل جزاء على عصيان جوارحي - غير  
المسبوق هذا- فترتجف شفطاي بـ«شبه ابتسامه».

يغلق الباب فيخفيها خلفه وتبقى كلمتي معلقة بيننا:  
«عودي».



BOOKS



\* ضيّي \*

\*\*\*

- ما بالكِ مترددة هكذا؟! اطرقني الباب، هل سيأكلك؟!!

تقولها حبيبة - صديقتي - بصوت خفيض وهي تقف جوارري أمام باب غرفة مكتبه المغلقة، فأرمقها بنظرة مترددة خجلتي، شهر بأكمله مرّ منذ بداية العام الدراسي حيث تحدثنا معاً لأول مرة.

شهرٌ لم أزد له فيه سوى عشقاً، بينما بدا هو وكأنه يتباعد، يتحاشى النظر نحوي تماماً، وحتى عندما تجرأت للوقوف وسؤاله في محاضراته أجباني بعملية دون أن ينظر نحوي، لست ساذجة لأدرك أنه يتهرب مني، لكن لماذا يفعل؟! هل أخفقت في اختبار المقابلة الأولى؟!!

- أسرع يا فتاة! وقفنا هكذا تثير الشبهات، اسمعي نصيحتي، هكذا يتم اصطيد الرجال، صحيحٌ أن يونس هذا ليس الصيد الثمين الذي قد تترجيه فاتنة مثلك، لكن لا بأس به مادمت مغرمة به هكذا.

تقولها بسرعة تجعل كلماتها غير مفهومة تقريباً، خاصة مع ارتباكها الذي ابتلع تركيزي، لكنني ابتعدت خطوة عن الباب وقد برزت صورة «يافا» أمامي لأقول لها ببعض الحسم:

- غيرت رأيي، لا أريد.

- سأطرقه أنا.

تهم بطرق الباب بنفسها فأنجح في منعها بسرعة، لكن الباب يُفتح فجأة ليطل هو من خلفه.

تلاحق أنفاسي للمفاجأة، بينما تهرب الجبانة وتتركني وحدي أمامه، أصطدم بحاجبيه المنعقدين، عينيه اللتين تبدوان وكأنهما تنتقمان لكل هذه المرات التي أشاح بهما عني فتلتصق نظراتها بي مأسورة وآسرة، يا الله! كيف يمكن هكذا أن تكون النظرة بألف عناق!؟

أبتعد خطوة أخرى وصورة يافا تحول بيننا تلومني على أفكارى، أناملى تقبض على دلالية سلسلتي بقوة وأنا أطرق برأسى في مزيج من اللذنب والحجل

- ماذا تريدان!؟

صوته اللفظ يمتزج برضا خفي أم أنني فقط أتوهم!؟

ماذا أقول!؟

- أهناك ما لا تفهمينه!؟

هل تلاعبت نبرته ببعض السخرية أم أنني كذلك أتوهم!؟  
أومى برأسى دون وعي بما يبدو كالجواب، كذبة ساذجة لكنه صدقها، أو هكذا ادعى!  
أسير خلفه فأجلس قبالة أمام مكتبه كالمرّة السابقة، لكنني كنت أشعر بقيد الذنب يكبلني هذه المرّة، ذنب كذبتى وخجلتي،

لو علمت يافا!

لن أكررها، سأستمع بصحبته لبضع دقائق فحسب، لا أريد سوى هذا.

أسأله بصوت مرتجف يفضح كذبي عن محاضراته الأخيرة، وكعادتي لا يمكنني رفع عيني في مواجهة من أكذب عليه.

فيصلي صوته الحبيب في جوابٍ كافٍ مفصّل بنبرته العملية التي تثير إعجابي وفخري.

يتهيئ حديثه بصمت قصير فأجروا أخيراً على رفع عيني نحوه.

الآن فقط أتبه، إنه يشبه أبي في ملامحه كلها عدا هذه النظرة في عينية السوداءوين كليل بلا قمر.

نظرة شديدة القسوة كأنها قُذت من حجر، لكنها تتبدل في ثواني لأخرى زائغة، شريفة، كأنه لم يعد يراني.

إنها المرة الأولى التي أراه دون رابطة عنق وقد حل زرار قميصه لتبدو منه هذه..

يا الله! لم أر يوماً ندبة بهذه البشاعة!

يبدو أنه لاحظ تعلقي بالنظر إليها، لكن هل يستحق الأمر نظرة الحق المذعور هذا في عينية وهو يحكم إغلاق زر قميصه!؟

- تريدين السؤال عن شيء آخر!؟

فظاظته لم تزعجني هذه المرة وأنا أحسها ترتجف بخوف

استشعره قلبي جليًا، عجبًا! طالما منحني حبه هذا الشعور بأنه  
أبي خاصة مع التشابه الجلي بينهما، لكنها المرة الأولى التي أتمنى لو  
أكون له أمًا، أمًا تحتضن كل هذا الخوف الذي تنصهر به حدقتها.

يريدني أن أسأل؟! هل يمكنني حقًا أن أسكب حيرتي  
وفضولي وهفتي لكل ما يخصه دون خجل أو حرج؟! رياه! كيف  
يمكن أن أذوب عشقًا هكذا للرجل لا أعرف عنه سوى عبقريته  
المشهوده وشبهه الشديد بوالدي؟! أدخلني دنياك يا يونس،  
أفعلها وأعدك ألا تندم، وألا أندم.

حواطري الهائمة تذوب على شفتي فيزجمها لساني لكلمة  
شكر تقليدية وأنا أدرك أن موعد المغادرة قد حان، كفاي منه هذا  
القليل، والقليل منه كثير لو يدري!

أعطيه ظهري لأنصرف وقلبي يخفق بفرحة من وضعوا  
الدنيا في كفيه دون مقابل، لكن هذا لم يكن شيئًا أمام هذه الرعدة  
التي انتابتنني وأنا أسمعته يتفوه باسمي:

- ضي.

ألقت نحوه لتلتقي عينانا فيمتد هذا «الجسر غير المرئي»  
بيننا، يقولون إن العين مرآة الروح، ومرآته هو كانت مشروحة،  
بل مكسورة، تشوش الصور بداخلها فلا تمنحني سوى المزيد  
من الحيرة، لكنني مع هذا أجدني مجذوبة نحوها دون إرادة.

- لا تخبري أحدًا.

عبارته تهزني بقوة ولا أعلم السبب، هل هي اللهجة التي  
نطقها بها بين رجاء وحزم؟! هل هو شعوري أنه قد صار بيننا  
ما يخصنا وحدنا ويحرم على سوانا؟! أم هو عجزني عن فهم ما  
يقصده بالضبط؟! ما الذي لا يريدني أن أبوح به؟! لقاءنا؟!  
حديثنا؟! أم.. هذه الندبة التي رأيتها؟!

والجواب واحد وإن اختلفت الأسئلة، إيباءة رأس بالطاعة  
بدالي وكأنه يكافئها بـ«شبه ابتسامته» كالعادة.  
هل أخبره كم يبدو رائعاً بها؟! الليلة قبل نومي كالمعتاد  
سأخبره في خيالي بكل ما عجزت عن قوله هنا.  
يشير لي بالانصراف فتقرأها عيني العاصفة ككفّ يلوح برقة  
مودعاً وواعداً بلقاء قريب.

أغادر غرفته هائمة بشعوري الذي يزداد اكتساحاً يوماً  
بعد يوم، ولا يتغصه سوى شعوري بالذنب لأنني أخفيه عن  
يافا، لكن عذري أنني لا أريد إزعاجها، كفاها قلقها عليّ بشأن  
ذاك الوغد خطّاب الذي يتعرض لي من آنٍ لآخر، الغريب أنني  
عندما تركت غزة لمصر ظننت أنني تركت الشر كله خلفي وأنتي  
عائدة لوطن السلام، لكنني كبرت لأدرك أن الشر موجود في  
كل الأوطان وأن الهروب منه ليس حلاً، لكن ماذا تصنع مثلي  
مع مثله وأنا وحدي بلا سند؟

أتغاضي عن أفكارى السلبية مكتفية بسحر لقائي الأخير

مع يونس، تلتقيني حبيبة فتستبقني بقبلة اعتذار أقبلها بتسامح  
كعهدي، ثم تسألني عما دار بيننا، أحكي لها لكنني - بلذة خفية -  
أحتفظ بسرنا لنفسني، هو طلب مني ألا أخبر أحدًا، فكيف أرد  
له طلبًا؟!!

ضحكاتي تنطلق صادقة كما لم أعرفها يومًا وأنا أسير جوارها  
لنغادر مبنى الجامعة، يافا تنهائي دومًا عن التسكع، لكنني  
أستجيب لحديث عهدي بالتمرد الطفيف، فأتوجه مع حبيبة  
لمحل العصائر القريب، تطلب عصيرها المفضل من المانجو  
وأطلب مفضلي من «القصب»، نعاود سيرنا ضاحكتين نتشارك  
الخطط والأحلام ثم نستقل الحافلة معًا، فتركني هي في محطتها  
وأبقى وحدي في انتظار محطتي، لا يزال شعوري بالذنب نحو  
يافا يتضخم، ربما لهذا انتويت شراء «الكنافة النابلسية» لها قبل  
عودتي حتى ولو كان هذا يعني أن أفقد ما بقي من مصروفي  
وأمشي على قدمي للجامعة بضعة أيام.

لكنني لم أكد أترجل من الحافلة حتى اصطدمت بوجه  
خطاب اللزج بنظراته الكريمة وخطواته البطيئة نحوي.

- تأخرت اليوم.

كيف يعلم هذا أنني تأخرت؟! هل يراقبني يومياً؟! هل بلغ

به الفراغ هذا الحد؟!!

أبتلع غصة حلقي وأنا أطرق برأسي لأجيبه مهادنة كعهدي:



- الزحام.. كالعادة.  
- مثلك لا يليق به جو «التلمذة» هذا، لقد خلقت لتكوني ملكة بيتك.

يا للسخافة! عدنا لأسطواناته التي لا يمل تكرارها، لو يدرك الحمقى كم يبدوون حمقى لتوقفوا عن هذه السفاهة.  
أعتذر منه بكلمات مقتضبة وأنا أخبره عن وجهتي، لكنه يصّر أن يصطحبني:

- لا يصح هذا يا خطاب، الناس  
- الناس يعلمون أنك قريبي، ومن يتكلم عفا فأنا كفيّل  
يقطع لسنانه، امشي يا «بيت الناس» ولا توفطي شياطيني.  
يقاطع بها كلماتي بحدة تخيفني، فأقف مكاني عاجزة إلا من هذه الدموع، ويبدو أن ضعفي يشجعه ليمسك معصمي هاتفاً:  
- هيا!

يتحسس بشري بهذه الطريقة المقرزة خلسة فأنفض ذراعي منه هاتفة بمزيج من اعتراض وخوف:

- اتركني «الله يرضى عنك».  
لكنه يعاود اقتحام حصوني بفجاجة لا يوقفها سوى هذا الهتاف الهادر من خلفي:

- ألم تقل لك اتركها؟! دعها وشأنها.  
يونس!! باللفضيحة!!

ما الذي جاء به خلفي؟! هل هي مصادفة؟!  
ماذا سيظن في؟! بل.. وماذا سيفعل به خطاب؟!  
خطاب الذي تنمرت ملاحه وهو يدفعني بعيداً بقسوة  
ليقترب منه هاتفاً بلهجته الوحشية:

- أعد ما قلت يا هذا فربما أذناي ليستا بخير!  
يقولها وهو يجذب يونس من سترته بأحد كفيه بينما يسحب  
مديته من جيبه بالآخر، ليهتف يونس برود قارس:  
- «كُلِّك» لن يكون بخير.

أشهوq بخوف وأنا أندفع نحوها محاولة اقتداء يونس.  
لكن ما حدث جعلني أتجمد مكاني مصدومة.  
فلم يكذب خطاب يرفع مديته حتى سمعت الصرخة تغادر  
فمه هو وركبة يونس تنال من أسفل بطنه في نفس اللحظة  
التي أحكمت فيها قبضة الأول إطباقها على معصم يد خطاب  
الممسك للمدية ليلويه خلف ظهره مجبراً إياه أن يتخلى عنها.

الناس يتجمعون حولنا محاولين منع الصدام الذي صار  
بينهما لينال يونس من خطاب لكمة واحدة، لكنه ردها له ثلاثاً لم  
يحتج لسواها حتى سقط بعدها خطاب مغشياً عليه.

- صلِّ على النبي يا أستاذ! اذهب لحالك!  
يهتفون بها بكلمات ظاهرها الاستياء وباطنها الرضا، فلم  
يكن أحدهم يغفل عن طبيعة خطاب الكريمة، ليتحرك يونس

نحو سيارته التي كان قد رصفها بعيداً، فيما أقف مكاني لاهثة  
الأنفاس متعركة الجبين، وقد عادت الأعراض إياها تتتابني  
فأعتصر قميصي بقبضتي محاولة التهاك.

لكنه يرمقني بنظرة داعمة رغم هذا البعد قبل أن يجتني  
داخل سيارته.

- ارجعي بيتك يا ابنتي حتى لا تقلق العمه يافا.  
يهتف بها «المعلم عطوة» صاحب المقهى القريب بمزيج  
من الحزم والحنان الشرقي المحبب، فأشير له برأسي لأهرول  
بخطوات شبه عرجاء نحو بيتنا.

تستقبلني يافا بقلق وهي تميز لهاث أنقامي وحالتي التي لا  
تخفى عليها، فتتهفت وهي تضميني لصدرها:  
- ماذا حدث؟!!

أستسلم ليكائي على صدرها كما أفعل منذ سنوات، فتربت  
على ظهري هاتفة بجزع:

- اهذي.. أنتِ في حضني.. ماذا فعلوا بكِ يا «قلبي»؟!  
أعجز عن الحديث لدقائق مكتفية بعناقها الدافئ حتى  
أتمالك أنفاسي فأحكي لها، لم أستطع إخبارها عن يونس سوى  
أنه أستاذي في الجامعة فحسب، وأن وجوده كان مجرد صدفة.

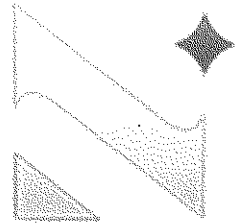
يعلو صوتها بالدعاء على خطاب، ثم تتوعده بعقاب تعلم  
هي قبلي أنها ليست قادرة عليه، لكنها تفعلها بقلب أم ستدافع

عن صغيرتها حتى ولو لم تملك سوى مخالبا الضعيفة.  
- لا تخافي، سأحدث «المعلم عطوة» ليدبر لنا حلاً بشأن  
خطاب هذا، بدلي ملابسك وأنا سأعد لك حساء الدجاج الذي  
تحببته، سنأكل سوياً وبعدها نصلي ركعتي حاجة لتفريغ الكرب،  
ربك كريم.

حنانها المصطبغ بالإيمان يلفني بغالته الراقية كالعادة،  
فتتلاشى مخاوفي رويداً رويداً وأنا أختلي بنفسي في غرفتي، أنخلع  
وشاحي وأبدل ملابسني لأخرى بيتية مريحة، أصطدم بصورتي في  
المرآة لكنني لا أراي وحدي، بل أراه معي، يوس، بنظرته الداعمة،  
ملاحه الدامية لأجلي، «شبه ابتسامته»، صدى كلماته، وأخيراً سرنا  
الصغير الذي بدأ اليوم وأدعو الله ألا ينتهي أبداً.. أبداً.

\*\*\*

BOOKS



## (الظلمة الثالثة)

وانتي تقولي بـجـبـك؟! تحي إيه فيا؟!!

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- أريد منك خدمة.

أقولها لـ«مختار» عبر الهاتف فيحسني بالطاعة والود المبالغ فيه كعهده منذ قررت التعاون معهم، كنت أظن منفعتي معهم ستكون مادية فحسب، لكنني علمت بعدها أن أذرعهم طويلة حقاً حتى داخل البلد.

- اسمه «خطاب...»، بلطجي، لو لم تُخلق السجون لثله

فلمن إذن؟!!

أقولها له بعفوية فيصدمني رده الساخر:

- هل تريدني أن أجيبك حقاً؟! أنت بالذات تسأل؟!!

أشعر بالدماء تفور في عروقي و«ومضة» قديمة من تاريخي تسطع من جديد.

صوت الأمين «مجدي» يدوي في أذني بسبابه البذيء الذي يسبق تعصبيه لعيني وتقييده لأطرافي، ثم هذا الألم الذي لا يشبهه ألم آخر، وهو يصيح وسط سبابه:

- انطق يا «...»! تظنني مجرد «أمين شرطة»؟! أنا عمك  
الأسود الذي سيديقك الموت حياً يا «.....»!

يهدر بها مرة بعد مرة بسبابه البذيء فتساورني نفسي  
بالضعف، بالاستسلام، لكنني أتذكر جابر عندما قال لي يوماً:

- ما يخون العهد إلا ابن الحرام، وانت ابن حلال يا يونس،  
إياك أن نخون من آمنك.

حروفه التي حفرت الرجولة كألّف وشم على جسدي تعاود  
شحن طاقتي، فأصرخ بالرفض ليتجدد العذاب بأشد منه.  
صعقة خلف صعقة خلف صعقة، حتى يسقط رأسي  
ويرحمي وعيي من الإدراك.  
- اعتبره قد تم.

يتزعني بها مختار من شرودي، فأكاد أشكر له هذا، لكنه  
يغلق الاتصال فجأة كعهده كلما تنتهي حاجة أحدنا لصاحبه.

زفرة حارّة تغادر صدري وأنا أشعر بدمائي تفور في عروقي،  
غرفة مكثبي في الجامعة هذه خانقة حقاً، أشغل جهاز التكيف

العقيم الذي يلفظ آخر أنفاسه فيعمل بكفاءة مروحة متهالكة،  
وأفك زرقميصي ببعض الخذر لأنذكر ما حدث بالأمس.

كنت قد فككته وقتها كذلك لشعوري بالحرق، خاصة وقد  
أغلقت باب الغرفة عندما شعرت بظل أقدام تقترب من خلف  
الباب وتتوقف أمامه.

شعوري المستديم بالحذر ودقة ملاحظتي لم يفوتاً شيئاً كهذا،  
فاقتربت بخفة لأميز الصوت الخفيض للفتاتين، ضيّ! صديقتها  
تحدثها عني! أرهف السمع لأتلصص لصوتها الخفيض، فلا  
أسمع سوى كلمات متناثرة لكنها كانت كافية، الفتاة مغرمة بي  
حقاً، تظنه هي حباً ويظنه - من يكفر بالحب مثلي - مجرد «تخاريف  
مراهقة»، لكن سماع هذا وحده كان كفيلاً ببعثرتي في وادي التيه  
الذي تعرفه خرائطي أخيراً! معها، سمعتها بعدها تريد الابتعاد،  
لهذا بادرت بفتح الباب بسرعة كي أقطع عليها طريق التراجع.  
ملاحظتها البريئة كانت مذنبية! آه يا صغيرتي! ما الذي تعرفه  
مثلك عن المذنب؟! تكذبت فتدعي عدم الفهم، تكذب، وأعلم  
أنها تكذب، لكن لو لم تشفع لها حمرة الخجل تلك، هروب عينيها  
المذنب ذاك، ارتجافة أناملها المتشابكة تلك، فماذا يشفع؟!  
كان الأمر ليمر عليّ كأروع نسمة رقيقة مرت على صحرائي  
منذ زمن بعيد، لولا ملاحظتها لنديتني هذه.

تباً! لماذا أنت من بين نساء العالمين تتعثرين بأضخم صخور ي؟!  
من جديد صرخت بها - دون صوت - أن اغربي... أعتمي.  
لكنها لم تستمع سوى لصوت لساني - الخائن - يريجوها أن  
تبقها سرناً!  
لمعة عينيها وقتها كانت أكثر إشراقاً من كل شمسها التي  
أصر على تجاهلها.

ربما لهذا تتبعتها خلصة من بعيد، راقبتها تضاحك صديقتها بتلك  
الطريقة التي تكاد تذهب بعقلي، تسيران فأسير خلفهما على مسافة  
مناسبة لأجدها - في مصادفة نارية جديدة- تختار شرب القصب!

القصب! آه!

كيف صار حالكِ معه يا «نجية»؟!!

هل لا تزال أسنانك الفتيّة قادرة على تقطيعه لتمنحيه  
ك«مكعبات من السعادة» لأطفال الجيران؟! أم أن الزمان  
كسرها مع ما كسره؟!!

منذ متى لم ترتو عيني برويتك؟! منذ كسروني، شوهوني، لم  
أكذب يوم قلتها، ابنك مات يا نجية.. مات، وما بقي منه شبح  
لا يعرف سوى ظلام الجحيم!

تبا لكِ يا ضيّ! لا تزالين تتمرغين وسط أوحال ماضي،  
تمزجين براءتك بقبس النور الذي يتسرب غادرًا بين شقوقني،  
ولا تدركين أنك من ستدفعين الثمن، اهربي مني هروبك من  
الموت يا صغيرتي، اهربي أنتِ فربها لست أنا بقادر.

أجل، ما عدت قادرًا على تجاهلكِ كالسابق، هل تصدقين  
أنني تتبعتك بسيارتي بعدها خلف حافلتك؟ كل ما كنت أرجوه  
أن أشبع شغفي المستحدث بك، لكنني رأيت ذلك الوغد يعترض  
طريقك فلا يرده ضعفك.

وددت ساعتها لو أقايضك، لو أمنحك بعضًا من شراستي



تعينك على ذئاب الطريق، وتمنحيني قبساً من نورك أنسى به  
ظلمتي، لكن هل أريد حقاً نسيان ظلمتي؟!  
لا يا ضي، ظلمتي لا تُنسى، ظلمتي قبر دنيائي وآخرتي،  
ومثلي اعتاد سكنى القبور!

صوت طرقات على الباب.

كوني أنتِ!

- أدخل؟! -

الآن تستأذنين؟! أنتِ دخلتِ منذ زمن يا غافلة.

ملاحك تبدو شاحبة وعينك الناعستان فضحان قلة النوم،

ومن مثلي يفهم وشاية السهر؟! -

شكراً.

من جديد همسين بها دون صوت فتخترق قلبي ككذيفة،

ألم يجبروك أن أكثر الأصوات دويًا هي في الحقيقة ما تفتقد رنين

الصوت؟! -

هو ابن خالتي.

همسين بها بخزي يعز عليّ من عزيزة مثلك، تظنيني لا

أعلم؟! تظنيني لم أحط بكل تفاصيلك خبيرًا؟! -

لا هم، لن يضايقك بعد اليوم.

فظاظة صوتي تخذلني كالعادة لكنك لا تفعلين.

لم تفهمي ما أعنيه لكن طبيعتك النورانية لا تزال تبحث عن

النبت وسط الصخور، تتبسمين وتكتفين بكلماتي كنبوءة.  
ومن مثلك يعيش على نبوءات الأمل؟!  
تمدين أناملك بما بدا كهدية ملفوفة بورق مفضض يلمع  
مثل وجهك في ضوء الغرفة.

- أحد كتب أبي التي أحفظ بها في مكتبته، لم أستطع فهمه  
لأنه بالإنجليزية، فكرت لو تقبله مني كهدية.  
حجلك يتلعم مع هذا الشجن الذي يلون حروفك.  
«سرداب الظلال» الذي يمتد بين ظلمتي وفورك لا يزال  
يجتذب خطواتنا معًا.  
سرداب لا أعرف متى بدأ ولا كيف سينتهي.  
لكنني أعرف خطورة أن تكوني أنت رفيقتي فيه.  
لا يصدمك برود ملاحني القاسي يا صغيرتي؛ فلا تدرين أي  
جحيم أصطلي به تحتها!  
- ألن تقبله؟!

غصة حلقك تصيب مني قبلك، لكنني أختبئ خلف أسوار

ظلامي.

- لا أقبل هدايا من طلابي، وما فعلته معك بالأمس ليس  
إلا تصرفاً طبيعياً جاء مصادفة.  
لم تفاجئني لمعة الدموع الخائبة في عينيك، لكن هذه  
الابتسامة العاشقة التي شقت طريقها فوق شفطيك.

- لو عشتَ حياة كالتي عشتها أنا لأدركتَ أنه حتى التصرف الطبيعي يستحق الشكر أحياناً.

تقولينها ثم تعطيني ظهرك كي تنصرف فيرتجف قلبي بلوعة تثير غضبي منك أكثر.

من تكونين لتشعلي هذه الثورة داخلي ثم تمضين هكذا؟! لكن.. من أكون أنا كي أقطف بتلاتك تباعاً في بحث عن جواب لسؤالي الاستثنائي: لي.. أم لست لي؟!

- انتظري.  
تلتفتين بكل جسدي فتصلي هفتك كشعاع نور يشبهك يؤذي عيني ويهدد قلبي، أتوجه نحوك و«سرداب الظلال» بيننا - للعجب - يزداد طولاً مع كل خطوة أخطوها نحوك.  
- احتفظي بكتاب أبيك، لكن يمكنني أن أترجمه لك، نصف ساعة كل يوم، نقرأه معاً.

وكفرحة يتيم بحلول العيد كانت ضحككتك.  
وكخوف شيطان من ترتيل الهداية كان انعقاد جيني.

تغادرين، وليتك تغادرين!  
ما أدراك أنت عن ناري؟! وماذا عساني صانعاً فيك؟!  
أنا لا أحرق البراعم، لكنني أدهس الزهور التالفة دون رحمة، وأنت لا تزيدين في عيني عن كونك برعمًا أبيض يتمطأ بدلال كسول تحت شمس حارقة، من يخبرك يا صغيرتي أن البراعم

البيضاء لا تليق بغباء ظلمة هذا العالم، ولا بقسوة شمسهِ؟!  
أفكاري تنقطع عندما أسمع الطرق على الباب من جديد  
فألثقت لعله أنتِ، لكن السخرية الممزجة بمرارتها تلفني وأنا  
أرى «نقيضتك» أمام عيني.

قمر!!

أه لو تعلمين منذ متى أنتظرك وأعلم أنك ستأتين!!

- كيف حالك يا يونس؟!

صوتك المغناج لا يزال يجيد العزف على أوتار رجولتي،  
لكتتي سأبهرك بعزف سياتي على ظهر كبرياتك.

- أدخل؟!

ستدخلي، وستخرجين، ستخرجين كما أردت لك بالضبط  
منذ تلك الليلة؛ نفاية ملقاة على جانب الطريق لا يهتم الرائي إن  
كانت مكدسة أم مبعثرة.

- لماذا لا تتكلم؟! أعلم أنك لا تزال غاضبًا مني، لكن...

مبررات؟! من جديد تسكين مبرراتك الهزيلة في أذني كما

فعلت ليلتها؟! ألم تنتهي يا حمقاء أن الأذن التي عشقتك يومًا

الآن قد أصابها الصمم؟!

تتحدثين، فلا أسمع، تدمعين، فلا أرى، تقتربين، فلا أبتعد

ولا أقرب، بل أقف بسكون جبل ينتظر ارتطامك الوشيك به،

ثم سقوطك.

سقوطك هو ما بقي لأجل أن أعيشه بانتشاء وسط مثلث  
ظلماتي الذي كنت أنتِ «ضلع الحب» فيه.

- لم تتغير يا يونس، هذه الثياب الأنيقة، هذا المكتب، وهذا  
الوجه الجامد، كل هذا لم يغيرك.

كذب جهلٍ هذا أم أصل؟! تظنينني لم أتغير حقاً؟!

- تكلم.. اشتقت صوتك.

- وأنا أيضاً.

تغادر حلقي مثلونة فتلقين فيها ضالتك، تبسمن بظفر  
أعرفه وأخفي أنا ابتسامة ظفري، لا تزالين تقترين، ولا أزال  
أنتظر ارتطامك، ثم سقوطك.

الصبر يا قمرًا لم يكن له من اسمه نصيب سوى في ظلمة  
الليل حوله.

موعدنا الصبح حيث يخفيك النهار، أليس الصبح بقريب؟!

\*\*\*

\*  
ضي  
\*

\*\*\*

- السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله،  
اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

أراقب يافا فجراً وقد تربعت على سجادة صلاتها بثوبها  
الفلسطيني المطرز بألوان علم فلسطين:

الأحمر ثورة شعبٍ ثار، . الأبيض رمز علا وفخار  
الأخضر بستانٌ من غار، . والأسود ليلٌ منه نهار  
النشيد الذي حفظته هناك منذ صغري.

أقرب منها لأجلس أمامها فتضميني لصدرها، تمسد ظهري  
وهي تمنحني نصيبي من «الرقية» اليومية التي تحتتمها بدعاتها.

- ليحفظك رب الكون، وليرزقك بمن يصونك.

- ادعي لدكتور يونس.

أقولها بأقصى درجات ضبط النفس، لكن عيني تخونني دومًا  
أمام فطنتها التي جعلتها ترمقني بنظرة متشككة، فأردف بارتباك  
اكتسحني رغماً عني:

- يقولون إنه مريض، لم يأت للجامعة منذ قرابة الشهرين،  
وأنا لا أفهم شرح أستاذ غيره.

ترمقني بنظراتها المتفحصة لتسألني بتشكك:

- كيف ظهر هكذا ذاك اليوم ليضرب خطاب؟! وهل هي

مصادفة أن يسجّن الرجل بعدها مباشرة!؟

لا تعلم أن هذه هي التساؤلات نفسها التي أطرحها على

نفسي كل ليلة قبل نومي، يونس قال لي يومها إنه لن يعود

ليضايقني، هل كان يعني هذا؟! هل هو حقًا خلف الأمر؟! هل

كان يتبعني يوم ضربه؟! لماذا؟! ولماذا لم يعد يأتي للجامعة؟! هل

هو مريض حقًا؟! هل لديه من يعتني به؟! يقولون إنه يعيش

وحده في بيت كبير منعزل على أطراف المدينة، بيت كبير لا يفتقر للحرس ولا للخدم، لكنني أشعر أنه يفتقر للدفء.. للحب.

- تخفين عني شيئاً؟!

تنزعني بها يافا من شرودي فأرمقها بنظرة مذنبه بنكهة الاعتراف، لن أقوى على البوح بها يا يافا فأقرئها أنت.

- استرنا يارب.

تتمتم بها يافا بخوفها العتيد عليّ لتربت على رأسي هامسة:

- هو مجرد شبيه لوالدك أيقظ فيك مشاعر مراهقة خاصة مع حياتك المغلقة وخبراتك المحدودة، لا تفكري سوى بهذا يا ضبي، عديتي.

يا لليساطة! كأننا يمكننا منح هذا الوعد.

- تثقين أنني لا أفعل ما يشين يا عمتي، فقط ادعي له بالخير، أنا مدينة له على أية حال.

أمنحها ابتسامة مطمئنة راجية فتدمع عيناها بالمزيد من

الخوف، الخوف ليس غريباً على عيني يافا، منذ وعت عيني على

الدنيا وأنا أراه رفيق عمرها، ويشق عليّ كثيراً أن أكون الآن من

أزيد ضيوفه على مائدتها.

- سأعدّ أنا «المناقيش» اليوم، لدينا زيت زيتون؟!

أهتف بها بمرح متعمد وأنا أنهض مكاني لترمقني بنظرة

ذات مغزى ناسب كلماتها.

- الزيتون لا ينفد من عندنا، رمز سلام ربي وأمانه.  
أمنحها المزيد من ابتساماتي المطمئنة ثم أركض نحو المطبخ  
شبه هاربة، أعجن وأرصّ وأشغل الفرن، وأخيراً أزينها لها كما  
تحب بـ«الزعر» ومبشور الجبن.

نتشارك الطعام بمرح لم يفارقه خوفها، لكنني كنت أصرّ  
أن أبذر في أرضها المزيد من الطمأنينة، أتركها لأبدل ملابس  
استعداداً للذهاب إلى الجامعة، من يدري؟! لعله يعود اليوم.  
وكعادتي كلما فكرت أنني سألقاه أشعر كم هي رثة ثيابي! كم  
هو فقير جمالي! كم هو متواضع حالي! كل هذا - مهما عظم - لا  
يليق به.

أنتهي لأتناول حقيقتي وأتناول معها «الكتاب» الذي وعدني  
أن يقرأه معي، لكنه اختفى بعدها، تراه قد ندم على عرضه؟!  
ليتنى أفهمك يا يونس! ليتني أقرأ عينيك الغامضتين هاتين!  
تودعني يافا بدعواتها المعهودة فأبتسم طوال الطريق، أرى  
المعلم عطوة يلوح لي بكفه بحماسة طيبة فألوح له بكفي كذلك،

أستقل الحافلة وأضع سماعات أذني أستمع لمعشوقتي:

(سألوني الناس عنك يا حبيبي ..

كتبوا المكاتيب وأحدها الهوا ..

بيعز علي غني يا حبيبي ..

لأول مرة ما بنكون سوا)



أبتسم بشجن والكلمات توازي وجعًا في صدري أنت  
صاحبه:

(غمضت عيوني خوفاً لا الناس  
يشوفوك مخبى في عيوني).

طالما كنت أجد نفسي في صوت فيروز، مزيج الشجن  
والعاطفة في صوتها، لكنني ما أحسستها صادقة كما الآن.  
الحافلة تصل فأوقف ما أسمعه وأترجل منها، أبتسم بشوق  
وأنا أتوقف في المكان الذي كدت تصدمني فيه بسيارتك ذاك  
اليوم، ليفتح لنا القدر طريقاً أكثر خصوصية، أعبّر الطريق  
لأدخل مبنى الجامعة، حسيبة تستقبلني بنظرتها التي أعرفها،  
وبهذه الضحكة الماكرة التي أخبرتني قبل غمزتها وكلمتها:  
- عاد.

أضحك بلهفة حمقاء وأنا أبحث عنك بعيني حولي فأراك  
واقفاً خلف العمود الضخم أمام مكتبك.

وقفتك شائخة كعهدك لكنني كنت أشعر فيها بانكسار خفي

لم أفهمه.

عيناك معلقتان بك، وعيناك معلقتان بـ«كتابي».

أرفعه نحو صدري أضمه بأنامل مرتجفة فترفع معه نظراتك.

أقترب منك كالمسحورة فلا تحيد قدماك أنت، لكن نظراتك

تفعل.

تنتقلان لعينيّ بنظرة مذنبه لم أفهمها، نظرة أشد سوادًا  
من هذه التي أعرفها، تبدو مسرفًا في أناقتك هذا اليوم، غيرتَ  
تصنيفه شعرك ليبدو أكثر «لمعانا»، لكنني ولسبب غير مفهوم  
كنت أشعر به قد ازداد قتامة.

يصل إليك قلبي قبل قدمي، فترتجف شفقتك بـ«شبه  
ابتسامتك» التي أعشقها، أهديك تحية صباح فتلقي عليّ مثلها  
باقتضاب، أصمت فتصمت، أسبل جفنيّ وأبحث عن كلمات.

- صرتَ بخير؟!  
سؤالي يبقى معلقًا بيننا كأنك لا تعرف الجواب، وربما لا  
تريده.

لهذا أكتفي بـ«عغمي» هذه منك لأقول بنبرة مرتجفة:

- لن أعطلك، حمدًا لله على سلامتك.

خانتني بها لهجتي «الشامية» التي استبدلتها منذ سنوات  
بالعامية المصرية، لكنها تفرض نفسها عليّ في أوقات عدة ولا  
أفهم السبب، أحيانًا عندما أفرح فأتذكر عهد طفولتي القديم،  
أحيانًا عندما أخاف الفقد فأتذكر بها غلالة أمان أبي، ومعك أنت  
لا ينقصني هذان الشعوران بالذات.

أرفع عينيّ لأصطدم بهذه النظرة الغربية في عينيك، اعتدت  
نوبات شرودك من طول مراقبتك، لكنك هذه المرة لا تبدو شاردًا،  
على العكس، تبدو وكأن تركيزك كله معي، ربما أكثر مما ينبغي.

شعوري هذا يوترني، فأبتعد خطوة، لكنك - للعجب -  
تقترب!

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بمعنى الكلمة قبل حرفيتها.

- لاتزالين تريدين قراءة هذا الكتاب!؟

بحة صوتي المرتجف تخذلني فأكتفي بإيلاء إيجاب.

ليهياً إلي أن هذه النظرة في عينيك تزداد ظلمة.

لم أذع يوماً أنني أفهمك ويبدو أنني لن أفعل، لكنني وإن  
كنت لا أفهمك حقاً، فأنا أشعر بك.

أجل، لا تستهن بصغر سني، فأنا جئت من رحم الحرب  
والموت، فأدركت منذ زمن كيف تكون الحياة.

وأنت حيّ جداً يا يونس، حتى خلف قناع برودك هذا،  
ليتك تصدقني فأنا أعنيها.

- تعالي.

صوتك الصارم يقتلني من أرض شرودي ليغرسني في جنة  
قربك الوشيقة، أسير خلفك لندخل غرفة مكتبك، فألتفت نحو

حبيبة التي تغمزني بخفة مشيرة لخاتم بنصرها في حركة ذات مغزى.

أبتسم وأنا أتجاهلها لأنقدم فأخذ مجلسي أمام مكتبك.

تمد أناملك لتأخذ مني الكتاب.

فتبدأ القراءة و.. شيء آخر ينسج غزله المتين بيننا.

\*\*\*

## (الظلمة الرابعة)

وده حب إيه ده الي من غير أي حرية؟!

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- تم الأمر كما خططت له تمامًا، لا أعلم كيف ستسير الأمور القضائية، لكن تكفيها هذه الفضيحة.

يقولها دياب عبر الهاتف فتشبت فضتاي بمقود السيارة التي أسير بها نحو البيت.

- ابعت إليها بمحام، واحرص أن تعلم هي أنني من أرسلته.

لا يتعجب دياب وهو يفهمني أكثر من نفسي، واحدٌ سواء

كان ليسأل كيف تدبر لها المصيبة وتبعث إليها بمساعدة، لكنه

يعلم، يحس بهذه النار التي احترقت بها طوال هذه السنوات

حتى استحوالت رمادًا وسط مثلث ظلماتي.

أغلق معه الاتصال وأنا أشعر أنني الآن فقط أغلق صفحة

قمر للأبد بعدما منحتها الندبة التي لن تنساها أبدًا.

طوال الشهرين الماضيين وأنا أتلذذ بمحاولاتها المستميتة

لإغرائي، الحمقاء تظن الماء قد يعود لمجره القديم، ولا تدري

أنه و- إن عاد- فسيرجع كدرًا معكراً بشوائبه، وأي شوائب  
تركتها لي يا قمر!

تهيدة حارقة تغادر صدري وأنا أذكر المرة الأولى التي  
التقيتها فيها في الجامعة، جمالها لم يكن عاديًا، وكانت أنثى تجيد  
استعراضه، رغم أنها تشاركني الأصل الصعيدي والبيئة الفقيرة  
والطموح الذي لا يعرف سقفًا، لكنني كنت منبهراً بها انبهاراً  
بعالم غريب يفتح لي بواباته لاستكشافها بفضول.

لأجلها عملت في مهنتين معاً بعدما كنت أكفي بوحدة مع  
دراستي كي أكفل نفسي ولا أكلف جابر المزيدي من همي، لم أخجل  
وقتها من الاعتراف لها أنني أعمل برفع الطوب مع عمال البناء  
صباحًا، وعلى ماكينة تحصيل نفود في محل كبير ليلاً، كانت تبدي  
انبهارها بكل هذا زاعمة أنني أكثر من قابلتهم في حياتها رجولة،  
وأنني فارسها الذي تمتته، حتى ظهر الحاج كامل في الصورة.

صوت بوق السيارة الآتية أمامي الآن مع وميض كشافاتها  
يزعج عيني فأغلقهما بقوة، وأنا أحييد بسيارتي لليمين قليلاً.

هل هو أثر «الحاج كامل»؟ حتى مجرد ذكره يجعلني أحييد  
عن طريقي الذي رسمته؟! 

الغريب أنني عرفته قبل قمر، «مقاول أنصار» بشهادة  
متوسطة، مشهور بعمل الخير، عندما علمت أنه من قريتنا ذهبت  
إليه أعرفه بنفسي وأطلب منه عملاً إضافياً يساعدني، أعجب

بكفاحي عندما علم عن ظروفِي وطلما ساعدني، بل إنه كان  
يزعم بين الجميع أنني ابنة البكر، ويطلب مني أن أعتبره كأبي،  
وقد كان، غير أن الأب لا يطمع في حبيبة ابنة.

رأيتها في نظراته منذ لمح قمر معي أول مرة، لكن علمي

أنه كان متزوجاً وقتها جعلني أقمع ظنوني، حتى عندما علمت  
بعدها أنه قد طلق زوجته، حتى بعد شعوري أن قمر كانت  
تبتاعد عني دون سبب زاعمة أنني دوماً مشغول بدراستي  
وعملي الإضافي، وحتى عندما بدأت الشائعات حولها تخدش  
أذني، كنت أقول لنفسِي: لا.. قمر لا تخون، كامل لا يخون، هي  
حبيبتِي وهو أبي الثاني، أحق كنتُ وقتها، أحق كفراشة غرّها  
النور حتى اقتربت.. فاحترقت.

- لا تظلمني يا يونس، هو تقدم لخطبتي وأهلي وجدوه  
رجلاً لا يُرفض، أنت مشوارك طويل، لو صبرت أنا فأهلي لن  
يصبروا، سيقتلونني لو علموا أنني أحبك، تعلم كيف يفكرون  
أنه لا مزاح في الشرف.

آه يا قمر!

لا تزال كلماتك هذه تثير ضحكي بعد كل هذه السنوات!  
الشرف! تتحدثين عن الشرف؟! دعي نجية تخبرك عن  
الشرف! عن تجوالها بين المدن خلف أبي ترنجي الرزق الحلال،  
عن كل ليلة باتتها دون عشاء تقرقر بطنها من الجوع وإنما تشبعها

النظرة لوجهي، عن ألم مرض تتحمله صامته دون شكوى كي لا تكلفنا أجر طبيب، هذا هو الشرف الذي لا تعرفه «عاهرة» مثلك. لكن لماذا ألومك وقد صرت مثلك؟!

تعلمين؟! طوال الشهرين الماضيين وأنا أتخيل ليلة الأمس كما كانت تمامًا، أنتِ بكامل زيتك تصعدين لتلك الشقة كي تلتقيني، تنتظريني هناك وقد منحتك المفتاح قبلها، تتهيئين للقاءني كما تفعل البيغايا، يُفْتَح الباب بالمفتاح الآخر فتأهب حواسك، لكنك تفاجئين أنه ليس أنا.

صدمتك، غضبك، صراخك المكتوم وأنتِ تزيهه يقترب لينال منك ما ليس حقه، عاجزك وأنتِ مكبله بين ذراعيه.

كل هذا عشته بسببك من قبل، وإن اختلف الموقف.

أعترف، قصاصي معك لم يكن عادلاً، فقد زدته بالفضيحة.

أجل، في الوقت الذي كانت فيه قوات الشرطة تداهم الشقة

لتضبطك في هذا الوضع، في الوقت الذي كنتِ فيه تصرخين،

تبيكين دون فهم، تدفعك الأذرع شبه عارية هابطة فوق سلم

طويل، في الوقت الذي ألقوك فيه كـ«نفاية» داخل سيارة الشرطة

تحوطك النظرات المزدرية.

كنت أنا في سيارتي أراقب كل هذا.

كنت أمامك، وأنتِ خلفي.

الآن فقط يمكنكني قولها مقاومًا هذه الغصة في حلقي.

أنتِ صرتِ خلفي، هزمت أول أضلاع «مثلث ظلماتي»،  
حتى وإن بقيت طوال عمري أسير «زاويته».

ظلم؟! تظنيني ظلمتِكِ حقًا؟! أنتِ كنتِ تمارسين البغاء  
«المقنَّع» طوال هذه السنوات بعد موت كامل، تمارسينه تحت  
قناع الأرملة المستضعفة التي تبحث عن شهيم يضمها في كنفه،  
لا تعجبي، أنا كنت أترقب أخبارك من بعيد وأعرف أن الدور  
القادم ينتظرنِي لَدَى عودتي للبلاد.

تعلمين؟! لقد أحبرت رجلي الذي دخل عليك الشقة بالأمس  
أن ينظر الأول في حالك، منحتكِ الفرصة الأخيرة حتى آخر لحظة،  
لكنكِ تعلمين كيف كان حالكِ عندما دخل وظننته أنا.

أنا لم ألوث شرفكِ، أنا فقط أزحت اللثام عن وجهه المشوه.  
طوال هذه السنوات وأنتِ من أسباب عزوفي عن زيارة  
قريتنا، لم تكوني السبب الوحيد لكنكِ كنتِ أحدها، كنتِ أخشى  
أن أمرّ على بيت كامل فتصارعني خيالاتي عنكما فيه، تعلمين  
أنني لم أمس امرأة - أي امرأة - في حرام؟! لكنني كنتِ أنتِ من  
كل امرأة تشبهك، أعدها وأمنيتها فلا أعدها إلا غرورًا، أتلذذ  
بخيبتها كما أتلذذ بخيبتكِ الآن.

طالما زعمتِ أنكِ تعشقين ذكائِي، أظنه الآن الشيء الوحيد  
الذي لم تكذبي فيه، فهينًا لكِ به.

تعلمين؟! الحاج كامل طلب رؤيتي سرًا قبل موته، أخبرني



أنتِ أنتِ من بدأتِ خطواتكِ نحوه، أنه نادم لأنه فرط في زوجته لأجلك، وأن حياته معكِ كانت قطعة من الجحيم، طلب مني أن أسامحه زاعماً أن مرضه ذاك جعله يعيد حساباته، لكنني لم أسامحه، ولن أسامحك.

السماح هذا من شيم أهل النور، وأنا صرت من أسياء الظلام.

السماح هذا قد تعرفه نجية وجابر، و... صبي! الاسم الأخير يجتاحني كنسمة ناعمة برتحف لها جسدي، أتذكرها وقد رأيتها صباحاً في الجامعة.

آه يا صبي! تعلمين أنك سبب عزلتي عن الجامعة طيلة الأيام السابقة؟! لم أستطع جمعك مع قمر في حياتي في نفس الوقت. لا تظنيني أقارن فلا مقارنة أبداً قد تجوز بينكما، لكنني - وللعجب - كنت أخشاك.

قهوة انتقامي الباردة كانت لتفسدها غمسة إصبعك النقي

في فنجانها.

ربما لهذا لم أستطع لقياك إلا صبيحة ليلة الرشفة الأخيرة لانتقامي.

أتيتني صباحاً كما يليق بك وأتيتك خلف جداري كما يليق بي. لهفتي لم تكن تقل عن لهفتك لكنني أجد إخفاءها لو تعلمين. نظراتك كانت تعانقني لكن عيني كانتا معلقتين بكتابك،

بوابة الفردوس التي قد تفتح بيننا، وهل لشيطان مثلي أن يطمح في هذا؟!!

لكنكِ اقتربتِ وبين ذراعيكِ ألف حزن، وبين عينيكِ ألف وعد، وبين قدميكِ ألف وطن، وطن! تعلمين صعوبة نطق هذه الكلمة لمن يكفر بها مثلي؟!!

سألتنني إن كنت قد صرت بـ«خير»، وددت لو أعلم الجواب قبلك، ربما كان يجدر بي أن أعلن اليوم انتصاري كما حاولت الشعور به في زيادة تأنقي اليوم، لكن «الخير» بعيد على من هو مثلي، بعيدٌ بعد نجية، وبعد جابر، بعد الشمس، وبعدك أنت. اليوم أشهد أنني رفعت المزيد من رايات المهزاهاتي البيضاء أمامك، رؤيتكِ وأنتِ تتعددين بعد سؤالك الخجول ملائتي بهذا الخوف، وبهذه الرغبة فيك، لهذا فعلتها وتقدمت أنا منك خطوة، خطوة كنت أعلم أنني لا أحتاج لسواها كي تقتربي بدورك، شفاقةً أنتِ كبلورة ساحر لا تكفيه سوى نظرة كي يقرأ ما فيها، وأشد ما أحشاه أن تحدثك يوماً قسوة أنا ملي.

كتاب أليك قد يجمع بيننا لأيام قادمة، أيام لا أدري ما الذي قد تجبته لنا، لكنني أترقبها بلهفة أنتِ من أعدتِ رمي بذورها في أرضي المجذبة، لم أعرف يوماً شعوراً بالزهد يشبه طمعي فيك، ولا شعوراً بالإدمان يشبه تعففي عنك، علمتِ الآن لماذا أخافكِ؟!!

السيارة تصل لبيتي أخيراً فأرمقه من بعيد بنظرة راضية، عزلة

مكانه هذه في العراء تليق كثيرًا بعالم ظلماتي، يشبه القلعة بتصميمه الذي اخترته، ذو أسوار عالية صعبة الاقتحام، وبلون أسود مهيب يصبغ حجارته، الحارس يستقبلني بحذر علمته إياه ثم يفتح لي البوابة ليتسلم مني السيارة كي يتوجه بها نحو الجراج القريب.

في العادة أتوجه لغرفتي في الدور العلوي كي أبدل ملابسِي، لكنني اليوم أفقد أبحاثي، عالم «هيولان» الذي أودّ لو يصير حقيقة أقدمها للعالم.

وطني أن هذا اليوم ليس ببعيد. أتوجه نحو معلمي البسيط الذي جعلته في الطابق السفلي، هذا الذي شهد انتصاراتي القليلة والتي حصلت على ثمنها غالبًا من قبل، يزعمون أنني عبقرى وأن بحثي الأخير بالذات يكاد يكشف اللثام عن سلاح بيولوجي خطير سيؤثر على التوازن العسكري في المنطقة، ربما هذا ما دفع مختار ومن خلفه للاهتمام بشأني، لكن كل أبحاثي في كفة و«هيولان» في كفة أخرى.

أخلع سترتي فألقيها جانبًا، لن يزورني النوم هذه الليلة غالبًا، ليس وعقلي يرقص انتشاء فوق جثة كبرياء قمر، وقلبي يرقص مثله طربًا إنما على صدى نغم ضي.

ضي! رعمًا عني يجتاحني طيفك من جديد، يدغدغ حواسي بهذه الرجفة التي تشبهك في قوتها ونعومتها، يسألني براءة تشبهك عن معنى «هيولان» هذا الذي أردده فأجيبك وكأنك تسمعين:

- تسمعين عن الكائن الخالد الذي حير العلماء؟! اسمه العلمي «تيورتبسايس نيوتراكولا» ويختصرونه «تيولا»، نوع من أنواع قناديل البحر يتميز بقدرته المدهشة على تجديد خلاياه، أي قنديل بحر يمر بمرحلتين من النمو؛ الأولى مرحلة عدم النضوج حيث يكون كائنًا بسيطًا للغاية، والثانية مرحلة البلوغ أو النضوج حين يستطيع التكاثر لإنتاج قناديل بحر أخرى، والطبيعي أن يمر قنديل البحر بمرحلة عدم النضوج الأولى ثم النضوج الثانية ثم الموت، لكن «تيولا» يستطيع أن يمر بهذه المرحلة بالعكس، بمعنى أنه بمجرد أن يصل لمرحلة البلوغ يستطيع أن يعود لمرحلة عدم النضوج مرة أخرى، ثم النضوج، ثم عدم النضوج وهكذا، لهذا لا يصل لمرحلة الشيخوخة أبدًا، سبب هذه القدرة المدهشة هي عملية بيولوجية تسمى «transdifferentiation»، وتعني قدرة الكائن الحي على تجديد خلايا جسمه حين تنمو بعض أجزاء جسده المقطوعة مجددًا، لكن كائن تيولا يتميز بقدرته على تجديد خلايا جسده كلها، بعض العلماء يجذرون من غزوه الصامت، وقد بدأ يتكاثر بصورة مخيفة جدًا في بعض المناطق، خاصة وهو يتغذى على بيض الأسماك، مما قد يؤثر على الثروة السمكية مستقبلاً.

أتحيلك تغرين فاهك بذهول فترنجف شفتاي بشبه ابتسامه وأرد:

- لا تخافي، يجب أن تفهمي الفارق بين كونه لا يموت



في غرفة مكتبه لليوم الحادي والعشرين على التوالي، لو استثنينا أوقات الإجازات التي ينقطع فيها لقاءنا اليومي هذا رغمًا عنا.

فأرد بإيلاء رأس وأنا عاجزة عن منع نظرات انبساطي به،

أن يجمع بيننا صوته مع «إرث» أبي هو جنة الدنيا في عيني، إلى

الآن لا أفهم لماذا وافق أن يقطع من وقته الثمين لأجلي! مشاعر

نحوي؟! قلبي يصرخ أن نعم وعقلي لا يريد التصديق، لكن منذ

متى كنت فتاة العقل؟! وبالذات مع يونس؟!!

- أي كان يجب هذا الكتاب بالذات، كنت أراه يقرأ فيه

كثيرًا، الآن أفهم سر شغفه به.

أقولها فيرفع عينيه نحوي لتلقي نظراتنا عبر هذا القرب،

أه يا يونس! لا تزال «مرأة روحك» مكسورة، صورها مشوشة،

ولا أزال أحاول قراءتها دون جدوى، كم أود لو أسألك عنك،

عني، عن خطاب هل كنت أنت من حميتني منه؟! ولماذا؟! عن

حقيقة إحساسك بي وسبب هذا الذي فعله لي؟! لكنني كالعادة

أجبن، ليس خوفًا منك، بل عليك، بالأدق على هذا الحلم الذي

منحتني مفاتيحه وأخشى أن تغلق أبوابه في وجهي من جديد.

- ماذا كان يعمل والدك؟!!

تسألني باهتمام يعجبني، فأجيب وأنا أتلمس سلسلة عنقي

دون أن أشعر:

- كان كل شيء، مهندس بناء، وكان يعمل بالزراعة في

حديقة بيتنا، وكان يدرّس الصبية القرآن والحديث، لا أعرف  
رجلاً جمع المهن هذه كلها في مهنة واحدة مثله.  
- جابر كان كذلك.

- جابر هذا.. والدك!؟

أسألك بتردد خجول وقد سرتني أن تشاركني آياً من  
تفاصيلك الخاصة بعد تحفظك المعهود في الأيام الماضية، تشرد  
عينك لتجيبني بهذه النظرة الزائغة التي تجد دومًا موقعها في  
قلبي، تصمت للحظات لا أقاطع قدسيته التي استشعرتها  
بحدسي، تنفج شفقتك أخيرًا فلا أكاد أصدق وأنا أسمعك  
تحكي لي كأنها تكلم نفسك:

- عمل فترة ما بفلاحة الأرض، وأخرى كبواب عمارة،  
وأخرى كان يعمل بالتقاشة وطلاء الزيت، هو أول من علمني  
قيمة اللون عندما يضاف للجدار الباهت فيمنحه رونقه، لكنه لم  
يكن ينال في المقابل سوى اتساخ ملابسه بالبقع.

تبدولي كلماتك وكأنها تحمل ما يفوق معناها مع هذه المرارة  
التي صبغتها، لهذا عدت أسأل ببعض الإلحاح:

- لماذا تقول جابر وليس أبي؟! ألا تفتخر به!؟

يا الله! ليتني لم أنفوه بها!

ها هو ذا الحبل المتين ينقطع بيننا لتشتعل عينك بنظرة لم

أفهمها.

- لم أقصد إساءة، أقسم لك .. أنا فقط ..  
أهتف بها بصوت متحشرج وأنا ألعن غبائي لتزداد هذه  
النظرة في عينيك اشتعالاً، تخيفني فأنكمش مكاني مبتلعة بقية  
عبارتي لتأتيني كلماتك بعدها باردة كحد السيف:

- يكفي هذا اليوم.

تتكسد الدموع في عيني وأنا أشعر بمزيج الذنب والعجز،  
أقف مكاني بتخاذل فأراك تمد لي أناملك بالكتاب لأتناوله منك،  
أكاد أنفوه باعتذار آخر لكن نفس النظرة في عينيك تخرسني.  
أتحرك لأغادر وأنا أشعر بنظراتك تكاد تخترق ظهري، لأول  
مرة أشعر بالخوف من غضبك، لكنني لم أود الاحتفاظ بكل هذه  
المشاعر تكوييني حتى الغد، لهذا توقفت أخيراً أمام الباب المفتوح  
لألتفت نحوك من جديد:

- هل أعود غداً؟!

النظرة المشتعلة في عينيك تزداد سواداً حتى أظنك ستخبرني  
ألا أعود من جديد، لكنك تغادر مقعدك لتتقدم نحوي ببطء يخيفني

أكثر، نظراتك السوداء تتأرجح بين سلسلة عنقي .. شفتي!  
رباه! لماذا تبدولي في هذه اللحظة أشبه بخطاب؟! أغمض  
عيني برفض للخاطر الأخير، ثم أعاود فتحهما مع شهقة عالية  
وأنا أراك تغلق الباب لتحتجزني خلفه، بينما أناملك المرتجفة  
ترتفع نحوي!



## (الظلمة الخامسة)

قلبي ضايع مين يلاقيه لي؟!!

بايتي نسيتته حدا أهلي

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- غياب المحاضرة القادمة بدرجة العملي كاملة!

أهتفت بها بصرامة أمام طلابي في المدرج الذي خلا منها لليوم الخامس على التوالي بعدما كان بيننا آخر مرة.

أحاول التركيز في الشرح فلا تخذلني طبيعتي المحبة لهذا العلم، أنني المحاضرة فألم أوراقني لأغادر المكان وأنا أشعر بهذا الإحساس الذي ظننتني وأدته في روحي يكتسحني

الحنين!

تبا لك يا ضي! ألم أخبرك أنك تعبتين داخل أكثر مناطقي

ظلمة؟!!

لا زلت أذكر ذلك اللقاء الأخير بيننا، أخفتك؟!!

تظنني أخفتك في هذه الثواني عندما احتجزتك قسراً في

غرفة مكثبي؟! صدقيني لم يساو هذا شيئاً أمام شعوري بالرعب

وقتها وأنا أتبين أنني صرت أعري ماضي أمامك، انفلت لساني  
رغمًا عني وحدثتك عن جابر فلم أفق إلا على سؤالك، لماذا لا  
أدعوه أبي وكأنني لا أفتخر به؟ أنا الذي لا أفتخر به؟! أنا؟ أنا لم  
أعد أليق به يا غافلة، هم قتلوا ابن جابر ونجية، غرسوا نصالهم  
المسمومة في جسده ووقفوا صامتين يشاهدون نزفه حتى الموت،  
وما بقي مني لم يعد سوى عفن جسد ميت يأكله دود ظلمهم،  
وخطاياهم هو.

تعلمين كيف مات جابر؟! من قال إن الرماد لا يحترق  
مرتين؟! أنا سأبقى أحترق بتلك اللحظات ما حيت.  
صوت الأمين «مجدى» وهو يدخل علي في الحجز ويصفعني  
بقسوته.

- أبوك بالخارج يريد أن يطمئن عليك، لو كنت مكانك  
لرغبت أنا أن أطمئن عليه، تعلم أن الطقوس هنا لا تناسب  
رجالاً بسنه.

ضحكته السادية بعدها توازي صرختي العالية وأنا أترنح  
بين سباب ورجاء، أهده وأنا الضعيف الذي لم يكن له حول ولا  
قوة، ثم أتضرع إليه وهو الذي مات قلبه من زمن، يشد شعري  
فيكاد يقتلع جذوره، ثم يلكنني في وجهي ليصيب خاتمته عيني،  
تنزف كما كل جسدي المقيد، ولا يزال صوته الكريه يلدغني:  
- اعترف بكل ما تعلمه عنهم، لا ذنب لأبيك المريض.

قيودي تُفكّ وأشعر بجسدي يُجرّ نحو الخارج، عيناى  
ترتويان بمرأى جابر يرمقني بنظرة لن أنساها ما حيت.

جابر - الذي كان يزعم أن الرجال لا يكون- وقتها كان  
الدمع يكتسح عيونه، ممزقٌ بين عجزه وخوفه عليّ، أنا الذي لم  
أكن ابنه الوحيد فحسب، بل رأس مال عمره الذي لم يكنز غيره.  
يسط كفه فوق قلبه فيصرخ الخوف في عينيّ أنا، لا تسقط يا  
أبي، لا تسقط فيسقط بعدك كل شيء! لكن قلبه الضعيف لا يحتمل،  
يجرّ صريعاً ليخبو يريق عينيّه للأبد، فيخبو معه نور عالمي كذلك!  
صرخت وصرخت وصرخت، وددت لو كان يمكنني  
الوقوف على قدمي حتى لا توجه نحوه، لأزيح قدم مجدي التي  
وضعها على صدر «أبي» بجبروته المعهود، أجل.. وقتها كان  
جابر لا يزال «أبي» يا ضي.

المرئيات تتشوش وقتها في عينيّ، دموع.. دم.. دموع،  
تمتزج معاً في ستار غليظ بعشي بصري.

مات أبي يا ضي، مات ولم أحمل له نعشاً ولم أحضر له جنازة،  
حتى قبره لم أجرؤ على زيارته بعدما كان.

ألم أقل لك هم قتلوا ابنه وابن نجية، وما بقي منه الآن ليس  
سوى رماد متكوم في مثلث ظلماته؟!

ستلوميني لو علمت أنني لم أزر نجية منذ ذاك اليوم الذي  
قررت فيه أن أتعاون مع «مختار» وأبيع روحي لـ«الشیطان»!

كيف أفعلها؟! وقربتنا لم تعد أرضي التي ضخت الرجولة في  
عروقي، قربتنا صارت في عيني خيانة «كامل» و«قمر»، ونفاق  
«الشيخ غريب»، و«طغيان «مجدي»، و... ظلمتي أنا!  
أنا الذي صرت المزيج الأبعث من كل هؤلاء.

آه يا ضي! الليلة سأصمك - في خيالي - بل ستصميني أنت  
لصدرك الرحب كروحك، سأحكى لك سري مع كل هؤلاء  
وكيف صرت بعدهم، ستريتن على ظهري تارة وتلعننني تارة  
أخرى، ثم تهريين مني، تمامًا كما فعلت منذ أيام.  
أفكاري تنقطع وأنا أرى صديقتك المقربة حبيبة تقف  
ضاحكة مع بعض زملائكها، فينهشني وحمس حيني إليك أكثر  
وأنا أرى الصورة تنفصك.

قدماي تتسمران في مكانها، يأمرهما عقلي أن تتحركا لكن  
سلطان القلب الأبق يغلب الجميع، تلتفت صديقتك نحوي  
لتتجمد ضحكتها فجأة فيخفق قلبي بجنون، لا يعينني أنك  
أخبرتني عما فعلته يومها، كل ما يعينني أن تكوني بخير.

❖ - ضي ليست بخير، لا أدري ماذا بها، ترفض الحديث مع  
الجميع.

تقولها حبيبة التي تقدمت نحوي كأنها قرأت في عيني سؤالي،  
فيغوص قلبي بين ضلوعي وأنا أتذكر جنون فعلتي ذاك اليوم.  
كيف تجرأت لأحتجزك خلف باب غرفتي المغلق؟! «اللجة

الزرقاء» في عينيكِ كانت تشدني للمزيد من الغرق، «الوعد الصامت» على شفقتكِ كان يصرخ هادراً بمشاعرك، خوفي منكِ يدفعني للمزيد من التجبر، للسيطرة، كأنها نشوة انتقامي من قمر كانت لا تزال تبت السّم في عروقي، لم أشعر بنفسي وقتها وذراعي يلتف حول حصرك ليصقك بي، فتنغرس شهقتك الخائفة كخنجر مسموم في صدري.

أنا الذي لم أمس يوماً امرأة في حرام، حتى وسط سجنٍ مثلت ظلماتي، فعلتها معكِ أنتِ!  
لكنني كنت أشعر وقتها أنني ساموت لو لم أفعلها يا ضي، كأنني كنت أحتاج الإحناس بامتلاكك ولو للحظة كي أداري به خوفي، خوفي من فقدك، وخوفي منكِ على أمانِي في مثلت ظلمتي، خوفي من قربك، وخوفي عليكِ من مسخ يتلبسني.  
لحظة واحدة لكنها كانت تساوي ألف عمر من خطايا يضاف لرصيدي الجديد.

لحظة واحدة تركتكِ بعدها تهريين، وتركت نفسي بعدها تحترق، تعلمين كم تؤذي النيران ظلماتي يا ضي؟!  
- أخبريها أن حضور الغد بدرجة العملي كاملة.  
لهجتي الباردة كانت أبعد ما تكون عن هذا البركان المشتعل بصدري، سيفٌ يشطرنِي نصفين أحدهما يصرخ بكِ أن اهربي، أنا أذيتكِ خلف باب ضمنا خلفه للحظة واحدة، فكيف لو

جذبتك معي لقاع ظلمتي أكثر؟! والآخر يهمس بك أن اقتربي،  
بل التصقي، امتزجي، انصهري، ذوبي في ولا تبالي، فلعل نجدة  
أحدنا بغرقنا معًا.

آه! لو كنت معي في «هيولان»، مملكة الخلود، لعشتُ بكِ

ألف حياة تبدأ وتنتهي عندهك!

لكن ماذا عنكِ أنتِ؟! هل تستحق براءتك أن تنطفئ في

مثلث ظلماتي؟!!

أكمل اليوم بذهن مشوش، شهقتك الحائفة مني يومها  
تتكرر في أذني بصدى خفيف، نظرتكِ اللائمة تمتزج بشبهتها  
في عيني نجية فلا أكاد أميز بينهما، تعلمين كم تشبهينها؟!  
ليس شكلاً بل روحاً، كأن كليتيكما تغتسل في نهر براءة لا  
يجف نبعه أبداً.

أغادر مبنى الجامعة ثم أستقل سيارتي، قديماً كنت أحب

التسكع في الشوارع ماشياً على قدمي، أراقب وجوه الناس  
وأستبصر قصصهم على وجوههم، لكنني الآن - وقد امتلكت

سيارة- صرت أكره رؤية كل شيء هنا؛ النيل، المباني، الهواء،  
والناس، كلهم في عيني صاروا نسختين فقط لا غير، نسخة من  
جابر تموت تحت قدم نسخة أخرى من مجدي.

وأنا؟! أنا اخترت أن أكون نسخة مجدي، النسخة الأقل

أدمية لكنها الأبقى.

(في قعدة الصبح ع الكورنيش..

في كوباية شاي إنها إيه..

في طيبة ناس..

في لقمة عيش تجمع الفقير والبيه..

على طول تلاقبك فاكرها)

ضحكتي الساخرة تتحرر عالية والكلمات تغادر مكانها  
لتصلني في سيارتي، أنظر عن يميني فأرى المرأة شاحبة الوجه  
تحتضن رضيعاً نائماً وقد افترشت الرضيع تمد يدها للرائح  
والغادي بجلباب تقطعت أطرافه، وأنظر عن يساري فأرى  
المجمع التجاري الضخم تغادره بعض الفتيات اللاتي تقطعت  
سراويلهن كذلك - إنها في موضحة شهيرة الآن - وما يحملنه من  
أكياس للمراكات شهيرة يشي بها دفعنه من مال.

«تجمع الفقير والبيه»!!؟

«الشيخ غريب» كان يقول أنها يجتمعان في دار العدل في

الآخرة، فلا حساب إلا للتقوى، هذا الذي - كنت - يوماً أو من

به... والآن.

- الله أكبر.. الله أكبر.

صوت الأذان يبدو وكأنه يחדش أذني في هذه اللحظة،

فأسارع بتشغيل مذياع السيارة على كتاب صوتي أسمعه مؤخراً

يتعلق بأبحاثي.

يهياً إليّ أن صوت الأذان يعاندني، يخترقني أكثر، فأعلّي صوت المذياع أكثر حتى يصل أقصاه.

تجتاحني صورة قديمة لي طفلاً يتعلق بجلباب جابر يسير به نحو مسجد قرينتنا، يلصق قدمه الصغيرة بقدم جابر الكبيرة وهو يسمع العبارة «ساووا الصفوف وسدوا الخلل»، تلوها صورة أحدث لي أصلي خلف «الشيخ غريب» بالآية التي طالما كان يرددتها «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».

وبين «سدوا الخلل» و«ترهبون» كم سقطت من العمر سمون! أصل لـ«قلعتي السوداء» كما يحلو لي تسمية بيتي، فأمارس طقوسي اليومية، مكاملة عابرة من دياب يطمئن عليّ كعادته، لم يعد أحد يهتم بي سواه و«مختار» بالطبع.

مختار يطالبني بسرعة السفر إليهم، لكنني لن أفعلها حتى أرتشف آخر قطرة من كأس انتقامي هنا، هو يشك أنني أخفي عنه شيئاً بخصوص أبحاثي الجديدة، لكن لماذا يشك في ولائي

وهو الأعلم بي؟! أنا من سعيت إليهم وليس العكس، مؤتمراً عالمي حضرته منذ سنوات والتقيت فيه «إيزاك» الذي رمى لي الطعم والتقطته بكامل إرادتي، لكن البحث الأخير الخاص بـ«هيولان» هذا بالذات لا أريد أن أشارك فيه أحدهم، لهذا أقوم ببعض التمويه، لماذا هو بالذات؟! ربما لأنه.. حلمي!



واحدة فقط تمنيت لو أشاركها إياه، أنتِ يا ضيّ.

تنهيدة حارقة تغادر صدري بعدما بدلت ملابسني لأستلقي  
فوق فراشي، تنهيدة لو نطقت لصرخت أنني لا أعلم بالضبط  
ماذا أريد منك، ورطة أنتِ يا ضيّ، ورطة غارقٌ فيها من رأسي  
حتى قدمي.

النوم «اللطيف» يقتلني من هواجسي ليلقيني في كابوس  
آخر من كوابيسي التي لا تنتهي، تظنين ساكن الظلام لا يخافه؟!  
أنا أخاف الظلام يا ضيّ وإن كنت قد صرّحت من أسباده  
جلياب جابر، شيخ الموت حول عينيه، قدم مجدي التي  
تدهس روحي، دموع نجية، نظرتها العاتبة، جسد قمر العاري  
يتباهى بعهره، ذراع كامل فوق كتفها، لحية الشيخ غريب، شاربه  
المحضوف، ابتسامته المنافقة، نصل سكينته في صدري، وأخيراً  
مختار بذراعيه المفتوحين وبينهما تشتعل النار، كلها تتداخل ثم  
تترابط كجبل غليظ حول عنقي، يخنقني أكثر وأكثر.

أفيق من كوابيسي على صرخة مكتومة أذفنها في وسادتي كما  
اعتدت منذ زمن طويل، صرخة تفتقد العناق وأتى لي هذا؟!  
والعناق من كنوزي الضائعة التي فقدتها في فردوسي الضائع بين  
ذراعي نجية، الفردوس الذي حرّمته على نفسي منذ قتلوا جابر،  
ماذا عساي كنتُ أخبرها؟! أنه مات بسببي؟! بل والأدهى أن  
كل هذا لم يكن قرباناً للجنة كما زعموا، بل أنهم كلهم.. كلهم

كانوا شياطين.

أنفض عني غطائي ومعه بقايا شظايا أفكاري، أودي طقوسي الصباحية المعتادة ثم أبدل ملابسي وسؤال واحد يجتاحني: هل ستأتين اليوم يا ضي؟! ليتك تفعلين! ليس من حقلك أن تقلبي عالمي كله هكذا رأساً على عقب ثم تبتعدي، عودي.. عودي ومعك كتابك وبقايا الطهر في ماضيك والمزيد منه في حاضرك وغدك، عودي ومعك مفاتيح الحلم التي ظننتها استقرت في قاع ظلماتي للأبد.

لا.. لا.. لا.. ليتك لا تعودين، ابتعدي، اهربي مني قدر استطاعتك وسأهرب منك قدر استطاعتي، لعلني حين نخذلني نفسي تنصرك نفسك أنت، «سرداب الظلال» بيننا يوشك جداره أن ينقض دافئاً كليتنا تحته، فمن يملك القوة كي يقيمه من جديد؟! من جديد؟!

\*\*\*

\* ضي \*

\*\*\*

- صرت بخير؟! -

تسألني يافا بحنانها الذي لا يغادره الخوف كالعادة وقد رأتهني أرثدي ملابسي استعداداً للخروج إلى الجامعة فأجيبها:

- بكل خير، لا تقلقي.

أرسم مع كلماتي نفس الابتسامة التي وارت بها مشاعري  
عنها طيلة الأيام السابقة، وأنا أجاهد نفسي كي لا أخبرها  
بفجيعتي، لكنني اتخذت قراري ولن أخبرها به قبل أن أعود من  
الجامعة، قرار استقر عليه عقلي بعد تفكير هذه الأيام، ولا عزاء  
لقلبي المكلوم.

- نضال يريدنا أن نساfer إليه خلال أيام إجازتك، افتقدته  
وافتقدت غزة كلها.

تقولها بحنين جارف يكتسحني أنا الأخرى، لكن هذه  
الوخزة «المضاعفة» في صدري تصيب مني، كيف أعود لغزة  
فيجتمع علي ألم فقدي لأي، وفقدي ليونس؟!!

يونس! هل صرت حقاً تمنحني هذه الغصة في حلقي كلما  
تذكرت ما كان بيننا آخر مرة؟! هل كنتُ حقاً مخدوعة فيك  
إلى هذا الحد؟! كنت الوجه الآخر لـ«خطاب» خلف قناع  
متحضر؟! لماذا فعلتها يا يونس؟! ما الذي كان يدور في رأسك  
وأنت تحتجزني هكذا خلف باب غرفتك لتفعل فعلتك هذه؟!!

أنت ضممتني يا يونس، لا ضمة المحب الهانئ بحلاله بل ضمة  
المغتصب الخائف، أتعلم بماذا شعرت في هذه اللحظة الغادرة؟!  
نفس الخوف الذي كان يغشاني وأنا أعيش إحدى تلك الغارات  
على بيت أبي منذ سنوات، لقد صرت أخافك يا يونس، فهل  
يجتمع الخوف والعشق في قلب واحد؟!!

أنت خذلتني، لكن قلبي الأحق لم يخذلك، يلتمس لك من  
يومها ألف عذر، يخلق ألف قصة، إنها عقلي له بالمرصاد، لماذا  
وضعتني في هذا الصراع بينهما؟! ياللخسارة! ظنتك الوطن  
الذي استعدته بعد فقدي لأبي، فكيف أصبحت صورة أخرى  
لعدو غاصب؟!

- ما رأيك؟!

تترعني بها يافا من شرودي فتتسع ابتسامتي المصطنعة  
وحدثها يعزز قراري الأخير الذي لن أراجع عنه، أمنحها  
موافقتي بلهفة اصطناعية ثم أتناول حقيقتي لأغادر.  
- ألن تأخذني هذا؟!

تهتف بها مشيرة لـ «كتاب» أبي الشاهد علينا، فتمتلئ عيني  
بالدموع وأنا أهز رأسي نفيًا لأجيبها أنني... لم أعد بحاجة إليه.  
كاذبة أنا يا يونس، كاذبة ومخدولة، كنت أعلم أن «مرأة  
روحك» مكسورة، لكنني لم أتوقع أن تصيبيني أنا شظاياها، هل  
كنت مخدوعة فيك حقًا طوال هذه الأيام؟! هل كنت «ليلي»  
الساذجة التي خدعها الذئب؟! أم أن «الذئب» سيُكيني على  
حاله لوروي لي الحكاية بطريقته؟!

حبيبة أخبرتني عن تهديدك المستر أن حضور المحاضرة  
اليوم يساوي الكثير من الدرجات، ورغم شعوري بالمزيد من  
الخوف منك لكنني سأحضر، لا لمواجهتك، بل للمزيد من

الهروب، لا ريب أنك ستعلم عن قراري الجديد، لكنني لن  
أكون متاحة أمامك وقتها كي تجادلني فيه، لو كانت لك رغبة  
أصلاً في المجادلة.

شرودي يتلعني طوال الطريق في الحافلة، لم أستمع لفيروز  
اليوم، خاصمتها كما خاصمت أيامي منذ خاصمتك، قلبي يخفق  
بجنون كلما اقتربت من مبنى الجامعة، لكنني أتشبث بسلسلة أي  
في عنقي، رمز أمان.

يا للعجب! حتى وسط خوفي منك رمز أمان نفسه يشبهك!  
أسير نحو المدرج منكسة الرأس، أأخذ مقعدني جوار حبيبة  
لأنلقى ثرثرتها العابثة بأذن صماء، الصمت المهيب حولي فجأة  
يجعلني أدرك أنك وصلت، لكنني ولأول مرة لا أرفع عيني  
إليك في حضورك، ليكن وداعنا الأخير هكذا دون نظرات، لعله  
يصير أسهل.

صوتك الحبيب يصلني أخيراً عبر الميكروفون، فلا أملك  
تراكم الدموع في عيني وأنا أتشبث بسلسلتي أكثر، أسمعك  
تنادي أسماء عشوائية تتأكد من حضورها، فأوقن أن الدور قادم  
عليّ، أسمع ارتجافة صوتك باسمي أخيراً فأقف مكاني صامتة  
عاجزة عن النظر إليك، وعن الكلام، وحده قلبي كان يرقص  
رقصة وداعه الخاصة بين ضلوعي، أعاود الجلوس لتبدأ أنت  
الشرح وأبدأ أنا المزيد من الهروب، ذكرياتنا معاً تحتاجني بلقاءاتنا

الأخيرة معاً، كيف اقتنصت منها نظراتك، كيف تعلمت أن أقرأ  
نبرة صوتك، أن أتوقع ردود فعلك، أن أقرب منك كي أفهمك،  
حمقاء كنت يا يونس، فلا تلم حماقاتي.

تنتهي المحاضرة فأنتظر حتى أتأكد من انصرافك، أودع  
ظهرك بنظراني المشوشة بدموعي، أعذر من حبيبة للانصراف  
دون أن أخبرها عن قراري، أتخذ خطواتي نحو تلك الغرفة بعينها  
كي أنفذ ما عزمت عليه.

أخرج أخيراً من الغرفة وأنا أشعر بأنني قد أرخت عن  
كاھلي وزراً ووضعت مكانه مائة.

لقد أجلت دراسة مادتك للعام المقبل الذي لن أكون فيه  
هنا، أجل، سأنقل أوراقني من الجامعة كلها وسأبحث عن عذر  
ألقيه على مسامع يافا.

أغادر مبنى الجامعة شبه راکضة كأنني أهرب من كل شيء  
حتى نفسي، أستقل حافلة بعيدة الاتجاه عن بيتنا عامدة كي أطيّل  
مكوئي فيها، أسند رأسي إلى زجاج نافذتها وأفكر، هل خرجتُ

الآن عن سطوة تهديديك؟! هل يمكنني الآن ألا أخاف منك؟!  
هل أستطيع فقط أن أبقىك حلياً يحتضن ليالي الطويلة حتى وأنا  
أوقن أنه ليس لي وأن أول شعاع للشمس سيخفيه؟!  
تستقبلني يافا بدهشة من عودتي المبكرة، فأتصنع المزيد

من المرح الذي يبده مخاوفها، أشاركها تحضير الغداء في المطبخ

فتشاكسني بقولها المعهود:

- لمي شعرك هذا كي لا يدخل في الطعام.  
- أنت التي ترفضين أن أقصّه، بالله عليك، إن طوله مبالغ فيه حقًا، بضايقتي.

- أمي رحمها الله كانت تقول إن شعر البنات أمانة كسرفها، تزوجي وافعلي به ساعتها ما يحلو لك.

- وماذا لو رزقني الله برجل يحبه طويلًا مثلك؟! -

- ساعتها يكون قدرك أن تنتقلي من طاعة لآخر.

- طاعة! أنت أطيب قلب في الدنيا يا عمتي.

ضحكاتنا تمتزج فأتمد علو صوتها لعلها تطفئ على وجيب قلبي الصاحب بدقاته.

رنين هاتفها يقاطعنا فأسمعها تحدث نضال، تخبره بشوق عن زيارتنا المرتقبة، فيتأرجح قلبي بين رضا خفي عن المزيد من هروبي منك، وبين اختناقني بإحساسي أنني أهجرك بكل ما تحمله لي من معاني الوطن.

أسمع صوت رنين جرس الباب فأتوجه نحوه كي أفتحه تاركة لها المزيد من الخصوصية للتحدث مع نضال، أرتدي حجابي على عجل ثم أفتح الباب لأصطدم بوجهك أمامي.  
يونس! أنت حقًا هنا؟! -

\*\*\*

## (الظلمة السادسة)

ينفع أحبك من غير قلبي؟!

ما تردوا عليها وعليها

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- ذهبَ لبيتها يا يونس!؟

صوت دياب يصلني من بعيد كأنه صدى أجوف، تمامًا  
كصوت الريح الآن حولنا في هذا المكان المنعزل الذي اعتدنا  
اللقاء فيه.

الريح تنخر في جسدي المرتجف، يحالفها الآن سقوط المطر،  
فليهطل بقوة لعله يداري هذه الدموع اللعينة التي تعاند حراس

جفوني، يلومني أن ذهبتي لضيبي بعدما علمت المصيبة، المصيبة

التي كنت أخشاها طوال هذه السنوات، أخشاها بقدر ما  
أنتظرها انتظار المذنب لحكم إعدامه.

ماتت نجية.

ماتت ميتة سوية كما كنت أسمعها تدعوها دومًا، يقولون

إنها ماتت متوضئة بعدما صلت العشاء، يقولون إن وجهها كان



يستقبل القبلة بابتسامة خلاص، يقولون ويقولون، كل ما أعرفه عنك يا عليّ - كانت تدعو لي، يقولون ويقولون، كل ما أعرفه عنك يا «أمي» صرت أستقيه من أقاويل الناس! أمي! سأسمح لنفسي أن أودعك بها للمرة الأخيرة بعدما ودعتك من قبل آلاف المرات.

- لماذا يا يونس؟! إلى هذا الحد؟!

المزيد من صدى دياب الأجوف يردني لبعض وعبي فألتفت نحوه بتشتت، كيف مرّ اليوم الثقيل عليّ بداية من رؤيتي لضي، ضي! تراك حقًا تسربين من بين أناملي كأخر شربة ماء يرئجها طمان؟! اليوم رأيتك كما لم تكوني من قبل، منطفئة ذابلة، والأدهى عيناك العاشقتان تهريان مني، لأول مرة أشعر بهما تهويان كنجمين محترقين ناركتين خلفهما ظلمة تشبه ظلمتي، وكم أشفق عليك من ظلمة تشبه ظلمتي! كنت أراقبك خلسة لأجدك تهرعين لتلك الغرفة بخطوات راكضة فأقرأ قرارك قبل أن أعلمه، لقد قررت الرحيل، لم أعلم وقتها هل أهنتك على ذكاء اختيارك أم أعاتبك على قصر نفسك في معركتنا التي هي معركة النفس الطويل!

عدت بعدها لغرفة مكنتي، أغلقت بابي، فتحت زرقميصي، تلمستُ نديتي البشعة هلالية الشكل التي أحدثتها بي يومًا سكين «الشيخ غريب» بضربة ثلاثية، كلماته تُبعث من قبر الماضي تجلدي من جديد، وقد أتاني نائراً هارباً بعد وشايتي - القسرية - بهم:

- لست رجلاً، سوّد الله وجهك كما سوّدت وجه شيخك،  
ماذا لو مات أبوك؟! ماذا لو مات كل أهلك؟! قتلانا في الجنة  
وقتلهم في النار.

كانت هذه آخر كلماته لي قبل أن يهرب من أمامي فلم أعلم  
بعدها عنه شيئاً، بل علمت، علمت كل شيء.

«مجدي» أخبرني بوجه الزائف ورضاه المستحدث عني بعدما  
أجبرني أن أعترف بكل ما أعلمه، أخبرني أنهم ألقوا القبض على  
جماعة الشيخ غريب، وأنهم تأكدوا أنني ضحية خداع أولئك  
الناس، أخبرني أنه في الوقت الذي كنت أنكتم فيه على أسرارهم  
محتماً عذابي هنا كانوا هم من باعوا رفقائي في عمليات إرهابية  
أودت بحياتهم فيما نجوا هم بأعمارهم، بل إنه اعتذر لي عن موت  
أبي كأنه يعتذر عن أنه قد داس قدمي بحذائه، أخبرني بحماس  
مصطنع أن ما فعلته من وشائتي بهم لم تكن خيانة، بل قرباناً  
للوطن، وأن شاباً ذكياً مثلي سيعي الدرس ويلتفت لطموحه  
ومستقبله متبعداً عن دعاة الدين الكاذبين هؤلاء.

ووعيت الدرس، وعيته بأكثر مما يجب يا ضي.

فهمت أنها - غريب ومجدي - لم يكونا سوى جدارين  
تناطحا بقوتيهما حتى سحقا جسدي بينهما، فهمت أن كليهما  
كان يدعوني للإيمان به فلم أزد بها إلا كفرة، شكرت الحظ  
الذي عصم يدي من دماء أبرياء كانت لتلوثها، لكن ماذا عن دم

جابر!؟ من يحمل وزره!؟

الخيانة - التي وضعت قمر أولى زواياها- وضعا هما  
زاويتها الثانية والثالثة، ليركوني سجين مثلث ظلماي، الحب،  
الوطن، والدين.

الحب الذي هجر ظهر أرضي لبرقي عاهرا بين ذراعي المال،  
الوطن الذي قتل حماه أبي، والدين الذي لم يكن سوى قناع آخر  
لشياطينهم فلم يشفع إيماني وصلاتي لي ولا لجابري  
وتأتين أنت! فيزداد محيط مثلثي ضيقا وتزداد أنفاسي فيه احتناقا.

والآن ترحلين!؟  
ترحلين يوم رحيل نجية، نفس اليوم بالذات! كأنك تغرسين  
النصل في قلبي أكثر! هل كانت مصادفة أن أعلم خبر نجية بعد  
رحيلك مباشرة لأشعر أن الأرض تحت قدمي تهتز، فأسقط!؟  
أتذكر لعنتي التي تحرمني وداعها الأخير، فأسقط.

يلعني جبني، فألعنه، ي صارعني قلبي فأقاومه، يحتاجني  
طيف جابر عاتبا فأشبح بوجهي عنه، يرجني طيف نجية،  
يزلزلني، يعنصر كنفني بقوة كما كانت تفعل وأنا بعد طفل  
صغير قد أتاهم مذبنا، فلا أقوى على المزيد من المكابرة.  
أسقط، وأسقط.

يقولون إن من في القاع لا يخشى السقوط، فكيف لمثلي أن

يسقط إلا لو كان قاع ظلماتي يخونني كذلك كما فعل الجميع؟!  
- تحدث إلي يا يونس، أشعر جيداً بهذا الحزن الذي يملكك،  
لقد فكرتُ ألا أخبرك، لكن..

صوت دياب يحاول انتشالي من دوامتي من جديد دون

جدوي،

عمّ أتحدث يا ضي؟! عن هذا الفراغ الكبير الذي صار  
بصدري بعد رحيل نجية هكذا؟! لن أصف لك شعوري  
بالذنب، بالحزن، بالوجع فكل هذا ألفته حد الإدمان.  
بل سأصف لك شعوري بالصدر، أجمل، طالما ظننتني قد  
حصنتُ نفسي من ضربات القدر، فبإغشي كل مرة بضربة أشد  
قسوة مما سبقتها.

عمّ أتحدث يا ضي؟! عن صورة نجية التي التصقت بعيني  
من وقتها، عن فخرها بي صغيراً وخيبتها في كبيراً؟! عن ملامحها  
التي ضاعت مني وسط كل ما ضاع؟! عن آخر كلماتها التي  
أرسلتها لي مع دياب، «ارجع لدارك»؟!!

تسألين بعدها لماذا تصرف بهذا الجنون وأتيتكِ حتى باب  
بيتكِ؟! كنتُ أطيعها لآخر مرة في حياتي، هي قالت ارجع  
لدارك، وأنتِ صرتِ داري.

بعدما لفظتني قريتي ولفظتها، صرتِ أنتِ كل داري يا ضي.  
تظنين من السهل أن أعترف بهذا، أن أطرق بابك دون

موعد، أن أواجهك بدمع عيني، بمرارة فقدي، بعقم صمتي،  
وبسيف ذنبي؟!

أن أراكِ بذاك الثوب الفلسطيني الذي يحمل ألوان علم  
بلادك فتشعل أعراقي بالمزيد من نيراني، ألم أخبرك من قبل كم  
تؤذي النيران ظلماتي؟!

أن أفق أمامك خاوي الكفين، إنما كيل الوجع مني قد  
فاض حتى سال على جوانب روحي.

أن تعانقني نظراتك بخوف، بلهفة، بدهشة، فلا أجبك  
وقتها إلا بمصيتي:

- نجية ماتت.

- أمك؟!

تهمسين بها بلوعة وقد أخبرك حدسكِ عنم تكون، تقترين  
مني خطوة بعدها ثم تتوقفين مكانك، تسمعين صوت عمته  
تقترب فتتشتت نظراتك بالمزيد من الخوف والألم، ثم.. يغلق  
بابك في وجهي.

أسمعها خلف الباب تسألكِ عن الطارق فتجيبينها بتلعثم:

- خطأ في العنوان.

أتراكِ كنتِ تكذيين؟! ما أظنكِ صدقتِ في وصف ما بيننا

كما فعلتِ ساعتها.

- ما الذي تتوبه يا يونس؟! لم أعهدك مشتتاً كما حالك في

هذه الأيام.

يقولها دياب أخيراً يا شفاق يمتزج بنكهة تحذير خفية وقبضاته  
تشدان على كتفي بمؤازرة دون أن يضايقه صمتي الذي اعتاده،  
فأرفع إليه عينيّ الدامعتين، أنتِ لم تعودِي خيار رفاهية يا ضي،  
بل صرتِ حاجة تنهش جسدي من فرط رغبتِي فيها، فلتكوني لي  
ولو لأيام، أيام فقط، أستعيد بك توازني وصلابة الأرض تحتي،  
وبعدها أعدكِ أن أترككِ لنقاء عالمكِ وأعادِر.

أنانية؟! ربما، أكاد أسمعكِ تصرخين في أن ليس عدلاً أن  
أدنيكِ وأبعدكِ كما أشاء، لكن، مهما حدث بيننا فقط تذكري،  
بعض النصال ذات شفرتين، تؤذي صاحبها قبل أن تؤذي رفيقه،  
ولا حيلة لي فيكِ - يا ووطني - إلا أن أجرحكِ وأجرَحَ بكِ.

\*\*\*

\* ضي \*

\*\*\*

- أسعد يوم في حياتي يا عمتي.

أهتف بها بفرحة تكاد توقف قلبي وأنا أقف معها خلف  
باب غرفتي الموارب أراقب يونس يجلس في صالة بيتنا مع نصال  
و.. المأذون.

الأصوات تغزو أذني من الخارج فأغمض عينيّ برهبة  
طبيعية تمتزج بفرحتي.

لا أكاد أصدق أنه قد مضى ثلاثة أشهر فقط منذ رأيت يونس  
هنا واقفاً على بابي، مفاجأة لم أتوقعها لكن تفسيرها كان الأقسى،  
ماتت أمه، لم أحتج منه لاعتراف بعدها بمشاعره نحوي، الرجل  
لا يهرع لبيت فتاة لا تربطه بها صلة كي يخبرها عن مصيبته إلا لو  
كان يجيها.

لهفي عليك يا يونس! يومها بكيت عليك كما لم أفعل في  
حياتي من قبل، فجميعتك ذكرتني بمصابي في أبي، ورغم فارق  
السن الذي يفترض أن يخفف عنك بلاءك لكنني شعرت بك  
وقتها تشبهني، نفس النظرة الضائعة في عيدين فقدتنا أمانهما للأبد.  
يومها تمنيت لو تدنيني أكثر، لو تحكي لي، لو تكشف اللثام  
عن ماضيك كاملاً فتسكب بين ذراعي أماتك وبقايا دموعك.  
يومها سأمحتك من كل قلبي على ما كان منك، لأدرك أنك  
مهما فعلت فلن يعرف قلبي لك إلا الحب.

يومها أغلقت بابي في وجهك خوفاً من يافا، لكنك فتحت  
لنفسك باباً آخر عندما فوجئت بك بعدها تتقدم لخطبتي.

يافا لم تكن مقتنعة تماماً لفارق السن الكبير بيننا، لكن  
إحساسها بحبي الجارف لك شفع لنا.

نضال؟! أبدى تحفظه في البداية - عقب عودته المؤقتة إلى  
هنا- لأجل ظروفك الاستثنائية، ما يردده الناس حول عزلتك،  
غرابية أطوارك، السنوات التي قضيتها في سفرك لإيطاليا، لكنه  
- للعجب - وافق بعد جلستين فقط معك، قال لي بعدها أنك..

رجل يؤتمن علي!

- هل تبكين يا عمتي!؟

أهمس بها بنبرة متحشجة تكشف همّي بفعلها أنا الأخرى،

لكن يافا تضميني إليها بقوة لتهتف محذرة بحنانها الصارم:

- إياك! أنا أبكي، أنت لا، لا جعل الله لك نصيباً في دمع

العين إلا فرحاً، وحتى هذه ممنوعة الليلة.

- تخافين فراقى!؟ ظننتك ستسعدين بالتخلص مني

لتسافري لنضال دون وخز ضمير.

أقولها لها مشاكسة رغم علمي بما سترده:

- يا ويل قلبي المقسم بينكما! لو كنت أعلم أنك في النهاية

ستزوجين رجلاً يقاربه عمر الزوجته لك من البداية.

- لهذا كنت تتحفظين على سن يونس؟! لو سمعتك زوجة

نضال فستقتلي رمياً بالقناقيب.

أهتف بها ضاحكة دامعة العينين من الفرحة، فتمط يافا

شفتيها باستياء مصطنع بينما أعود أنا لضحكاتي وأنا أرمقك

خلصة بنظرة طويلة صارت من حقي.

ملاحك لا تزال محتفظة ببرودها، جسدك مشدود في جلسته

إلا من كفيك المرتجفين، عينك متواريتان كعهدهما خلف نظارتك

الطبية وقد أسبلت جفنيك فأتحرق شوقاً لملاقاتها عن قرب.

- اسمعي، عقد القران هذا لا يعني شيئاً، لا خروج معه ولا

دخول إلا بعد الزواج الذي لن يكون إلا نهاية هذا العام، لو أراد

رؤيتك فليكن هذا هنا، أمام عيني، تفهمين!؟

تقولها يافا محذرة فأبتسم بخجل وأنا أعاود النظر إليك



من جديد.

صوت الزغاريد يعلو فلا أنتبه إلا ويافا تنهر النساء بحزم  
مراعاة لوفاة والدتك حديثة العهد، أرى نضال يقف ليتوجه  
نحونا فتأهب حواسي، تحيط يافا كتفي بذراعها بحنانها الداعم،  
جهنتي نضال بنظرته الشبيهة بأمه، فأتوسطها لأتحرك إليك.

(أويها جيت أغني وقبلي ما حدا غني،

أويها بقاع وادي فيه الطير بيستني،

أويها وريتك يا بونس بهالعروس تنهنى،

أويها وتظل سالم ويظل الفرع عتاً)

نساء الحي يرددن «المهااة» الفلسطينية محاملة ليافا التي

أشرق وجهها وهي تصفق بها معهن للحظات قليلة كأنها تحمي  
بها تراثنا قبل أن تعود لسابق عهداها بالتحفظ.

تتقدم إليك لتمنحك ببعض التردد «كوفيتنا» المميزة بلونيهما

الأبيض والأسود، وقد طرزت بنفسها اسمينا على طرفيها، تلفها

حول عنقك فتتسع ابتسامتي بهيام.

ملاحك تظل جامدة فأفسرها بوقارك المعهود لكن رجفة

كفيك ترضيني، ترفع عينيك أخيراً نحوي، تتسعان قليلاً

فتبدوان لي بحجم الدنيا كلها، تمد كفك نحوي فيها بدا كمصافحة

لكنتني لا أدري لماذا شعرت بها وكأنها تشبث غريق بطوق نجاة،

تتلاشى الأصوات العالية من حولي فلا أكاد أسمع سوى صوت

خفقات قلبي، أجلس جوارك فتلبسني دبلة حملت اسمك،

لأدرك حينها أنني ملكت العالم كله حول إصبعي.

وأخيرًا يتركوننا وحدنا لدقائق أثق أن يافا لن تجعلها تطول،  
ترفع إليّ عينيك بهذه النظرة العميقة ولا يزال كفك متشبثًا بكفي،  
تفرج شفثاك كأنك على وشك الحديث لكنك تعاود إطباقها بقوة.  
- أحبك.

تخرج مني قوية متماسكة رغم ارتجاف شفثي وجسدي الذي  
يكاد يرحني مكاني، فتتسع عيناك أكثر، ويزداد تشبث كفك بي  
أكثر وأكثر، أعيدها ثلاثًا لمتخرج في الأخيرة مع اسمك:  
- أحبك يا يونس.

أغمض عيني بعدها كأنها بذلت مجهودًا خرافيًا لتتهتر تهتر  
رغمًا عني:  
- قد تظن أني قليلة الحياء لأنني بادرتك بهذا الاعتراف  
هكذا دون أي تحفظ، لكنه نذري وأردت أن أفي به.  
- نذرك!؟

يصلني صوتك أخيرًا عبر عيني المغمضتين فتمترج دمعاً  
غادرة مع ابتسامة خجلى على شفثي:

- نعم، عاهدت نفسي لو رزقني بك الله في الحلال أن تكون  
هي أولى كلماتي لك، هي ولا سواها، هي وأكررها ثلاثًا، وأدعو  
الله ألا يجرمني نطقها أبدًا، قد تظنه مجرد إعجاب برجل يشبه أبي،  
قد تظنه مجرد انهيار برجل يحكي الجميع عن عبقريته، لكنني أثق  
بشعور قلبك قلبي شبيته الأيام قبل أوامه، قلب يؤمن بحبك كما  
يؤمن بدينه ووطنه.

ضغط أصابعك يزداد حول كفي حتى أشعر ببعض الألم،

فأفتح عينيّ لتروعي هذه النظرة في عينيك، نظرة لم أفهمها من فرط ما صرخت به من تناقض، تدنيني وتقصيني، ترجوني وتهدني، تطمئنتي وتخوفني، يالعدايبك يا يونس! هل ستبقى هكذا صندوق أسرار مغلّقًا تحيرني نقوشه ولا يسعني فتحه؟!

- ألن تتكلم؟!

الصمت الثقيل يفرض نفسه بيننا للحظات تسبق قولك بصوت متحرج:

- تأقلمي مع طبعي، كلامي قليل.

- قليلك يكفيني.

أهمس بها بكل ما أوتيته من عاطفة فتردها لي عينك بمثلها وأكثر. إلا أن عاطفة نظراتك لم تكن تشبه خاصتي، عاطفتك مخنقة بهذا الحبل الغليظ الذي لا أراه لكنني أشعر به، تظني أحتاج الحديث؟! لا اعتراف منك يشبه اعترافي؟! لا يا يونس، ماجدوى الحب الذي يفيض لك في قلبي إذن لو لم يقرأ خبيثتك دون بوح؟! أعلم أنك لا تزال متأثرًا بموت أمك، لم تخبرني، لكن هذه النظرة المكسورة في عينيك، تهدل كتفيك المستحدث، دمعة بعيدة

تتوارى في جانب جفنك، كلهم أخبروني.

- مبارك يا عريسننا، لعل طعامنا يعجبك.

تهتف بها يافا بحنانها الدافئ وهي تفتحم خلوتنا أخيرًا لأسحب كفي منك بحركة عفوية، فترعش عينك بنظرة خائفة كمن فقد كنزه فجأة، نظرة أرضتني ورسمت ابتسامة على شفطي.  
- تعرف «المفتول»؟! «زاكي» والكل يحبه بفلسطين، لكن

إذا لم ترغب فيه، أعددت لك «سفرة» مصرية، سمّ الله يا ابني وكل.

أنظر إليك فيها إلى أن «شبه ابتسامتك» تولد ببطء على شفتيك مع نظرتك الشاردة وأنت تتحرك معي نحو مائدة الطعام القريبة ثم تجلس جوارى، عيناك تتساءلان عن طبق «المفتول» فيحييك نضال ببساطة عن محتوياته من السميد والطحين و«اليخنة»، فتلتقط منه يافا طرف الخيط وهي تشرح لك كيف يتم طهوه.

أختلس نظرة جانبية نحوك تشعرني أنك تعيش الآن صراغاً لا أفهمه، تبدو لي دوماً - رغم هيبة مقامك - كطفل نضال فقد أهله ويبحث عن بقايا أطيافهم، ويزداد شعوري بهذا الآن وأنا أرى حفلنا البسيط لم يحضره سوى صديقك المقرب دياب فحسب، والذي انصرف بسرعة بعد إتمام عقد القران، إلى هذا الحد أنت وحيد يا يونس؟! لا، لا، لا عاشت ضي ولا كانت إن تترك لو حدثت.

أبتسم بالمزيد من الارتياح وأنا أراقب حديثك الجدي مع نضال، استجابتك لتناول الطعام الذي تكدسه لك يافا في طبقك، تبدو مفتوح الشهية وكم يسعدني أن أراك هكذا وسط عائلتي الصغيرة.

يا لله! لا أصدق! صرت حلالك يا يونس، صرت لك وصرت لي!

## (الظلمة السابعة)

### يونس في بلاد الشوق

\*\*\*

- خطبت؟! وفلسطينية أيضًا؟! فاجأتني.  
صوت مختار الذي يمزج استنكاره بمكره لا يثير ضيقي،  
لكنني - للعجب - أشعر بالغيرة، مجرد حديثه عنك يشعري بعدم  
ارتياح لا أراه منطقيًا، ومنذ متى كان كل ما يتعلق بك منطقيًا؟!  
- لن أمدخل في شئونك الخاصة يا يونس، ولو أن ما بيننا  
يسمح لي فأنت صديقي، لكنني سأنصحك ألا تتسرع في هذا  
الأمر، وجودها في حياتك سيعيدك للذروة صراع حسمته أنت  
منذ زمن، أنت لست رجلاً عاديًا وتحتاج لكل ذرة تركيز، نحن  
لم نقصر معك في أي شيء طلبته، ونتوقع ألا تقصر معنا أنت  
كذلك، لا أجد داعيًا لتضييع كل هذه الشهور عندك في جامعتك  
المهزيلة التي لن تفيد أبحاثك في شيء.

هكذا هو مختار دومًا، يعرف كيف يضرب ويلاقي كما يقولون.  
«إيزاك» أوصاهم بي بعد لقائنا في ذلك المؤتمر بلندن، تقربوا  
مني بداية على استحياء، لكنني من دفعت خطواتي المهرولة  
إليهم، كانوا فرصتي الذهبية لتمويل أبحاثي، ماذا يعنيني في  
جنسيتهم؟! علمونا صغارًا كيف نفرق بين اليهود كأصحاب

ديانة وبين الإسرائيليين كعدو مغتصب، لكنني لم أكن أفقه الفارق بينهما، وكبرت ليستمر جهلي بهذا الشيء، جهل لم يؤذني كثيرًا في الواقع، فقد تحررت من كل قيودي ودخلت صاغراً مثلث ظلماتي دون رجعة، حيث لا ولاء لدين ولا لوطن ولا لحب، ماذا يضيرني إذا لو كان مختار - ومن خلفه - هم من يدعمونني، ما دام عرضه دومًا هو الأفضل؟!!

أغلق معه الاتصال بوعدني أن أنهي شتوني في مصر بأقرب فرصة كي أسافر إليهم، ليأتيني الاتصال بعدها من دياب - تعلم أن الشيخ غريب خرج من السجن؟! - إذا غريب خرج من السجن بصفقة ما يجيدها من هو مثله مع القيادات، خرج ولم ينل سوى سنوات من السجن، فيما مات جابر دون جريرة، ودون أن يبحثوا عن سبب موته كأنه مجرد قطة ضالة لقيت حنفها في شارع مظلم.

الآن أشعر أنني أغرس من جديد في هذه الأرض التي انفجرت داخلي ألغامها منذ زمن، الشيخ غريب وجماعته، الحماس الفائز لشاب مثلي وقتها كان يرى فيهم قوته، البذرة النقية التي غرسها جابر ونجية داخلي لكنهم هم من سقوها برائهم الملوث فكان النبات مسمومًا بخطابهم، خطوة تلو خطوة ووجدت نفسي أسير قناعاتهم، قبل أن أدرك أنني لم أكن ومن شابهني سوى كباش فداء لعنق كبيرهم، تفاصيل لا أريد

أن أتذكرها، بداية من اجتذابهم إليّ بأحاديثهم السمحة الشيقة حول الدين، مرورًا بحلقات كانت تجمعنا لحفظ القرآن وتدبر الحديث، وانتهاء بلقائي بالشيخ غريب الذي كان - للمفارقة - يزعم أنه ينتمي بأصوله لقريتنا.

قمر، كامل، غريب، بل ومجدي كذلك، كلهم كانت تنتمي أصولهم - مثلي - لقريتنا في مصادفة عجيبة، فلا عجب أن اقتلعت جذوري منها إذن دون رجعة وقد رأيتها دومًا قبلة للخيانة.

- تعرف عنوانه؟!

- وعدتُك أن أكمل معك طريق انتقامك.

عبارة دياب تحمل مزيج الرد بالإيجاب وتجديد عهد صداقتنا، فأكثر على أسناني بغضب وأنا أتحسس ندبة صدري الهلالية، أتذكر موت جابر الذي كان صنيعه شيطان وقربانًا لآخر، أتذكر سجنني بعدها في مثلث ظلماتي، كفري بكل راياتهم المرفوعة، وأتذكر موت نجية بعيدة عني غاضبة عليّ.

- أعطني إياه.

- ماذا؟! ستختلق له فضيحة كقمر؟!!

- بل أسوأ.

- سأنصحك فقط ألا تتهادى كي لا تبكي لاحقًا على اللين

المسكوب.

ليته كان لبنًا مسكوبًا يا دياب! هو عمر مسكوب، هوية

مسكوبة، كيانٌ بأسره مسكوب.

أغلق معه اتصالنا ثم أهرع نحو سيارتي بالخارج، أتوجه نحو العنوان الذي منحني إياه، ها هو ذا غريب.

لم يعد الشيخ غريب، حلق لحيته وصار يرتدي «ثياب

الفرنجة» التي طالما نهانا عن ارتدائها، بواب عمارته يحمل له حقيبة سفر كبيرة، يبدو أنني قد وصلت في الوقت المناسب قبل أن يغادر الفأر سفينته الغارقة.

أتناول هاتفني لأجري اتصالي بدياب أخيره بما يدور في رأسي فهو يتولى هذه الأمور عني.

تمر الساعات بي ثقيلة بعدها وأنا أحاول إلهاء نفسي بقراءة أحد المراجع التي تتعلق بأبحاثي والتي أحفظ بها عادة في السيارة، حتى يصلني صوت دياب الظافر:  
- تم.

تلتمع عيناى بظفر ونشوة الانتقام تضخ المزيد من الأدرينالين في عروقي، أعاود قيادة السيارة نحو المكان المتفق عليه، أتوقف بها في تلك البقعة في العراء حيث وقف دياب مع رجاله في حلقة توسطها جسد غريب المقيد بفمه المكمم، هذه الحلقة التي اخترقتها لأرمقه بهذه النظرة التي تشبعت بسم حقدى كاملاً:

- تذكرني يا شيخخي!؟



تتسع عيناه ما بين حيرة ورعب، فأردف بصوت ممزق بين أنياب الذكرى:

- ليس بمظهري الأنيق هذا، بل بثياب لوثها العرق والتعب، بملامح بريئة توسمت فيكم صدقًا، بصرخة كتبها قصرًا تنعي أبي، وبهذه يا «شيخى».

أقولها كاشفًا عن ندبة صدرى الهلالية، فيبدو التذکر على وجهه متوازنًا مع انطلاقة تأوهاتہ المكتومة وهو يحرك جسده يمنة ويسرة محاولًا تخليص نفسه.

- تشعر الآن بمذاق الصرخة المكتومة؟! القيد الذي يشل جسدك؟! لا ينقصك سوى هذه كي تدرك الشعور الذي منحني إياه.

يعلو صوته كعواء ذئب جريح ولا يزال يتلوى مكانه، فأرتدي قفازي أمام عينيه المرتعبتين، ثم أتناول من دياب ما أعصب به عينيه بإحكام، قبل أن أعاود استقامتي لأرمقه من علو بنظرة تارجحت بين رضا وألم.

- طوال هذه السنوات وأنا أحلم بهذه اللحظة، أن أراك كما كنتُ أنا بسبيك، معصوب العينين، مقيد الحركة، عاجزًا حتى عن الصراخ، كنتُ نحدثنا عن القصاص يا شيخ؟! دم أبي في رقبك أنت وذاك الشرطي، وأن الأوان أن أنال قصاصي، هل تؤمن بالقدر؟! سأتركك له إذن.

صوت نباح الكلاب الجائعة في ذاك الوقت من الليل يمتزج  
بصوت صرخاته التي بللتها دموع عجزه والتي روت عروقي  
بالمزيد من تشفي الانتقام.

نرحل ونتركه خلفنا لمصيره، هل سيموت جوعاً وعطشاً!  
أم تتكفل به ضواري الصحراء؟! ومن يدري ربما تدركه رحمة  
منقذة، لا يعنيني كيف سيتهي مصيره، يكفيني هذا الرعب  
الذي سيعيشه الساعات القادمة.

«الضلع الثاني» من مثلث ظلماتي ينكسر بانقلامي، لكنني لا  
زلت أوقن أني سأبقى أسير زاويته للأبد.  
لم يبق سوى مجدي وتكتمل لوحة انتقامي، هانت.  
أعود لقلعتي السوداء فأبدل ملابسني لأستلقي في فراشي،  
عشر مكالمات فائتة من ضي لم أرد عليها ولن أفعل، ليس وأنا  
أشعر بدنس يدي يناقض طهر صوتها.  
آه يا ضي! لو تعلمين كم أتورط فيك يوماً بعد يوم.

اعترافك لي بالحب ليلة عقد قراننا أحيا رميم قلب ظننته  
مات للأبد، طريقة بوحك القدسية التي تشبه روحك، جو  
عائلتك الدافع الذي افتقدته منذ عهد بعيد برائحة جابر ونجية،  
تعليمين يا «ورطتي» أنني لم أكل بشبهة حقيقية منذ زمن طويل  
كما فعلت ليلتها معكم؟!!

أجل، ورطتي أنت يا ضي، فما حيلتي فيك وأنا لا أدري

كيف أصفك؟! حجر ثقيل يجرد قلمي للقاء أم طوق نجاة يشتهيها  
ذراع غريق؟!

كوني كما تكونين، لا يهم، ما بيننا سحابة صيف عابرة يفنيها

مطر الشتاء.

ترعمين عن إيمانك بحبي كإيمانك بدينك ووطنك، غداً  
عندما ينتهي ما بيننا ستتعلمين كيف تحجدين بكل هذا.

- أعلم أنك مشغول، لكنني فقط أريد الاطمئنان عليك،  
بالله عليك يا يونس، لن أنام قبل أن أسمع صوتك.

رسالتك بصوتك الذي لا تتعلمين إغواءه تصيب خلاياي  
برجفة قاتلة، أشتهيك يا ضي، أشتهيك كما لم أفعل بامرأة من  
قبل، ربما لو نلت منك قبل زواجنا المفترض لكفتيك وكفيت  
نفسي شره.

لكن كيف؟! وعمتك تخفيك خلف حصونها حتى بعد عقد

قراننا؟!

كان يمكنني أن أطمئنك برسالة لكنني لم أفعل، سم انتقامي

الذي يسري في عروقي يضع على وجهي قناع قسوة لا أملك  
نزعه، فلتحترقي بي كما أحترق بك.

الليل الطويل يمزق أذني بصراخ غريب المكتوم، يكحل

عيني بنظرة قمر المرتعبة، فلا أدري هل أنتشي بظفر أم أبكي

بلوعة نهاية لعبة خسر كل لاعبيها.

كوابيسي تجلدي من جديد، نفس الكابوس يتكرر بنفس  
النهاية، قدم مجدي فوق صدر جابر، مختار والنيران بين ذراعيه،  
لكن هذه المرة كنت أنتِ معي، تسقطين وتمدين لي يداً لا أملك  
مسكها فيعلو صراخك باسمي.

أستيقظ بشهقة مذعورة أكتمها في وسادتي كالعادة، نور  
الصباح الساطع يشي بأنني قد تأخرت كثيراً في الاستيقاظ،  
الصداع اللعين في رأسي يجعلني أتناول هاتفني لألغي مواعيدي  
في الجامعة والمختبر، ثم أغادر غرفتي للمطبخ في الطابق السفلي  
كي أعد لي كوباً من القهوة الثقيلة.

صوت رنين الجرس الداخلي للبيت ينهني لتلقي الاتصال  
من الحارس بالخارج، يجزني أنكِ هنا.

جئتِ بقدميكِ لعريني، ألم أخبركِ أن البراعم البيضاء لا  
تليق بقسوة ظلمة عالمي!؟

أتحرك بخطوات متناقلة لأفتح لكِ الباب، فتصرخ عيناكِ  
بلهفة تصبغ حروفك:

- أنتِ بخير!؟ كدت أصاب بالجنون وأنتِ لا ترد على  
هاتفك ولا أعلم عنك شيئاً.

قبضتاكِ الرقيقتان تشدان على كتفي بقوة حانية فيرتجف  
جسدي بالمزيد من رغبتني فيكِ، والكذبة تفرض نفسها على لساني:

- مشغول مع العمال لتجهيز البيت لزواجنا، أريد إجراء

بعض التغييرات، ادخلي.

- لن أستطيع، عمتي يافا ستقتلني لو علمت أنني جئت  
وحدتي إلى هنا، لكنني لم أستطع مقاومة قلقي عليك.

تقول ليها بخجل وأنت تزيحين ذراعيك عني بينما تبعدين  
عن الباب المفتوح فأتصع الغضب:

- كما تريدني، ما دميت لا تثقين بي افعلي ما تريدني.  
تدمع عيناك بذنب أنت أبعد ما تكونين عنه، فتعودين  
لتقتربي قائلة بما يشبه التضرع:

- أنا أثق بك أكثر مما أثق في نفسي، لكنني لا أريد إثارتها ولا  
أريد الكذب عليها كذلك.

أشيح بوجهي بالمزيد من الغضب المصطنع لأقول ببرود:  
- كنت سأدعوك وإياها لزيارة بيتي بطبيعة الحال كي  
تقترحي أنت التعديلات المطلوبة بذوقك، لكن لا بأس، العمال  
في طريقهم إلى هنا الآن، ابقِي وقابليهم، أو ارحلي، كما تريدني.

ذبذبات ترددك تصلني مكاني قبل أن أشعر بك تقترين  
خطوة أخرى:

- سيتأخرون!؟  
- لا أظن.

أقولها مستغلاً بادرتك بذكاء فأمسك كفك لأتحرك بك نحو  
المطبخ بالداخل قاطعاً عليك طريق التراجع.

- كنت سأتناول قهوتي، ساعد لكِ كوبًا من العصير.
- سأشاركك القهوة.
- لا، القهوة مضرّة، لا أريدك أن تدمنيها مثلي، هل تناولتِ

إفطارك!؟

- يافا صارمة جدًّا في هذا الأمر، لا تتركني أبدًا أخرج دون إفطار.

تقطعين حديثك فجأة وأنتِ تتناولين هاتفك الذي ارتفع بصوت الأذان في واحد من تطبيقات الصلاة، ثم تغمغمين ببعض الخجل:



- أريد أن أصلي.  
- هنا؟ الآن؟!  
صوتي المرتعد يحمل سخرية لم تتبينها براءتك المعهودة فتجيبين مرفوعة الرأس:

- أبي علمني ألا أؤخر صلاتي أبدًا، كان يقول لي إن (من وُلدوا من رحم الهلاك يفتقون جيدًا قيمة كل لحظة في هذه الحياة، وأنه يريد متى استقبل ملك الموت أن يلقي ربه غير مقصر ولا متهاون).

حلقي يجف بشدة مع صدى كلماتك الموجه في نفسي، لقد نسيت ما تحكى عن منذ زمن، تجربتي مع غريب حطمت كل هذه المعاني في نفسي.

غريب! صورته بالأمس تعاود اكتساحي دون رحمة،  
تلطخني بالمزيد من سواد القسوة والانتقام، تضيق محيط «مثلث  
ظلماتي» أكثر حتى يوشك أن يخنقني.

– أين اتجاه القبلة؟!

سؤالك يقذف المزيد من الحطب فوق نيران، لست لي يا  
ضبي ولن تكوني يوماً، فليسته كل ما بيننا، لكن ليس قبل أن أشبع  
نهمي منك أولاً، لعلي بعدها أزهد ما بيننا وأقطع كل خيوطنا.  
ولما كان سؤالك لا جواب له عندي ولم أهتم منذ أن سكنت  
هذا البيت عن جوابه، كانت كذبتني من جديد حاضرة وأنا أشير  
لك نحو أحد الزوايا.

– أئن تصلي؟! تمنيت كثيراً لو تؤمني في صلاة.

– ليس الآن، فالعمال على وصول ويجب أن أكون في

انتظارهم.

تتلقين المزيد من أكاذيبي بالمزيد من براءتك، ثم تتحركين  
نحو أحد الزوايا ليرتفع صوتك بالتكبير ثم تبدئين في صلاتك.

أختلس نظرة جانبية نحوك لا أكررها وأنا أشعر بجسدي  
كله يرتجف، هل هي رغبتني فيك التي توشك أن تنال منك؟!  
أم...!؟ لا! لا أريد التفكير في أي تفسير آخر.

أعقد حاجبي بعزم وأنا أتحرك نحو الدرج القريب الذي  
يحوي بعض هذه الأقراص التي تصلح للغرض، أتناول أحدها

بخفة ثم أضعه في كوب العصير خاصتك، لأجلس بعدها مكاني  
منتظرًا إياك وقد أطرقت برأسي مستسلمًا لسواد ظلمتي يسحبني  
في دوامته أكثر وأكثر.

- شكرًا.

صوتك الرقيق يتشلني لألتفت نحوك فأراك تجلسين على  
الكرسي المرتفع أمام الطاولة جوارى، ترتشفين رشفة من كوب  
العصير ثم تديرين بصرك في المكان متسائلة:

- ما الذي تريد تغييره هنا بالضبط!؟

- تعنين أنه يعجبك هكذا!؟

- يكفيني أنه ذوقك أنت.

تقولينها بغيرك العاطفية مع رشفة أخرى من كوب  
العصير، فيزيد فوران جسدي أكثر، خاصةً وأنتِ تسكين المزيد  
من عاطفتك في حروفك دون تحفظ:

- تعلم!؟ منذ عقد قراننا وأنا أشعر أن يافا تنام بصورة

أفضل، المسكينة عاشت كل هذه السنوات تخاف عليّ، ورغم أن

نضال لم يستنح معيشتنا هنا وحدثنا بعد وفاة أمي، لكنها كانت

تداري على كل أفعال خطاب زاعمةً أنه سندنا هنا، كانت تفعلها

لأجلي فهي تعلم ارتباطي الشديد بمصر وهو اجسي من العودة

لغزة بعد فقدي لأبي.

ترتشفين رشفة أخرى من العصير ثم تضحكين ضحكتك



المهلكة فتكملين:

- وتجيء أنت لتكفيها هم خوفها عليّ، وخوفي أنا أيضًا،  
أنت صرت أمان عالمي كله يا يونس.

أكز على أسناني بقوة تكاد تحطمها وأنا أكاد أصرخ بك أن  
اصمتي، لا أريد سماع كلماتك هذه، ما بيننا سينتهي في دقائق،  
ربما سأترك لك جرحًا لن تنسيه طوال عمرك، لكنني سأترك لك  
درسًا لن تنسيه العمر كله كذلك، ألا تثقي في شيء اسمه الحب.  
صلاتك لن تحميك مني، مشاعرك لن تكفيك شري، ضيِّك  
لن يبيِّغ وسط ظلماتي، أنا وأنت نازّ وماء متى التقينا فأحدنا  
سينطفئ والآخر سينبخر، وبالنهاية امتزاجنا عدم.  
- أريد أن أرى شعرك.

أهمس بها بصوت متناقل وعيناوي تجولان فوق ملامحك  
باشتهاء فتحمر وجنتاك بخجل، تهمسين برفض واه:  
- العمال على وصول!

- اطمئني، لن يدخلوا قبل أن أعطي الإذن للحارس بالخارج.  
- لا أحب شعري، أشعر به مبالغ فيه، طالما رجوت يافا أن  
تسمح لي بقصّه لكنها ترفض، تعدني أنت إن رأيتك أن تسمح لي  
بفعلها؟! \*

لا يزال نقاؤك الطفولي يخزني ببراءته لكنني أتجاهله وأنا  
أمنحك إيباءة رأس تشبه الوعد.

تضحكين وأنتِ ترتشفين ما بقي من كوبك لتضعيه جانباً،  
فأمد أناملي المرتجفة لأزيع عنك وشاحك، تتسع عيناى بانبهار  
وأنا أحل شعرك من رابطته لينسدل بطوله على ظهرك، يتموج  
مع انعكاس الضوء فوقه فيبدو كشلال من الكراميل، يمتزج مع  
لون عينيك الصافي ولون بشرتك البرونزية ليرسم في عيني أجمل  
امرأة رأيتها في حياتي.

أناملي تنساب بين خصلاته دون وعي، تتلمس نعومته  
باشتهاء يصل حد الألم، تغمضين عينيك بمزيج من خجل  
وترقب لتقطعي الصمت المشتعل بيننا بسؤالك:

- ستسمح لي بقصه ١٩؟

ودون أن أشعر وجدائني أهمس بلا وعي:

- إياك أن تمسني شعرة واحدة منه.

- هذا ظلم، أنت وعدتني.

صوتك يبدأ في التناقل لا أدري بتأثير العقار أم بعاطفتك،

فأضمك نحوي لأقرب وجهك مني ولا تزال أناملي تعزف

لحنها المجنون بين خصلات شعرك، نحاولين الابتعاد ببعض

التردد لكنني أشدد قوة ضمي لك، ذراعاك فوق صدري يحولان

بيننا فأزيجها ببعض العنف خلف ظهرك، أسمع دوي صوت ما

يتكسر، ومعه بقايا صوتك بين غياهب اللاوعي:

- ساعة أبي وقعت.

أعلم ما تعنيه هذه الساعة لديك، وأنتِ لا تحلعيها من  
معصمكِ أبدًا، لكن.. فلتنكسر مع ما سينكسر.  
- يونس، أشعر بالدوار، لا تدعني أسقط.

صوتكِ لا يزال يخنقني ببراءته، فأخرس ما تبقى من  
كلماتكِ بشفتي، أحملك بين ذراعي نحو الغرفة الجانبية لأضعكِ  
فوق الفراش، عينكِ المغمضتان تتواطآن مع همساتكِ باسمي،  
فأنحني فوقكِ لأفك أزرار قميصكِ.

- يافا ستغضب مني لأنني تأخرت، لا تدعها تعتقني يا أبي،  
لا تدعها تخاف.

صوتكِ يترنح بين ضلالاته وذكركِ لأبيكِ يثير المزيد من  
جنوني، فأكاد أميل لأخرس شفتيكِ من جديد لولا أن تأتي تمتمة  
هذيانكِ:

- يونس سيحمني، لم أعد وحدي بعدكِ يا أبي، لا تخف،  
ولا تدع يافا تخاف، نضال قال إن يونس رجل يؤتمن، بل هو  
أمان كلّه.

أرتد عنكِ كمن ضربته صاعقة، جسدي يرتجف بقوة كأنها  
يمسه ذاك التيار الذي كان رجال مجدي يجيدون إيلا م جسدي به،  
عينا ي تدوران فوق تفاصيلك الفاتنة فلتسمعان بأشتهاء، تتسعان  
بانبهار، تضيقان بألم، ثم تسبلان فوق دمعة غضب، عجز، وندم.  
صرخة قصيرة تشبه صرخات كوايسي تغادر شفتي فأنحني

فوقك من جديد، لا لأنال منك، بل لأكتمها كأخواتها في الوسادة  
جوارك، تَبَا لِكِ يا ضِيّ! لماذا لم تتركيني لحالي؟! بل تَبَا لي أنا! لماذا  
أقحمتك معي في مثلث ظلماقي هذا الذي أنا عاجز عن مغادرته،  
وعن مغادرتك أنتِ أشدّ عجزاً؟!!!

- يونس سيحمني.

تأوهاتك الخافتة باسمي تزيد تأجج النار في ضلوعي،  
فأتمالك نفسي بشق الأنفس لأعيد إغلاق أزرار قميصك  
متحاشياً النظر لوجهك، أغادر الغرفة ركضاً لأهلع نحو الجدار  
المقابل فأخبط به رأسي مرة تلو مرة حتى أشعر بألم جسدي يغلب  
أي شعور سواه.

أتوجه نحو الحمام القريب فأهيل الماء على رأسي تحت  
الصنبور، هذا ما يفعله سواد انتقامي - منهم - بك أنتِ، في المرة  
الأولى لقمر تجرأت عليك في مكتبي، والآن في المرة الثانية لغريب  
تجرأت عليك في بيتي، ماذا سأفعل بكِ إذن عندما تحين ساعة  
مجدي؟! غادرتني قبل هذا، اهجري أرضاً ليست لكِ.

فورة الدماء في جسدي تهدأ رويداً رويداً فأغلق الصنبور  
لأجفف وجهي وشعري، أتحرك نحو الأريكة المقابلة للغرفة  
التي تستقرين فيها فأجلس فوقها معطياً ظهري لباب الغرفة  
بحزم، ماذا أفعل فيك؟! ألم أكررها مراراً؟! أنتِ ورطتي يا ضي!  
لا أدري كم مر من الوقت بعدها ورأسي ممزق بين ضلالات

ماضي حاضر، وغد.

لكن صرختك العالية المفاجئة تجعلني أنتفض من مكاني  
بسرعة لأهرع إليك، تترنحين في خطواتك فتكادين أن تسقطي  
وصراخك لا يتوقف:

- ماذا حدث؟! أنا في فراشك.

أنفاسك تتلاحق بهذه الطريقة المفزعة كما رأيتك أول مرة  
وهذا العرق الغزير يغرق جبينك فأحاول مهدئك بين ذراعي  
بلا جدوى، لقد افتقدت هذا التواصل العاطفي من زمن ولا  
أعرف كيف يمكنني منح ما أفتقده أنا نفسي من أمان، لكنني  
أضمك لصدري بهذا العناق الذي وددت لو منحته لنجية قبل  
أن تفارقتي، أقبل رأسك بهذه الطريقة التي تمنيت لو أمنحها  
إياها، ويبدو أنني قد نجحت لهذا أستعين بالمزيد من كذباتي:

- اهدهني، اهدهني، لم يحدث شيء مما يخطر ببالك، أنت قلت

أنك تشعرين بالدوار ثم فوجئتُ بك تسقطين فاقدة لوعيك في  
المطبخ فحملتك للغرفة القريبة وأحضرت لك الطبيب الذي

قال إن الأمر بسيط، فقط ضغطتك قد انخفض فجأة.

لا يزال جسدك ينتفض بين ذراعي وأنت ترفعين عينيك  
إليّ، وما يذبحني حقاً أنها لم تحملالي أي تكذيب.

غداً سألعن نفسي أن فرطت في هذه الفرصة لامتلاكك،

لكنني الآن سأحمد لها أنها منعت عنك شري، كيف كنت

سأواجهك لو كنت فعلتها حقاً!؟

- ربما هو العصير كان شديد السكرية، هذه الأشياء تصيبني  
أحياناً بهذا الحال، وربما لأنني لم أُنم طوال ليلة أمس قلقاً عليك.  
تمسين بها بتلثم كأنها تمنحين كذبتني المزيد من المصادقية،

ثم ترفعين معصمك لتتهتفي بصوتك اللاهث:

- ساعة أبي.

أتركك لأعود بها بعدها وقد تهلثم زجاجها فتخفين وجهك  
بين راحتيك مستسلمة لدموعك التي وجدتني في صدري  
كألف سوط.

- هيلجا تقادرو سائل كحها لك في طريقك، عمتك ستقلق

من تأخرتك **ONE PIECE**

ترفعين إلي نظرة مشتتة وأنت تتساءلين ببراءتك المغيظة:

- والعمال!؟

- ماذا؟! آه.. أجلت موعدهم للغد بالطبع بعد ما كان.

أقولها وأنا أمنحك وشاحك لتلفيه حول رأسك، فأرمتي

شعرك المذهل بنظرة عميقة تكاد تفقدني صوابي من جديد.

الصمت الثقيل يلفنا لدقائق عقب مغادرتي بك، وفي رحلتنا

بسيارتي أختلس نظرة جانبية نحوك لأسألك أخيراً:

- أنت بخير؟

يهياً إلي أنك لن تحببي مع إطراقة رأسك التي طالت لثواني

قبل أن ترفعي «لجتيك الصافيتين» نحوي فتهمسين:  
- أنا بخير مادمت معك.

أتكلف ابتسامة راضية هي أبعد ما تكون عن شعوري،  
لأجدني في الدقائق القادمة وكأنني أنسلخ عن جلد ظلماتي،  
أحاول مراضاتك بشتى الطرق، نصلح ساعة أبيك فتصرين أن  
ألبسك إياها بنفسي هذه المرة، أبتاع لك بعض الثياب والحلوى من  
مجمع تجاري قريب، بل وأشتري لك دمية ظننتها تشبهك، وأخيراً  
يا «ورطتي» تشرق ضحككتك كما عهدتها لتكون نهاية الرحلة.

- عمتي تتصل، ماذا أخبرها؟

تهتفين بها بمزيج من خوف وذنوب فأتناول منك الهاتف لأحدثها  
أنا، أمتص عتابها باعتذار مهذب لأختمه بيا فاجأني أنا قبلك:  
- سأوصلها بنفسي للبيت كي أناقشك في أمر زواجنا، لا  
أرى داعياً لتأجيله، فليكن الشهر القادم.

\*\*\*

\* ضي \*

\*\*\*

أفرك كفي بتوتر وقد خلعت ثوب الزفاف - لثوي - وحدي  
في غرفة نومنا، أنا ويونس،  
يا الله! التصور لا يزال صعباً على عقلي، لا أكاد أصدق  
أن باباً واحداً سيغلق علينا معاً، وجتاي تكادان تحترقان وأنا

أرتدي قميصي الحريري الأبيض الذي زينته لي يافا بنفسها مع  
مئزره، أسدل شعري بطوله على كتفي لأتأمل شكلي في المرأة،  
فاتنةٌ بما يكفي لأليق بيونس!؟

آه يا يونس! لا تزال لغزي العصي على إدراكي رغم يقين  
قلبي أنك أقرب إليّ من أنفاسي، لا أزال أخاف «مرأة روحك  
المكسورة» في عينين تروعني ظلمتهما، لكنني أتشبث ببقعة ضوء  
تجتذبني إليك دونها إرادة مني، منذ ارتبطت بك بعقد رسمي وأنا  
أشعر أن أسوار ماضيك تحجبك عني، حاولت تسلفها والعبور  
إليك لكنك أوقفتني مكاني مكتفياً بتفاصيل مقتضبة عن طالب  
فقير نزع أهله من الصعيد للعاصمة وحفر في الصخر حتى وصل  
لهذه المكانة، لكنك وعلائي أن تحكي لي الليلة عن نفسك، وفي  
سابقة نادرة أخبرتني - بلهجة عاطفية تسربت قسراً عبر قناعك  
البارد دوماً- أنك ستخبرني في أول ليلة تنام فيها على صدري.

صوت طرقاتك على الباب يجعلني أنتفض مكاني بترقب  
خجول، ثم أكتف ساعدي بقوة مطرقة برأسي، أشعر بك تقترب  
لكنني أعجز عن رفع عيني إليك، أشعر بأنفاسك اللاهثة تدغدغ  
بشرتي مع أناملك التي امتدت تحتضن وجنتي فأجد الجرأة أخيراً  
للنظر نحوك، للحظة واحدة فقط أتبين هفة عاطفتك في عينيك  
قبل أن ينسدل جفناي رغماً عني.

- خائفة!؟



- عشتُ الخوف كثيراً في حياتي، لكنني الآن أبعد ما أكون عنه، لو كان هناك ما أخشاه الآن فهو ألا نكون يوماً معاً.

أناملك تجيد عزفها الحاني على وجنتي فأرفع عيني نحوك من جديد، تبدو لي مرآة روحك في هذه اللحظة صافية تماماً على غير عهدها، لكنها تفضح وجعاً صارخاً مجزئياً، يقبض صدري، خاصة مع كلماتك هذه:

- عديني أن تكوني يوماً قوية، بي أو بدوني.  
- تظنني سأكون شيئاً بدونك؟!  
أهس بها باستنكار وجل وذراعاي يشبهان بخصرك فتغمض عينيك بقوة لترتجف شفثاك بشممة لم أسمعها لكنها كانت تدوي داخل قلبي كصراخ مكتوم، آه لو تصارحني، لو تفتح لي صندوقك الأسود لعلني أداوي ما جرحه فيك غيري.  
- يونس!

أهس بها بكل ما أوتيتُ من حب فتفتح عينيك أخيراً، تتأرجح نظراتك بين ألم ورضا، وشعور آخر لم أفهمه، أناملك تقرب وجهي نحوك أكثر حتى تمتزج أنفاسنا مع همسك:  
- أنتِ أجمل امرأة رأيتها في حياتي.  
- أما أنا فلم أزر رجلاً قبلك ولن أرى بعدك.

همساتي تنقطع بين شفثيك واللحن المجنون لعاطفتك يدوي صاحباً بيننا، لسانك الكتوم الذي طالما خذلك تعوضه

الآن ثرثرة جوارحك بلغة جسدك فائضة التعابير، لا أزعم أنني  
كنت يوماً سعيدة في حياتي كما أنا في هذه اللحظة، وكأنها حيزت  
لي الدنيا بحذافيرها.

عاصفتنا الهادرة تلقي بنا أخيراً فوق شاطئ السكينة على  
فراش يضمنا معاً لأول مرة، أضرم رأسك لصدري وأهمس لك  
بابتسامة خجول بينما أتبين رمشاً راقداً على وجنتك:  
- تمنّ أمنية.

تأوه بخفوت ثم تغمض عينيك وذراعاك يشندان حولي:  
- أن أنام الليلة فقط، الليلة فقط، دون كوابيس.  
جوابك يحز قلبي بمدلوله لكنني أتصنع المشاكسة وأنا  
أسألك عن مكان الرمش الساقط فتجيبني، لاهتف بظفر:  
- إجابة صحيحة، ستتحقق أمنيتك.

- وأنت، ماذا تتمنين؟!

- هل سقط لي رمش؟!

- لا أحب أن يسقط منك أي شيء ولو شعرة واحدة.

أسألك فقط.

جوابك الحماي يذكّرني بأبي فأضحك وأنا أداعب شعرك  
الخشن - الذي أحبه - بأناملي لأهمس لك بتضرع من يخاف أن  
يُردّ مخذولاً.

- تذكر وعدك؟!

- أي وعد؟! -

أدرك أنك تتهرب من الجواب فأقبل رأسك بحنان راج

لأهمس:

- لن أطلب منك أبداً أي شيء مرتين، لو كنت تريد الصمت

فلا بأس.

تدمع عيناى بعدها دون سبب، ربما لأنني فقط شعرت أن

الأسوار بيننا ستبقى قائمة، لكنك تمد إبهامك لتمسح دموعه خائفة

قبل أن تغادر جفني، ثم تتنهد بحرارة لتغمض عينيك مع همسك:

- وعدتك أن أحكي لك عني.

- احك يا يونس وأعدك ألا تندم أبداً.

- أخشى أن تندمي أنت.

- أبداً.

أهمس بها بيقين مؤمن وجد فيك عقيدته، فترتجف شفقتك

من جديد بـ«شبهه ابتسامتك» هذه ثم تبدأ بالحكي، عن نجية

وجابر، عن كامل وقمر، عن غريب ومجدي، عن يونس لم أظن

يوماً أنه موجود خلف الواجهة الأنيقة لأستاذي العظيم.

دموعي تسيل صامتة فأكتفم نشيجي خشية أن يجرحك،

لكنك تبدو بعيداً جداً خلف حفيك المغمضين، كأنك فقدت

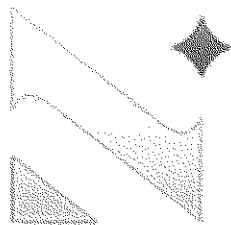
الشعور بالزمان والمكان، كأنك كنت تفتقد فقط من تسكب على

صدره كل هذا الوجع.

صوتك الحبيب يتناقل فأدرك قرب انقطاع سيل البوح  
هذا، رأسك كذلك يتناقل فوق صدري فأكاد أكتم أنفاسي  
خشية إزعاجك، أنفاسك تنتظم أخيراً مع ارتخاء ذراعيك حولي  
فأسمح لدموعي من جديد بالانهار مدركةً استسلامك للنوم،  
أرفع وجهي لأعلى أدعو الله بحق أنقى عمل في صحيفتي أن تنام  
الليلة دون كوابيس، ثم أعاود خفض بصري نحو ملاحك، أضم  
رأسك لصدري بقوة حانية وأنا أتمنى لو أكون «قطعة الإسفنج»  
خاصتك والتي تمتص كل وجعك هذا حتى ولو كان في هذا  
هلاكي أنا، قلبي يخبرني أن ما بحث به ليس سوى نصف الحكاية  
المعتم، وأن النصف الآخر لا يقل عنه عممة، لكنني أنشبت ببقايا  
يقيني فيك. ONE PIECE.  
أقبل جبينك بحذر ثم أهمس لك بخفوت كأنها أريد غرس  
كلماتي داخلك:  
- ولو حذلتك الدنيا كلها فلن أخذلك أنا يوماً، سأبقى لك  
دوماً ضي يونس.

\*\*\*

BOOKS



## (الظلمة الثامنة)

بتونسني دموع العين، وأنا سايب أهاليّا

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

- لماذا ترتدين هذا الثوب؟! -

أسألكم بفظاظة متعمدة عقب رجوعي للبيت صبيحة يوم «عيد» لم أعد أعترف به من زمن، أراها ترتدي ثوبها الفلسطيني بنقوشه المميزة بأعلام بلادها، لكن ابتسامتها تتصدى لفظاظتي وهي تقول بعتب بينما تقترب مني بعناق وقبلتين:

- ألا تقول لي كل عام وأنت بخير أولاً؟! إنه أول عيد لنا

معاً.

أغمض عينيّ بمزيج من ألم وإرهاق، لو تعلمين كم يجهدني

صراعي معك يا ضحي؟! لقد ظننتك دمية سيزهدها قلبي «الطفل»

بعدما يتملكها، لكنك لم تعودي دمية الطفل بل «أمه».

الحقيقة أن كل يوم مر بنا في الأيام التالية لزواجنا كان

بمثابة حبل متين أو ثوق قيد كل منا بصاحبه، لكنه كذلك كان

يُظهر تناقض طبيعتينا المؤذي، شهر رمضان المنقضي كنت أقضي

معظمه خارج البيت كي أهرب من تساؤلاتك حول صيامي

وصلائي، بل وأهرب من رؤية طقوسك التي تذكرني بما تناسيته منذ زمن، لماذا طاوعتُ جنوني وتزوجتك يا ضي؟! لماذا وقد كنت قاب قوسين أو أدنى من امتلاكك دون حاجة لهذا؟! تراني خشيئاً عليك من نفسي لهذا عجلتُ بزواجنا كي أحميك من سواد ظلماتي؟! وهل يزعم مثلي أن قربه بمن مثلك قد يحمل مثقال ذرة من أمان؟!!

تعلمين كم أحترق بك كل ليلة أنام فيها على صدرك؟! غادرتنني كوايس نومي معك يا ملاكي وبقيت وحدي كإبوس يقظتي، جمر نار أنت يحترق بها كفي ولا يقوى على تركها، فما حيلتي فيك وأنت جثتي وجحيمي؟! براءتك تقبل كل عيوي دون شكوى، دون ضجر، حتى وحدثك هنا بين جدران هذا البيت بعد سفر عمته لابنها في غرة تحتملونها دون تأفف، لا تعاتبين ولا تتذمرين، بل يتلقفني عناقك كل مرة كمسافر طالت غربته وها هنا فقط يجد وطنه.

تماماً كما تفعلين الآن وأنت تحتضنين وجنتي دون انتظار ردي على عبارتك لتهمسي لي بحنان لا يجيده امرأة في الدنيا - بعد نجية - سواك:

- أعلم أنني لم أتزوج رجلاً عادياً بل عبقرياً تلتهم أبحاثه أغلب وقته، وأعلم أنك لم تعتد صحبة تضيق عليك خناق حريتك طوال هذه السنوات قبل زواجنا، لكن عدني بالأ تكرر ميته في

الخارج، اقضِ يومك كما تشاء لكن أنه بالنوم بين ذراعيّ.  
أغمض عينيّ هاربًا من فيض عتابك الحنون والصامت،  
تظنيته كان من السهل عليّ أن أفعلها؟! تظننني هنأت بنوم بعيدًا  
عنك؟! فعلتها لأكفّ عن إدماني إياك يا ضيّ، أنتِ تمتصين كل  
درة مقاومة يبديها لكِ عقلي، ولا تفهمين أن لقاءنا ليس سوى  
لقاء غريبين ينتمي كل منهما لقطار مختلف، مصيرهما سيؤول  
حتماً للتلوّح وداع.

صمتي يطول لكنك اعتدتِ هذا كما يبدو، تربتين على خدي  
برفق ثم تقولين برفقتك الطفولية:  
- أنا أرتدي هذا الثوب لأنني سأحدث عمتي ونضال في  
مكاملة مرئية، هي تحب رؤيتي في ثوبنا هذا الذي طرزته بنفسها،  
يوم العيد لدى يافا يحمل طقوسه الخاصة، لعلها الآن تقوم  
بتوزيع «المعمول» و«الساقية» على الجيران، تعرف أكلة الساقية  
الغزاوية؟! أكلة مميزة تحتوي على الساق واللحم والسلق، لو  
رغبت يمكنكني أن أطبخها لك.

- لا.

أقولها بالمزيد من الفظاظة ونبرتك شديدة الاعتزاز هذه  
بوطنك تشير المزيد من تحفظي، لكنك تراجعين خطوة لتقولي بها  
يشبه الاعتذار:

- لاريب أنك متعب، اصعد غرفتنا لتستريح، لكن هل

تعايد عمتي ونضال أولاً؟!

أكاد أهتف بالرفض استكماً لآلسلسل فظاظتي - المتعمد-

معك لكنك تستطردين بها لم أستطع مقاومته:

- إنه أول عيد أقضيه بعيدة عنها، افتقدتها وأخاف عليها

وأدرك أن افتقادها وخوفها علي أكبر، طمئننها يا يونس.

تفتحين حاسوبك المحمول لتبدئي محادثتك مع عمته  
التي تحدثك من إحدى الحدائق، ولست أدري لماذا بدلي نخيل  
بيلادكم وكأنه لا يشبه أي نخيل، سعفه يتمايل بعزة يشبه نظرتك،  
وجذعه يبدو لي أشد ثباتاً مع نضرة لونه كصرامة يافا الخنون.

صوت غناء بعض الأطفال حولها بلهجتكم الشامية وبهذه  
الكلمات عن قيمة الوطن يثير المزيج الموجه من شجونتي و... سخريتي.

الوطن! الوهم الذي باعوه لنا صغاراً في تحية قطعة قماش  
ملونة في طابور مدرسة، أو مشاهدة فيلم سخي عن انتصار  
حرب عفا عليها الزمن، فكبرنا لنذكر أن ما سمّوه وطناً كان

وطنهم هم، وطن المخادعين والجبابة، وطن مجدي وكامل

وغيره وقمر، أما جابر ونجية ومن مثلها فليس لهم وطن إلا  
تراب الأرض الذي رقدت تحته أجسادهم والذي كان أحسن  
عليهم من البشر فوقه.

خنجر ذكرياتي المسموم ينغرس في صدري أكثر فأكتفي بهذا  
القدر من محادثة عمته لأعتذر لها ثم أصعد هارباً لغرفتي.



الفراش المرتب يفضح سهرك دون نوم الليلة الماضية مثلي،  
كل يوم تسقطين بي أكثر، وأسقط بك أكثر وأكثر، فما أغنانا عن  
هذا السقوط!

أبدل ملابسِي وأتمدّد على الفرّاش أستنشِق عبير عطرك الذي  
أفقدته، أحضن وسادتك ثم أقذفها جانبًا بعنف، لا أريد المزيد  
من إدمانك يا ضي، لا مزيد.

أشعر بك تقترين فتزداد نغمتي عليك وعلى نفسي، ربما لو كنا  
زوجين عاديين لأخذتك في نزهة طويلة، لجعلت أول عيد لنا معًا  
هو أجمل ذكرياتك، لصنعت لك بنفسي أرجوحة تلهذين بركوبها  
طول العمر، لفعلت كل ما يوسعي كي لا يتوقف لحن ضحكك  
الذي ترقص عليه الدنيا، لكن، أنا يونس، سيد الظلام وأنت ملكة  
النور، سرداب الظلال بيننا أصمّ لن يطربه لحنك يا ضي.

- نمت؟! -

تهمسين بها بخفوت حان لونه عتابك، فيجعلني وخز  
صدرِي أهب من رفدي لأهتف بك بفظاظتي الخادعة:

- كيف أهنأ بنوم وأنا تزوجت طفلة؟! طفلة لا تبالي سوى  
بتفاهات احتفالات العيد ولا تعي تعقيد حياة رجل مثلي.

عينك تتسعان بصدمة مع المزيد من اتهاماتي التي أدرك أنها  
باطلة لكنني كنت أنفذ خطتي للتخلص من إدمانك.

أشبح بوجهي أخيرًا منتظرًا ردك، لكنك كعهديك تكتفين

بصمتك، أتجنب النظر إليك لأعود لرقدي متظاهراً بالنوم  
فأشعر بك تتمددين جوارى، تتأهب حواسي بصراع بين جنبي  
وجزاء بداخلي ينتظر عناقك ككل ليلة، لكن جزءاً آخر ينفر  
منك يستصرحك الاستجابة لمخططي، دقائق تمر بنا طويلة قبل  
أن أشعر بك تغادرين الفراش بخطوات متثاقلة لتخلو الغرفة  
الباردة من دفء أنفاسك.

أعض شفتي بقوة تكاد تدميها وإرهاق سهر الليلة الماضية  
يصيب من جسدي، الوقت يمر بثقل مغيظ وجفني يسدلان  
بتعب رغماً عني فأنتفض مكاني بهلع، كيف أعترف أنني أخاف أن  
تعود إلي كواييسي؟! كيف أقر أنني أخشى النوم دونك يا ضي؟!  
كل ذرة بجسلي تنال ما فأتردد بين رغبتني فيك ورغبتني  
عنك، أكاد أعود لرقدي لكن صوت هاتفك بـ«صوت الأذان»  
من تطبيق الصلاة يخترق أذني، تبا لك يا ضي! ألم أمرك من قبل  
ألا تزعجيني به؟

أخرس الصوت بعنف لألقي الهاتف جانباً ثم أغادر الغرفة  
 بخطوات عاصفة تبحث عنك لأجلك تؤدين صلاة الظهر في  
نفس المكان هناك، أراقبك من بعيد متوارياً خلف أحد الأعمدة  
لأجلك تنهينها بخشوعك المعهود ثم ترفعين كفيك بدعاء يمتزج  
بدموعك، لم أسمع ما تقولينه لكنني صرت أحفظ حركة شفتيك  
باسمي، اسمي الذي أوقن أنه الآن يخالط ابتهالك.

سرداب الظلال بينما يزداد طولاً ووحشة، فكيف لنا من لقاء؟! أراكِ تقومين لتمددي بإرهاق على إحدى الأرائك غافلةً عني، تعطيني ظهرك لكن ارتجافة جسدك تشي بانهيار بكائك.

لا أدري ماذا حدث بعدها ولا كيف وجدت نفسي أحلس على أريكته، أديركِ نحوي لتستقبلي عينك الدامعتان للحظة قبل أن تخفيهما بكفيك عني بسرعة، كلماتكِ ليلة زفافنا تنزع الآن فقط في ذهني، تومض كبرق يؤدي ظلمتي:

- ولو خذلتك الدنيا كلها فلن أفعلها أبداً يوماً، سألقي لك دوماً ضي يونيس.

ربما لن يخذلني يا ضي، لكنني أنا سأفعل! ألا يقولون رحم الله امرأةً عرف قدر نفسه؟! وأنا صرت قانطاً مما تسمونه «رحمة الله» لكنني أعرف قدر نفسي وقدر ظلماتي.

- ستامين هنا؟! -

صوتي يخونني ليخرج متعشراً وأنا أزعج كفيك عن وجهك. هل شممتِ في صوتي رائحة رجاء؟! هل تذوقتِ له نكهة

ندم؟! هل خدشتكِ منه ظفر وجع؟! -

ربما هذا ما جعل «الجتيك الصافيتين» تعانقان نظراتي بصفح لا يليق إلا بمثلك، شفائي تنموهان بالزبد من كلماتِ القطة التي لا أتبينها ولا أظنك تفعلين كذلك، كأنك تملكين موهبة «تعطيل حواسك» معي إلا من قلب يكفيك إياها كلها، أجل يا ضي،

قلبك يسمعني، يراني، يلمسني، يتذوقني، ويشم عبير زهري  
المختلط بعطنه.

أطبق شفتي أخيرًا عاجزًا عن التفوه بالمزيد لتتشبث أنا ملي  
بكفك، أقف لأوقفك معي ثم أنكس رأسي المهزوم وأنا أعود  
بك لغرفتي، غرقتنا.

أتمدد على شوكة فراشي من جديد، لكنك تجيدين غزل  
الشوك فتحيلينه حبرًا، لم أعذر لكك كعهديك تصفحين و..  
تصمتين.

أجاهد نفسي بكل طاقتي للعودة لمخططي لكنني أهرم من  
جديد فألقي برأسي على صدرك متعودًا بتسمية أمانك، أشعر  
بأناملك تداعب منابت شعري فأخذ نفسًا عميقًا كأنني أطمع  
في الدنيا كلها الآن، ثم أزره بوجع يليق بظلماتي.  
- لم أنم بالأمس.

كاعتذار، أم كشكوى.. أم كرجاء قلتها؟! على كل حال كان  
جوابك واحدًا، شفتاك تدلان جيبني بصمت بدا وكأنه عقابك،  
تعلمين كم أعشق صوتك يا ضي، خاصة بلهجتك الشامية التي  
تفلت بها كلماتك في أحيان قليلة عندما تفقدن السيطرة على  
شعورك، تكلمي، قولي أي شيء، اجلديني كما فعل من كانوا  
قبلك، وكما فعلت أنا وسأفعل.

التعب ينال مني ورأسي ينغرس بين رحابك أكثر، تنتظم

أنفاسي ويبدو أنك تظننني قد غرقت في نعاسي، فما هو ذا همسك شديد الخفوت يغلفني بين يقظة ونام:

- أنا أيضًا لم أنم بالأمس، ولم أكن سأنام بالأسفل كما ظننت،

خشيت فقط أن تراني أبكي وأنا أعلم أنك تكره دموعي، لم تقلها

لكنني شعرت بها يا يونس، تظنني لا أعلم كم هو صعب أن أعشق

رجلاً مثلك تحونه كلماته ويحونه صمته كما خاناه الكثير من الناس!؟

بل أعلم وأقبل رهاني عليك، أعلم عن الحرب التي تخوضها كل

يوم كي تعود لذاتك تارة وكى تهرب منها أخرى، أعلم وأستودعك

الله في كل سجدة، وظني أن ربي لن يضيع وديعتي.

همساتك تدوب بين غياهب وعيبي لأتلقف عطايا سكينتي

بين ذراعيك من جديد، ليس كابوساً هذه المرة يا ضي، فلا كوابيس

تجرؤ أن تروعي بحضرة مثلك، بل حلم، حلم ب«هيولان»، عالم

مشع بلون أزرق متوهج، يعدني بخلود بلا موت، حياة تلو حياة

تكونين أنتِ فيها معي، فقط أنتِ ضي، ضي يونس دون ظلمات.

نومي يستمر لساعات أطول من المعتاد، أستيقظ قرب

الفجر لأتفحص وجهك النائم جواري بأشتياق غير منطقي، إذا

كنتِ أشتاقكِ وأنتِ بين ذراعيّ فكيف منكِ الخلاص!؟

أزفر بقوة وأنا أغادر الفراش جوارك بحذر، أبدل ملابسي

شاعراً بحاجتي للهروب، قلعتي السوداء لم تعد ملاذي كالسابق

وقد صرتِ أنتِ فيها ورطة لا أميز جحيمها من نعيمها، أهاتف

دياب ليلتقيني في مكاننا المنعزل فلا يخذلني كعهده.

- ماذا بك يا صاحبي!؟

يقولها وقبضته تشد على كتفي فالتفت إليه بشبه ابتسامتي  
المريرة، دياب يشاركني مثلث ظلماتي، خطيبته خائنه مع شقيقه  
بعد سفره لإيطاليا ليعلم بعدها عن زواجهما، وطنه المزعوم رماه  
بين يدي تجار للهجرة غير الشرعية وكاد يلقي حتفه بين موج  
البحر ليكون وجبة لأسماك، عاش مضغة بين الأفواه في غربته  
بإيطاليا سعيًا وراء فرصة عمل، كل هذا فعله لأجل خطيبته التي  
خائنه ولأجل أن يرسل المال لعلاج أبيه، ولما جمع المبلغ المراد  
بالضبط عانده القدر فخطف روح الرجل قبل أن يهنا برؤيته، لا  
عجب أنه جحد مثلي بكل شيء بعدها؛ الدين، الوطن، والحب.  
- أحبيتها!؟

كعهده يقرأ صمتي تمامًا مثل ضي، لكن سؤاله يلدغني  
لأهتف به باستنكار:

- أنت الذي تسأل يا دياب!؟ تعرف أنني كافر بالحب،  
أسقطت راياته عن أرضي منذ زمن، لم أعد أنتمي لشيء أو  
لشخص، لم يتبق لي في هذا البلد سوى القليل من الوقت، فقط  
أنال من ذاك السافل مجدي وبعدها أسافر إليهم هم بلا رجعة.  
كان يعلم من أعينهم بـ«هم» هذه، لذا اشتدت ملامحه  
ببعض العتاب الذي امتزج بامتنانه الدائم نحوي:

- أنت تعرف قيمتك عندي، أنت أخي الذي لم تلده أُمِّي،  
ساندتك وسأبقى أساندك لآخر يوم في عمري، اسمع نصيحتي  
يا يونس وأطلق سراح تلك المرأة، أنت زعمت أنها مجرد بضعة  
أيام تكتفي فيها منها، لا تصعب الأمور عليكما معًا، لن يسرك أن  
تكون حاضرة في انتقامك الأخير من مجدي.

- دياب! أنا أعرف هذه النظرة، أخبرني ما الذي تخفيه.  
أقولها بتوجس متبهاً لارتباك ملاحه، فيزفر وهو ينحني  
ليلتقط حجرًا ما ثم يقلفه بعيدًا.

- تعلم أنه قد تم نقله للصعيد في شبه عقاب على مخالقاته  
في عمله، لكنه ولسبب لا أعلمه قد عاد بترقية كبيرة إلى القاهرة.  
- عنوانه، عائلته، مقر عمله، ثغراته، أريد معلومات عن  
كل هذا، لك ما يلزمك من مال كي تفك الألسنة.

أهتف بها من بين أسناني وعيناوي تشتعلان بالمنظر الذي لم  
يفارقني منذ سنوات، قدمه على صدر أبي الميت.

دياب يجيد اختراق الثغرات ليمدني بما أحتاجه من معلومات  
عن طريق علاقاته المتعددة بفضل شركة السياحة التي ساعدته  
برأس مالها عقب عودتنا هنا، ما أطلبه من معلومات سيكون بين  
كفّي بأسرع ما أظن.

- وماذا عنها هي؟! ماذا ستفعل بها ما دمت تتنوي المضى  
في خطتك؟! في

يسألني بتوجس لألتفت نحوه من شرودي بحدة كأنني لا أفهم ما يعنيه، قبل أن أرد وصورة ضي تشعل المزيد من النيران في ظلماتي:

- سترحل.

نفترق بعدها ليو دعني بنظرته الداعمة، لكنني لم أكن أبصر سوى قرب حصاد النهاية، أعود لقلعني السوداء لكنني أتخذ قراراً حاسماً، ضي يجب أن تغادر عالمي.  
ربما لهذا أزيد من فظاظتي معها لما تبقى من إجازة العيد، ثم شجار صباحي من طرف واحد كالعادة أخوضه معها عندما طلبت مني أن ترافقني للجامعة كي تلتقي حبيبة صديقتها هناك، فهو موعد إعلان نتيجة الاختبارات، لكنني أرفض بتعنت زاعماً أنني عرفت لها النتيجة بالفعل، ترجوني بشدة وأناملها تتلمس سلسلة أبيها في عنقها بهذه الحركة التي لا أملك مقاومتها فأزفر مستسلياً للموافقة، أعلم أنها تحتاج لرفقة وقد سافرت عممتها و... خذلتها أنا.

أرافقها للجامعة في سيارتي فأتحاشى النظر نحوها، ذهني كله معلق بما يجلبه لي دياب من معلومات حول مجدي على مدار الأيام السابقة، أرسم عشرات السيناريوهات لانتقام يليق به ولا يزوج بي في السجن، لن يحطمني انتقامي كالأغبياء، سيأتي يوم وأترك كل هذا خلفي لأتعمم ببقية عمري في بلد يقدر قيمة علمي.



(طلّ من الليل، قال لي ضوّيلي،

لاقاني الليل، وطفّى قناديلي)

أنتبه لصوت فيروز الخفيض الذي ينبعث من هاتفها  
فتشتني الكلمات قليلاً وأنا أشعر بمسحة الحزن التي لونت  
ملاحظها والتي غرست الخنجر المسموم في صدري أكثر، آه يا  
ضي! تعلمين، أود لو لم تكوني قد انغمستِ معي في هذا كله،  
لكن لا بأس، حريتك صارت وشيكة  
- أليست الأغاني حراماً؟!

أقولها بسخريتي الفظة عامداً لتلتفت نحوي بلجتها  
الصافيتين المترقرتين الآن بدموعها مع همسها:  
- أنا لا أسمع من الأغاني إلا هذه، هذه أغنيتنا أنا وأنت،  
صوت فيروز هو هويتي، وكلماتها هنا، لا أدري، أشعر وكأنها،  
تعنينا، لكن معك حق، سأغلقها أفضل.

يتوقف صوت الغناء مع تحمّج صوتك أنتِ، فأبتلع غصة  
في حلقي وأنا أقاوم ضمك لصدري، لا، لن أضعف من جديد،  
اغربي من حياتي يا ضي، جدي طريق خروجك من «سرداب  
الظلال» هذا بيننا واصعدي منبرك نحو النور الذي يليق بك،  
دعيني لظلماتي.

تقرّق فور وصولنا للجامعة عندما تلتقيك حبيبة في الفناء  
الخارجي، أتحرك مبتعداً عنك لأتوجه نحو مكتبي لكنني أقف

لأراقبك من بعيد، أراها تحتضنك فتستسلمين لدموعك لبضع ثوانٍ فقط قبل أن تهزي رأسك لتكلفي ضحكة وراء ضحكة كأنك تحفين عنها خبيثتك، يخلج قلبي بعنف وأنا أضم قبضتي جواربي، ليس أقسى من أن أدرك أن دواءك معي لكنه مسموم يا ضي، ألا تفهمين؟! ألا تعذرين!؟

أراقبك بالمزيد من جنون مشاعري التي زادتها الغيرة انقادًا وأنا أرى أحد زملائكم يتقدم ليضاحك حبيبة، كنت قد أخبرتني أنها متحابان وأنه يريد التقدم لخطبتها، لكنني وجدتها فرصتي لأتم ما انتويته وكنت أجن عنه.

أتقدم نحوكم بنظرات غاضبة لا أدعيها، فأنتزعك من بينها لأعود بك إلى مكنتي ثم أغلق الباب خلفنا، ترمقيني بنظرة خائفة لا أحتملها فأعطيك ظهري لأهتف بحدة عبر اتهاماتي الباطلة:  
- لا فائدة فيك، مجرد طفلة طائشة لا تتخيرين تصرفاتك،

ماذا يقول الناس عني وزوجتي تقف تضاحك زملاءها هكذا بصوت عالٍ دون حجل؟ لو كنت أحتمل سخافاتك داخل بيتنا فإذا عن خارجه!؟

- لم أكن أضاحكه، ثم إنك تعلم أنه...  
- اسكتي! لا أريد سماع المزيد، هو كان خطئي من البداية أن تزوجت فتاة تصغرنى عمرًا بالكثير ولا تفهم مسؤولياتي.

أهتف بها بما يقارب الصراخ ولا أزال أعطيك ظهري

وكانني أخشى ضعفي بمواجهة «لجتيك العابتين»:

- خطأ؟! تدعوه بـ«الخطأ»؟! إذن، تريد الآن إصلاحه.

تغمغمين بها مصعوقة رغم أن لهجتك تكاد تقسم أنك

تعلمين، تشعرين أنها النهاية، أجل يا ضي، هي النهاية.

- سأرسل لعمتك وأخبرها بقراري، يمكنك البقاء في بيتي

لو أردت حتى تعود أو تسافري إليها، لكنني لن أشاركك فيه،

كل حقوقك ستصلك كاملة والطلاق سيكون...

صوت الباب يفتح خلفي يجعلني أقاطع حديثي لأراك

تغادرين ثم تغلقين الباب خلفك دون أن تنظري إلي.

قلبي يخفق بخنون كمن خاض - لثوه - سباقاً عنيفاً،

هكذا؟! هكذا ببساطة ينتهي الأمر؟! ببساطة؟! عن أي بساطة

يمكنني التحدث وأنا أشعر كمن انسلخ عن جلده حياً؟! لا،

لا، لن أستسلم لهذا الوهن، أنا استأصلتك من حياتي يا ضي،

دون رجعة.

أعقد حاجبي بتصميم وأنا أغادر مكتبي لأتوجه نحو

المختبر، ساعات طويلة تعمدت زيادتها بالانهاك في أحد أبحاثي،

أغادر المختبر لأعود لقلعتي السوداء فأستقبل الحارس بسؤالي

عنك فيجيبني بحيرة أنك لم تعودي، الغضب يملؤني وأنا أحاول

تفسير عدم عودتك إلى هنا، إذن فقد قررت البقاء في بيت عمك،

لكن أئن تجمعي أشياءك؟! ماذا؟! تظنينني سأعود عن قراري؟!!

أصعد لغرفتي فأبدل ملابسي والغضب داخلي يستحيل  
لاشتياق قهرته قسرًا وأنا أضع وسادتي فوق رأسي، بقايا عيرك  
هنا تطاردني فأنزع عن الوسادة غطاءها وعن الفراش ملاءته،  
لأعود الاستلقاء، لا بأس، ليلتين وربما ثلاث وسأعتاد الوضع  
كما ستعتادينه، سبكين بضعة أيام في حوض صديقتك ومثلهن في  
حوض يافا، وبعدها ستعافين مني، كما سأتعافى منك.

الساعات الثقيلة تمزقني، رأسي يحن لموضعه فوق صدرك،  
قلقي عليك ينهشني كوحش ضار، لكنني أقاوم كل هذا بسلطان  
ظلامي القاهر، وأخيرًا صباح جديد يعلن أول انتصاراتي.  
لم أنم لكن لا بأس، اعتدت تقبل الخسائر، مكلمة صباحية  
من دياب تمدي بالمزيد من المعلومات عن مجدي، يعيش الآن  
وحده مع أمه بعد وفاة أبيه وانفصال زوجته عنه واحتفاظها  
بأولاده، وضع أكثر من مثالي لانتقام يليق بفعلته.

عقلي يشتعل بالمزيد من الخطط التي تلهيني عن حديث قلبي  
بشأنك، يوم ثقيل قضيته من جديد في المختبر، لأعود بعدها  
لقلعتي، ومن جديد أسأل الحارس عنك فيجيبني أن لم تعودني.  
أتردد قليلاً ليغلبني قلقي فأتناول هاتفني لأتصل بك لكنك لا  
تردين، إنها المرة الأولى التي تفعلينها، لكن ماذا كنت أتوقع مثلاً؟!  
ضحكة ساخرة مشبعة بمرارتها تغادر حلقي وأنا أتحرك  
نحو غرفتي التي صارت بعدك سجناً آخر، أعترف أنني أدمتتك

يا ضيّ، لكنني تعودت قتل رغباتي منذ زمن.

- إن لم تعودني لتجمعي أشياءك، فسأرسلها لك.

أبادر بإرسالها لك مكتوبة كأنني أقطع على نفسي طريق الرجوع، لكنني لا أتلقى منك ردًا، أحاول الاتصال بك من جديد لكن هذه المرة كان هاتفك مغلقًا.

أبدل ملاسبي لأسترق نظرة نحو خزانتك المجاورة، أفتحها لتعانق عيناى كل ما تركته من ثياب، قميصك الأبيض الذي منحنتني به مفايح أنوثتك ليلة زفافنا، أشباهه مما اعتدت ارتدائها في الأيام الأولى لرواجنا بألوان رقيقة تشبهك، ثوبك الفلسطيني الذي طرزته بإفء، ثم.. إسدال صلاتك.

تدمع عيناى رغماً عني فأكثر على أسناني بقوة، ماذا عسالك تصنعين الآن؟! تنامين على جانبك الأيمن كما تفعلين وأنت وحيدة أم تستلقين على ظهرك تخيلين رأسي يجاور خفقاتك؟! تشربين الحليب قبل نومك في كوب شفاف كما تحبين كي تستمعتي

بنقاء لونه؟! تمسطين شعرك فتذكرين كم كان يعجبني أم تقصينه عقاباً لي؟! تحدثين يافا عبر الانترنت فتروي لك حكاياها عن «أرض العزة» كما ترعم؟! تتناولين طعامك بهذه الطريقة الشهية المحبة للحياة؟! تبكين خذلاني لك؟! تدعين لي في صلاتك؟! تلعنيتني؟! تندمين على عاطفتك نحوى؟! تبأ! تبأ! سأجن بك يا ضيّ! سأجن!

أصرخ بكلمتي الأخيرة مسموعة وأنا أغلق باب الخزانة  
بعنف، أعاند نفسي بالمزيد من الجبروت وأنا أترك غرفتي لأخرى  
لا تنازعني فيها رائحتك ولا ذكرياتك، لكن هيهات.

صورتك وأنت تغلقين الباب بيننا بقيت عالقة في عيني حتى

أشرق صباح آخر، صباح مظلم دونك يا ضي.

في الجامعة أتوجه نحو مكتبي بجسد يكاد يهلكه إعياء سهر  
ليلتين متتابتين لأصطدم بحبيبة واقفة تضاحك زميلها ذلك،  
تجاهلتها لأمضي في طريقي، فلا ريب أن الفتاة الآن تلعنني  
مثلك بعدما علمت عما كان بيننا.

- دكتور يونس -

تستوقفتني بدائها فالتفت لتدهشني ملاحظها البشوش:

- ضي بخير؟ هاتفها لا يرد أو مغلق.

إذن فهي لم تعلم بعد.

أتنحج لأقول بخشونة:

- هي في بيت عمتها.

- بيت عمتها؟! بيت عمتها هدموه منذ أسبوع، جارتهم

قريتي وأخبرتني لكنني لم أبلغها خوفاً عليها.

تهتف بها باستغراب ليتوقف قلبي عن النبض للحظات قبل

أن أصرخ بها بهلع:

- ماذا تعنين؟! إذن أين ذهبت؟!

- لا أعرف، ماذا حدث بينكما إذا كنت أنت لا تعلم؟!  
دكتور يونس، توقف وأخبرني أرجوك.

صوتها يتقطع في أذني وأنا أتركها راکضاً نحو سيارتي، ضي!  
أين أنت؟! خفقات قلبي تتصارع حد الألم وأنا أحاول الاتصال  
بهاتفك من جديد لكنه لا يزال مغلقاً، ألعن نفسي ثم أهاتف  
دياب أطلب منه أن يتولى أمر البحث عنك في الفنادق القريبة  
وال... مستشفيات.

الخاطر الأخير يكاد يصيبني بالجنون فأغلق معه الاتصال  
لأتوجه نحو بيت ياقا، أو ما كان يوماً بيتها.  
أوقف السيارة لأترجل نحو الحطام الذي تبقى منه، هل  
وقفت هنا مكاني وشاهدت هذا؟!  
ONEPIECE

إذا كان المشهد خلع قلبي أنا فماذا فعل بك؟!  
- أهلاً يا دكتور، أرأيت ماذا فعلوا بالبيت؟! «منهم لله البعدا».

المعلم عطوة يهتف بها جواري فالتفت نحوه صارخاً بلهفة:  
- ضي؟! رأيتها؟!  
BOOKS

- كلنا لم نشأ إخبارها كي لا تحزن، خاصة أنها لم تأت هنا منذ  
سفر عمته، لكنها جاءت أول أمس ورأت المنظر، المسكينة انهارت.

- أين؟! أين ذهبت؟!  
أهتف بها وأنا أدور بعيني حولي باحثاً عنها ليرد الرجل

باستغراب:

- ظننتها عادت لبيتها، لبيتك، ألم تفعل!؟  
تدمع عيني بعجز وأنا أكاد أقتلع شعري من جذوره، ماذا  
فعلتِ بنفسك يا ضي!؟ بل ماذا فعلتُ بك أنا!؟  
- أيعقل أنها قد ذهبت هناك!؟

ألتفت نحو عطوة الذي يردف بانزعاج وقد راعه مظهري:  
- العمة يافا تركت لي مفاتيح غرفة كانت تسكنها جدة ضي  
لأمها، غرفة صغيرة في «بدروم» بيت قديم متهالك، لكن ضي  
كانت تجد فيها بعض رائحة أبيها رحمه الله لأنه مكث فيها لأيام  
عقب زواجه من أمها، لهذا لم أتعجب أن طلبت مني مفاتيحها  
أول أمس.

- أين!؟ العنوان بسرعة.  
تشوش المرثيات في عيني وأنا أعود لسيارتي أقودها نحو  
العنوان الذي ذكره، حي قديم بيوت تكاد تسقط بساكنيها،  
الجانب الأسود من العاصمة الذي كدت أنساه في عالمي الجديد،  
وأخيرًا يتبين لي البيت كما وصفه الرجل، يبدو أنه مهجور تمامًا  
حتى أن آثار قدميها الصغيرتين تبدولي على التراب المتكسب في  
الطريق لتلك الغرفة السفلية، هي فضلت المجيء هنا بدلاً من  
أن تشاركني بيتي بعدما قلته لها، لو كنت أملك أن ألعن نفسي  
أكثر لفعلت.

- ضي! افتحي.



أصرخ بها بأنفاس متلاحقة وأنا أطرق الباب بعنف، لكن الصمت المهلك يكون جوابي، وفي استجابة لجنوني أجدني أدفع الباب بكتفي بقوة عدة مرات تكفي لكسره، فأصطدم بجسدك الملقى أرضاً.

أصرخ باسمك بلوعة وأنا أتفقد نبضك ثم أحملك بين ذراعي لسيارتي فأقودها لأقرب مشفى.

- هل تعاني مشكلات في التنفس؟! ماذا حدث بالضبط؟!!

متى فقدت وعيها؟! متى تناولت طعامها آخر مرة؟!!

أسئلة الطبيب التي لا أعلم جوابها تسيل الجحيم في عروقي. عيناى تتجمدان فوق ملاحك أراقب محاولاتهم لمساعدتك كي تستعيدى وعيك.

لحظات تمر عليّ كدهر كامل وصورتك في عيني تتبدل، تارة بملامح جابر الذي قتله ضلالي القديم، وتارة بصورة نجية التي ماتت غاضبة عليّ، تراك تمنحيني جرحاً آخر يدهسني في قاع ظلماتي أكثر؟! لا تفعلها يا ضي، لا تفعلها وإن كنت أستحقها.

تفتحين عينيك أخيراً للحظة ثم تعاودين إغلاقها بإعياء، فأنكب فوق جسدك لأصرخ بجنون:

- افتحي عينيك، أنا أمرك، ستفتحينها رغماً عنك.

فضاظنتي تثير السخرية في موقف كهذا، وجسدي يعلن المزيد من تمردة بهذا الفوران الذي أشعر به يشعل دماغي، وأخيراً هذا الدفق للزج من دماء أنفي.

- يبدو أن الانفعال قد رفع ضغط دمك، قم معها حتى

تفحص...

يهتف بها الطبيب بقلق مشيرًا لإحدى مرضاته لكنني أصرخ  
به بالمزيد من الجنون:

- لن أتحرك خطوة واحدة قبل أن تفيق هي.

- لن تفيدها هكذا وأنت...

يهتف بها الطبيب بانزعاج ليقاطعه همسك أنت الحفيض  
بينما تفتح عينيك بمجهود بدا وكأنه خرافي:

- أنا بخير.

دفقة أخرى من دمي تغادر أنفي لكنني لا ألبالي سوى بالتعلق  
بعينيك الذابتين بينما ينتزعني الطبيب انتزاعًا من مكاني ليهتف بحدة:

- سأخرجك من هنا قسرًا، لن تدخل بمصيبة وتخرج  
بائنتين، اذهب مع المريضة وتفقّد حالتك ثم عد.

- لن تتحركي خطوة من هنا قبل أن أعود.

أصرخ بها بتشوش - فضح أعظم مخاوفي الآن - مخاطبًا إياك  
ومتجاهلاً الطبيب الذي دفعني ببعض العنف نحو الخارج،

خطواتي تترنح لبضع ثوانٍ تميد فيها الأرض تحتي فلا أكاد أشعر  
بشيء بعدها، هل فقدت وعيي أنا الآخر؟! هل استعدادته؟! هل

ارتفع ضغط دمي حقًا حد الخطر؟! هل انتظم من جديد؟! \*

لا يهم، كل هذا لا يهم، ما يعنيني أنني الآن أجلس فوق  
فراشك من جديد في المشفى، أتشبث بأناملك، أطارد ملامحك

بينما تسبلين جفنيك هاربة من نظراتي، لكن حنانك يغلبك

فترفعين عينيك نحوي هامسة بصوت لا يزال يعاني إعياه:

- أنت بخير؟!!

- أنت بخير؟!!

لم أكن أسألك، بل كنتُ أجيبك يا ضي، كوني بخير وستصبح  
الدينيا كلها بخير.

تفهميني كعهدك فتكلفين ابتسامة تضحني مع كلماتك:

- لهذا قلت لي ليلة زفافنا أن أكون قوية بك أو بدونك، كنت

تحسب حساب يوم كهذا.

أشبح بوجهي هارياً من تلك النظرة في عينيك بينما يزداد كفي

اعتصاراً لأناملك فتأوهين بخفوت ثم تقولين بالمزيد من التصنع:

- صرتُ بخير.

- ماذا حدث بعد أن تركتني يومها؟!!

- لا أذكر الكثير، ذهني مشوش، لا أتبين سوى صدمة

رؤيتي لحطام بيت يافا، عودتي لغرفتنا القديمة، صورة معلقة

على الحائط لأبي وأمي ليلة زفافهما، رائحة التراب الخانقة مع

ظلمة المكان، ثم تلاحق أنفاسي، ثم...

يغص حلقك بما تبقى من كلماتك فتكلفين ضحكة شاحبة

مريرة ثم تحاولين سحب كفك مني:

- ربما أنا طفلة مدللة كما زعمت أنت، طفلة لم تعد

الصددمات.

ألثقت نحوك بحدة وأنا أتشبث بكفك أكثر ليروعي جريان

دموعك الصامت.

- دعني فقط أهاتف عمتي، لم أحدثها منذ يومين، لا ريب

أنها قلقة عليّ.

أريد الحديث لكن كلماتي تموت على طرف لساني، يذبحها  
ندمي وعجزي ووجعي، أريد معانقتك لكنني أشعر بدنسي  
يصرخ بي ألا أستحقها، أريد تقبيل ملامحك كلها لكن الذنب  
يكبل شففتي.

أزرد غصة حلقي لأناولك الهاتف فتصلين بيافا:

- أنا بخير يا عمتي أقسم لك، سأتيك قريباً كي تطمئني عليّ  
بنفسك.

لم أكد أسمعها حتى جذبت منك الهاتف بعنف لأرمقك  
بنظرة مشتعلة ثم أكمل أنا المحادثة لأخبر عماتك أنك ربما تحلمين،  
تضحك يافا بعض القلق لتسألني عنك فأجيبها - وكانني أتحدث  
بغير لساني - أنك بخير، ستكونين دوماً بخير... معي.

أغلق معها الاتصال لأصطدم بنظرتك الغاضبة، ربما هي  
المرّة الأولى التي أراك فيها غاضبة بهذا الشكل:

- ماذا فعلت؟! بل ماذا تفعل؟! تظنني سأنسى ما قلته؟!!

تظنني سابقى معك فقط لأنك تشفق عليّ حالي؟! أفهم أنك ربما

لم تحبيني، لكن ألم تفهمني بعد كل هذا الوقت؟!!

- وهل فهمتيني أنت؟!!

أغمغم بها بقنوط منكساً رأسي بل كياني كله، لتجيبني

نبرتك المنفعلة:

- نعم! «الطفلة» فعلتها يا يونس! «الطفلة» تقبلت كل

خوفك من ماضيك، «الطفلة» حاولت أن تخرجك من السجن

الذي حبست نفسك فيه، «الطفلة» كادت تجد لنفسها مكاناً في كهفك المظلم لكنك لفظتها منه، وآخر ما يمكنها فعله أن تبقى معك وأنت كاره.

- أنا، أحبك!

تبا! هل قلتها حقاً هذه الكلمة؟!؟

تغادرنى كشعاع نور يخلق متمرّداً عاصياً مثلث ظلماتي، تتسرب من بين أنفاسي قسراً كأنها تعاند جبروت كتباتي، تحترقني قبل أن تحترق كمعجزة، معجزة لم أكفر بها كما فعلت بسواها. كلمة بدت وكأنها تتحدى كل مخططاتي، لكن هل بقي لي حقاً من خيار؟! بعدما تدوّقت علقم خسارتك لدقائق كادت تقتلني، فكيف أرعم أن بعدك عمراً قد يُعاش؟!؟

- الآن تقولها؟!؟

تهمسين بها بوجع يشكو صمتي عنها طوال عهد علاقتنا، وجع يستبيح المزيد من دموعك لكنك تبقيين نظراتك متشبهة بعيني كأنها تطاردين بقايا سراب اعترافي، فلا أجيبك سوى بأهة خافتة تكاد تهوي برأسي فوق صدرك، لكن..

- لماذا تبعدي يا يونس؟!؟

- لأني.. خائف.

أهمس بها بخفوت يقارب الصمت وأنا أترك كفك لأقف مكاني معطياً إياك ظهري، لكنني أشعر بأناملك تشبث بي، تهمين بمغادرة الفراش فأثبتك مكانك ثم أعاود جلوسي لتعتلني نظراتك فتجبرني على المواجهة:

- خائفٌ مني؟! أن أخذلك كمن سبقني؟! خائفٌ من نفسك؟! أن تخذلني أنت؟! خائف من الظروف؟! أن تفرق بيننا رغمًا عنا؟! كل هذا الخوف - وأكثر - أعيشه مثلك كل يوم، كل ساعة، أكاد أنتفسه مع كل شهيق، ومع هذا لم أفقد إيماني بك، ربما هذا هو الفارق بيننا، أنا مؤمنة بك.

- وأنا لم أعد أو من بشيء.

أصرخ بها بعمة ظلمتي فتجفلين قليلاً لكنك تعاودين

الاقتراب، تمزجين أنفاسك بأنفاسي لتهمسي بينهما:

- أنت تحبني يا يونس، والحب مرادف الإيمان، توأمه الحميم

الذي لا يتفصل عنه، فكيف تزعم أنك لم تعد مؤمناً بأي شيء؟!!

- أنت لا تفهمين، أنا.. أنا.. غارقٌ في قاع ظلمتي.

- وأنا.. بصي.

تهمسين بها كنوءة فكان الشمس تشرق بين شفطيك، ترفعين

ذراعي فتخلعين عني ساعتِي التي أداري بها بقعة معصمي

البيضاء والتي تناقض سمرة بشرتي، هذه التي لامسها ثغرك

بقبلة خفيفة:

- أعلم أنك تداريها حجباً من مظهرها الغريب، لكنني

أحبها، أرى فيها بشارة.

تهمسين بها بلكنتك الشامية التي تشي بانفعالك الجارف ثم

تعيدني إلياسي ساعتِي إنما في معصم اليد الأخرى:

- لا تخفها يا يونس، في كل مرة تشعر أنك تخجل منها فكر

أنها تذكرك بي.

أطلع لـ «لجتيك الصافيتين» كالمسحور شاعرًا أنني أغتسل  
بنهر براءتك رغماً عني، لتنتقل نظراتي بينها وبين بقعة معصمي،  
أتذكر اللوحة الزيتية فوق خزانتي السرية، أتذكر بصمتي التي  
لطختها وقول نجية «جعلك الله في قلب العتمة الضي»، فلا  
أدري هل أنتسم ساحراً أم أنزوي باكيًا، لكن صدركِ يحتويني  
على أي حال.

أدفن فيه رأسي تاركًا شرح حالي لحدسك الذي لا يجيب  
فيضمني ذراعك بقوة تجعلني حقًا أتساءل من منّا يحتاج الآخر  
أكثر؟! من منّا الغريق ومن طوق النجاة؟!  
- ستعودين معي؟! -

يرتجف بها صوتي وقد عاد سلطان ظلماتي يجذبني لدوامته،  
أنتظر جوابك وأخشاه.

- لو عدتُ فلن أسمح لنا بفرقة أبدًا.

- لو عدتِ فلن أسمح لنا بفرقة أبدًا.

تقولينها بحسم عاشقة وأقولها بتملك طاعية، تقولينها  
فتشبهك واعدة، وأقولها فتشبهني متوعدة، تقولينها كبشري

مؤمن وأقولها كلعنة كافر، فكم بيننا؟! كم بيننا؟!  
فقط تذكري عندما تمين اللحظة الحاسمة أنني فتحت  
للعصفور باب القفص لكنه أثر سجن عشقه على حريره دونه.

\*\*\*

\* ضي \*

\*\*\*

- أنا أعد الإفطار يا يونس.. حالاً.

أهتف بها داخل المطبخ بينما أسمعه يناديني من الخارج  
ثم أبتسم وأنا أضغ لمساتي الأخيرة، إفطارنا يشبهنا، منتهى  
التناقض، «المناقيش بزيت الزيتون» و«القول بالزيت الحار» لي،  
بينما يصير هو أن يكون إفطاره من تلك المعلبات الأجنبية زاعماً  
أنها تذكره بفترته الذهبية التي عاشها في إيطاليا.  
- صباح الخير.

يهمس بها خلفي وذراعاه يطوقان خصري بهذه الطريقة  
المتملكة التي ازدادت رسوخاً منذ أزمنا الأخيرة، يا الله! لا أريد  
تذكر ما كان وقتها، بشاعة إحساسي به وهو يلفظني من أرضه،  
شعوري بالضياع عندما رأيت حطام بيت يافا، عودتي لآخر ما  
بقي لي من رائحة أبي، ثم مواجعتنا الأخيرة بالمشفى واعترافه  
الأول لي بالحب.

لا تزال لغزي العصي يا يونس، أفهم فداحة ما مررت به،  
أشعر بغصة حلقك لكنك لا تزال تتوارى خلف سدود كتفانك،  
لم تكمل لي الحكاية أبداً، لم تخبرني كيف صارت حياتك بعدما  
كان، لم تحدثني عن كفاحك الذي أوصلك لهذا النجاح، ألا  
تفخر به؟! \*

لكن ما يدعوني للارتياح هو هذه الغيمة الوردية التي



تظلل علاقتنا منذ ذلك اليوم في المشفى، اهتمامك بي صار يقارب  
الهوس، أعرف أنك أنقذت حياتي حرفياً يوماً، ربما هذا ما جعل  
مشاعرك تطفو على السطح هكذا دون محاذير.

- موز «بلا لا يكا»؟! من أين أتيت بهذا؟!

تسألني بنبرة غريبة عن حبات الموز مميزة الشكل بصغر  
حجمها وانفاخها نسبياً عن المعتاد، لألتفت لك ضاحكة:

- زوجة الحارس بالحارج مرت به منذ أيام تحمل له بعضه،  
عندما رأيته كدت أجن، أحبه كثيراً منذ طفولتي لكنه لا يتوفر  
بسهولة إلا لدى المزارعين، المرأة أصرت أن تحضر لي بعضه بالأمس.

«شبه ابتسامتك» الشاردة تظلل ملامحك وعيناك تزوغان في  
الفراغ فلا أحجاج كثير ذكاه لأتمتم بخفوت خشية مقاطعة ذكرياتك:

- تذكرت والديك؟!

- نجية كانت تحبه، كان جابر يصر أن يحضره لها في موسمه،  
لم يقل لها يوماً أنه يحبها كعهد رجال قريتنا، لكن كل أفعاله كانت  
حبا، تعلمين؟! أول عمل امتهنته في حياتي عندما كنت طفلاً

في قريتنا في أحد الغيطان، جعلت أجرة اليوم كله هذا «الموز»

لأجل.. أمي.

- أمي؟!!

أهمس بها بحذر وقد انتهت منذ عهد بعيد أنك تنادي  
والديك باسميهما، فتمتزج «شبه ابتسامتك» بدمعة متحجرة في

ليل عينيك:

- وقتها كانت أمي.

- يونس.

أهمس بها بعذاب مدركة ثقّل الذنب الذي تحمّله لنفسك،  
لكنني لا أزال أشعر بالمزيد من حواجز أسرارك فأكاد أسألك  
عن المزيد لكنك تبادرني بقبلة جامحة تحرس بها ما تبقى من  
أفكاري، ثم تهف بنبرة بدت وكأنها تخلصت من شجن الماضي.

- جائع.

- حالاً.

نتشارك الإفطار بمرح صار يغلف أحاديثنا، كأنني أكتشف  
منك هذا الجانب لأول مرة، تحفظك يخفي رويداً رويداً وأنت  
تحكي لي عن بعض مغامراتك في إيطاليا، عن حياتك هناك وكيف  
تعرفت على دياب، عن بعض أساتذتك هناك وعن أهم أبحاثك.  
- بمناسبة أبحاثك، أخبرني عن آخرها لعلّي أكون تلميذتك  
النجية.

ترتجف شفقتك قليلاً لتهرب بعينيك مني:

- نظرياً بحثي الأخير خطير نوعاً أفضل أن أبقى بعيدة  
عنه، لكن عملياً هناك بحث آخر لم أشارك فيه أحداً، ولا أمانع

أن تكوني شريكتي فيه.

- حقاً؟!

أهتف بها بفروحة لترد بحماس:

- هيو لان.

تسع عيناى بانهار وأنا أسمعك تحكي لي تفاصيل حلمك  
بحماس ينتقل منك إليّ، حلم؟! هو حقاً حلم مستحيل يا يونس.

لهذا أضحك باستغراب هاتفة:

- أشعر أنه خيال.

- كل ما حولك كان يوماً ما خيالياً، أعرف أن «هيولان» هي

جنوبي الخاص، لكنني أعشق التحليق في سماء الجنون.

- إذآ.. أحلق معك.

أهتف بها داعمة وأنا أشد بقبضتي على ساعدك فتمنحني

«شبه ابتسامتك» ثم تغادر المائدة وقد سمعت رنين هاتفك برقم

دياب لتضطرب ملامحك قليلاً، تفتح الاتصال وتبتعد عني قليلاً

ثم تعود بملامح جامدة لتهتف بعجلة:

- اعتني بنفسك، لا تنتظريني ليلاً فقد أتأخر.

- بل سأفعل، ولن تنام إلا بين ذراعيّ ككل ليلة.

يزداد اضطراب ملامحك لسبب لا أعلمه لكنك تداري هذا

بإبغاء رأس قبل أن تغادري بخطوات شبه راکضة.

أتهتد بحرارة وأنا أرفع الأطباق لأعود للمطبخ، أشرد

فيك كعهدي شاعرة بأن قلبي منقبض لسبب لا أعلمه، أفكر

أن أهاتفك لكنني أراجع، طالما تعاملت معك تعاملي مع حقل

الغام أي خطوة طائشة فيه قد تطيح بنا معاً.

لهذا أحاول الاتصال بيافاً لعلني أثرثر معها كعهدنا، لكن

هاتفها ظل مغلقاً لما بقي من ساعات النهار.

انقباض صدري يزداد لكنني لا أريد الاستسلام لنوبة

أخرى من نوبات هلعي، أقرأ وردي من القرآن ثم أشرد من

جديد رغماً عني فيك، لم أرك يوماً تصلي، حاولت سؤالك

لكنك تفعل الشيء الذي تجيده دومًا؛ الهروب، أعلم أن ماضيك قد ترك نديته في قلبك وأعلم أن خذلانك من ذلك الشيخ قد جعلك تنتكس، لكنني كذلك أعلم أن من مثلك لن تعيده بضع كلمات لرشده، لهذا أرفع كفيّ بالدعاء من جديد لك، قلبي لم يكذبني يومًا يا بونس، قلبي الذي يوقن أنك - وإن كنت غارقًا في ظلامك كما تظن - لكن جذوة النور بداخلك لم تنطفئ، هي فقط تنتظر من يزيح الستار عنها ليعود لها بهاؤها، وسأفعلها، لن أبرح حتى أبلغ.

أنتهي من دعائي فأسمع صوت عودتك، أمشط شعري كما تحبه ثم أهرع إليك لكنني أصطدم بملائك المتجهمة.

- ماذا بك؟!

- لا شيء، ذهني مشغول، سأبقى في مكنتي، لا تحدثيني هذه الليلة.

تقولها بفظاظتك التي تقلقني أكثر مما تثير ضيقي، ربما لأنني أعلم أنها ليست سوى قناع لوجعك، أتردد في التقدم نحوك لكن باب المكتب المغلق يفصل بيننا.

القلق يعصف بصدري أكثر فلا أدري هل من الصواب أن ألح عليك بسؤالي أم أترك لك - كعهدي - محذاف قاربنا توجهه حيث تشاء؟!

أصعد لغرفتنا لأحاول التواصل مع يافا من جديد لكن اتصالاً من رقم إحدى جاراتنا هناك يصلني، ليبلغني بالفاجعة!  
- استشهاد يافا ونضال وأسرته في غارة يهودية على غزة.

- لا! لا.

صرختي تحتق في حلقي فلا تصل للساني، تعتمر ما بقي  
من خفقاتي، قتلوهم؟! قتلوهم كما قتلوا أبي؟! يافا رحلت،  
رحلت ولن تعود! هكذا؟! هكذا دون وداع؟! دون أن أراها  
ودون أن أشهد جنازتها وأزور قبرها؟! يافا.

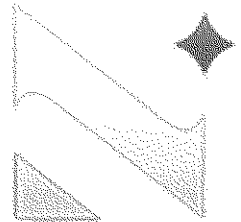
صرخاتي المكتومة تنفجر داخلي كشظايا، أشعر أنني  
سأسقط مكاني، لكنني أهرع إلى الأسفل بخطوات متعثرة نحو  
مكتب يونس.

أنا ملي المرتحفة تم بطرق الباب، ليصلني صوته المنفعل من  
الداخل مخاطبًا أحدهم:

- بضع أسابيع فقط يا مختار وسأكون عندكم ريثما أنني ما  
تبقى من شئوني، أنا بدأت إجراءات استقالتي من الجامعة، لا  
تقلق.. اتفاننا كما هو، سأترك هذا البلد نهائيًا وأستقر عندكم  
في إسرائيل.

\*\*\*

BOOKS



## (الظلمة التاسعة)

### لا عليًا ولا يبا

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

أراقب جسدها المتشدد في وقفته خلف نافذة غرفتنا، لاتزال على حالها هذا منذ سبعة أيام بدت لي وكأنها دهر كامل، صامتة إلا من دموع تسكب حسرتها، لا ألومها وقد سمعت بأذنيها حقيقتي، هوت معي في قاع ظلماتي دون سابق إنذار، ومتى؟! في نفس الوقت الذي وصلها فيه خبر استشهاد يافا وعائلتها! هل أزعم أن الخبر لم يهزني أنا الآخر؟! هل أزعم أنني أحببت يافا رغم قصر عهد علاقتنا؟! لكن.. هذا العالم ليس ليافا ولتنجية وجابر، هذا العالم لمن مثل قمر وغريب ومجدي و.. مثلي.

مجدي! لا زلت أذكر ليلتها عندما رأيته مع أمه يجز كرسياها المتحرك في الشارع، ضحكته التي كان يشاركها إياها وهو يربت على كتفها قبل أن يضع شالها الصوفي ليدفئها به، عيناى تجمدتا هناك، الشال فوق صدرها يذكرني بقدمه هو فوق صدر جابر، عيناى تشتعلان بقسوة الذكرى فلا أشعر بنفسى وقدماي تحملانني نحوهما، لأتوقف أمام كرسي المرأة التي ترمقني بنظرة

متوجسة، لكن عينيّ كانتا مسلطتين على عيني مجدي الذي عقد حاجبيه بدهشة للحظة قبل أن تلتمع عيناه بقسوة ساخرة لا تزال تحتل نظراته، لقد تذكرني إذاً.

- دكتور يونس! كنت أنتظرِكَ منذ مدة يا رجل، علمت عن «هديتك» التي أرسلتها لـ «قمر» و«غريب»، وتوقعت أن تصلني مثلها منك في أي لحظة.

كززت على أسناني بقوة كادت تحطمهما، الحقر يعلم، يعلم ويستهزئ بي، يظنني ذلك الفتى الذي سحق هامته منذ سنوات، لكنني لن أراجع عما اتوَّيته.

- والدتك تبدو طيبة، اعتمِن بها.

ترفع المرأة إليّ عينين حذرتين وقد بدت عبارتي على عكس ما تحمله من ود، لتشتعل نظرات مجدي بالمزيد من قسوته الساخرة: - لا تقلق، أجد الاعتناء بها، لست كغيري.

الوغد لا يزال يجيد تصويب سهامه المسمومة، لو كان الخيال

يقتل لكان الآن ملقياً كجثة مضرجة بدمائها، لكن ليس بعد، ليس قبل أن أذيقه مرارة ما فعل بي، العين بالعين والبادي أظلم.

- لو كنت أنهيت كلامك فتنجّ من الطريق، أمي تمام مبكراً.

يقولها بسهاجة متحدية وأنامله تتحسس جيبه في حركة ذات

مغزى، لكن نظرتي تحمل له ما يفوق فتك الرصاص، أتحنى من

الطريق فيضحك ضحكة مكتومة وهو يسير بكرسي المرأة نحو

مدخل بنيته، لكنه يلتفت نحوي أخيراً قائلاً:

- دور «كونت دي مونت كريستو» هذا لا يليق بك،  
الصعلوك لن يصير ملكاً، والحصاة لن تكون نجمة، لو كانت  
نصيحتي القديمة قد أفادتك فهالك الجديدة، اترك هذا البلد  
لأسياده وعد من حيث أتيت.

سأعود يا مجدي، سأعود، لكن ليس قبل أن أذيقك حرقة  
قلب تشبه خاصتي.

- يا فافا!!!!!!

صرخة ضي المفاجئة ترحني مكاني لتتروني من ذكرى تلك  
الليلة، فأهرع نحوها لأضم جسدها المرتجف ببكائه، لكنها تدفني  
عنها بقوة كعهدا طوال الأيام السابقة، تضرب صدري بقبضتيها،  
ثم تنتقل ضرباتها لصدرها هي، تنفج شفاتها كأنها على وشك  
الحديث، لكنها تبدو كئائفة فقدت كلماتها فاستبدلتها بالصرخات.

- اهدئي يا ضي! افهمي!

أصرخ بها بلوعة محاولاً احتواء مقاومتها، لكنها تستمر في

صرخاتها المتقطعة التي تكاد تصيبني بالجنون.

- اسمعيني، فقط اسمعيني، طالما كنت تميدين فعلها.

صراخي الراجي يبدو وكأنه قد وجد مرفأه على بحر حنانها  
المعهد، فيرتخي جسدها بين ذراعيّ وصراخها يتحول لنشيج  
خافت، أدفن وجهي في تجويف كتفها بينما أعتصرها بين ذراعيّ



كاننا أخشى تسربها مني، لاكشف اللثام أخيراً عن تاريخي  
الأسود كله.

أحكي، وأحكي.

هأنذا أحكي لك يا ضي، أعري لك يونس بكل سوءات  
ماضيه، بكل عذابات حاضره، وبكل ضبابيات غده.

صمتي أخيراً يقابل صمتك فيرتعد قلبي في انتظار ردك، أحد  
الجرأة أخيراً لأرفع عيني نحوك فتواجهني «جنتك الزرقاوان» لا  
صافيتان كالعادة بل كدرتان غائمتان، شفئك تتحركان بما بدا لي  
كمعجزة بعد طول صمتك.

- تدري لماذا أحببتك منذ أول مرة رأيتك فيها ١٩

أناملي تتلمس سلسلة عنقك في جواب غير منطوق، لكنك  
تفضين كفي عنها بعنف غريب على طبيعتك.

- ظنتك مثله، روحك تشبهه كما ملاحك.

حسرتك تنسكب بين حروفك فتشعل المزيد من النيران في

ظلماتي.

- أنا تفهمت كل عيوبك، سذاجتي جعلتني أظن أن حبي

سيكون ضي ظلماتك، لكنني الآن لا أراك إلا وأجد صورة يافا

حائلاً بيننا، دمها يلوث كفيك حتى ولو لم تره أنت.

- لا تتحدثي هكذا كالبلهاء.

أصرخ بها بشورة وأنا أرجك بين ذراعيّ مردفاً:

- لا خيار يا حمقاء، في هذا الزمان لا خيار، إما أحياء وكفي في كفهم أو أموت وقدمهم فوق صدري.
- الخيار في كل زمان يا «عبقري»، إما نحيا ونحن نقاتل بشرف المؤمنين، أو نموت ونحن نرتجي جنة الخالدين.

ضحكتي العصبية الساخرة تقاطع كلماتك فتنفضين ذراعي  
 عنك لتبتعدي هاتفة بمزيج غريب من قوة ووهن:  
 - سأمنحك آخر فرصة للاختيار، إما أنا أو ظلماتك.  
 - الاختيار؟! تظنين أنني أو أنتِ نملك حقاً الاختيار؟!  
 قسوة نبرتي تبذر الخوف في نظراتك فيتعددين بظهورك  
 لأقترب أنا مردفاً بنبرة أكثر سواداً:  
 - منحتك فرصة الخروج من كهف ظلماتي من قبل فرضتها،  
 والآن لم يعد لك خيار، أنتِ ستبقين معي شئت أم أبيت.  
 عيناك تتسعان بدعر وعيناوي تدمعان بعجز يناقض كل هذه  
 القسوة التي تظلل حروفي، لم يعد بوسعي تركك يا ضي، لمن  
 أتركك؟! وكيف؟!  
 أراكِ تركضين فجأة نحو الباب المغلق تهمين بفتحه فألحقك

لأقيد حركتك، صرخاتك تعلو من جديد فأشدد من قوة ضمتي  
 لكِ بما هو ظاهره القسوة وباطنه الخوف.  
 - طلقني، واذهب حيث شئت.  
 - لا أفعلها وفي جسدي عرق ينبض، لا خلاص لك مني  
 إلا بموت.

- إذا..

ترفعين كفيك كأنها تهمين بالدعاء عليّ بالموت فينقبض قلبي  
جزعاً.

لكن حروفك تنقطع فجأة وأنت تخفين دموعك بين كفيك  
بينما تهزين رأسك بعجز يشبه عجزني.

أخفف ضغط ذراعي حولك فترفعين عينيك نحوي من جديد.  
خوف، ثم احتقار، عتاب، شفقة، رجاء، رجاء يقابله  
عجزني فينقلب لانتفاضة.

انتفاضة تنتهي برفعك لمعصمي، صوت شيء ما رجاعي  
يتكسر، لأنّته لشظيتك فوق «بقعي البيضاء»، تشيرين إليها  
بأنامل مرتجفة تناقض قسوة عبارتك:  
- لا تستحقها.

الأم يحتاجني من نظرتك بأكثر مما يفعله جرحك، عينك  
تتسعان للحظة من مرأى الدم كأنك لا تصدقين أنك فعلتها،  
صرخاتك تتزامن مع اعتصار أناملك المرتجفة لمعصمي فلا أدري  
هل تزيدين وجعي أم توفقين نزفي.

تسقطين على ركبتيك أمامي فلا أقوى على المزيد من  
مواجهتك، أغادر غرفتك فأغلقها خلفي بالمفتاح، ثم أنادي  
الخدّامة فأمرها ألا تغادرك وألا تغادري أنتِ غرفتك معها حدث.  
صرتِ سجيناً مثلي يا ضي، كلانا صار أسير ظلماتي.

أعالج جرح معصمي بنظرات شاردة، إنها المرة الأولى التي  
تؤذنيني فيها يا ملاكي، لا ألومك، ليت شظيتك نالت قلبي ليتهاي

عذابنا معاً، ما بيننا تشوه للأبد، لكن منذ متى لم يكن كذلك؟!  
صوت هاتفي يعلو برقم دياب فيختلج قلبي بعنف الترقب،  
عيناى تشتعلان والخبر يصلني منعشاً، وقابضاً.  
هاهى ذى أولى محطات انتقامى من مجدى.

لم أدرك كيف غادرت قلعتى السوداء نحو المكان الذى يشظرنى  
فيه دياب، والذى لم يبذُ راضياً تماماً عما نفعله، لكننى لم أكثر  
لهذا وأنا أفتح باب المخزن القديم الذى يجرسه رجال دياب،  
أتقدم ببظء نحو الكرسي المتحرك الذى تعتليه المرأة العجوز،  
أواجه عينيها المعصوبتين بحاجبين منعقدين، أسمع رجاءاتها  
المتوسلة تارة وتهديداتها الرجسية تارة فتوه منى كلماتها وسط  
لهيب الذكرى، قدم مجدى فوق صدر جابر الميت.

أتقدم منها أكثر لأنحنى جالساً فوق ركبتى أمامها، المرثيات  
تشوش فى عيني فلا أميز سوى لون الدم، دم جابر، دم يافا، دمي أنا  
بعد جرح ضيى، عجلة أدارتها قدم واحدة، وحان وقت القصاص.

أشعر بدياب يقترب محذراً فأرفع إليه عينين مشتعلتين  
ولا يزال صراخ العجوز يدوي فى أذنى فيزيد نشوة الانتقام فى  
عروقي، أناملى تقترب من عنقها أكثر فيعلو صوت صراخها،  
لكن صوتاً آخر يزاحم، صوتاً من الماضي، صوت جابر.

- الرجل لا يترك ناره، لكنه لا يأخذ واحداً بذنب آخر.

فأجيبه صامتاً كأنه يسمعني:

- هو أخذك دون ذنب.

- لا شأن لي به، أنا أكلم ابني، ابني يونس.

لقد سمعته، أقسم إني سمعته، سمعته يقول إني ابنه، هل  
تعنيها حقًا يا جابر؟! لا تزال تراني ابنك؟!!

كف دياب يحط على كتفي فأنتفض مكاني واقفًا، أتلفت حولي  
بذهول كأنني أبحث عن طيف جابر، هل أصابني الجنون؟!!

أغادر المكان بخطوات راكضة فيلحق بي دياب ليواجهني  
بملاحة القلقة والصمت بين عينينا يغنيه عن وصف حالي.

- لن تؤذيها يا يونس.

- سأقتلها كما قتل أبي، ولن أنال عقابًا مثله.

- لن تستطيع.

- وكيف استطاع هو؟!!

أصرخ بها بكل ما أوتيت من غضب وعجز ليزفر هو مطرقًا  
برأسه ثم يرفعه قائلاً بحسم:

- أنت لست هو.

صمتٌ ثقيل يسقط بيننا تظله ضبابات أطيا في من معسكر  
اليسار؛ قمر، كامل، غريب، مجدي، يقابله معسكر اليمين؛ جابر،

نجية، يافا، ضي، كلهم ينتظرون قراري.

- أعدّها سالمة وتولّ الأمر.

أهمس بها أخيرًا كـ«رصاصه رحمة» فيبتسم داعيًا وهو يريث  
على كتفي لأردف أنا بحزم:

- لكنني لن أترك ثأري منه هو.

- حقا.

يقولها بنظرة تجدد العهد بيننا فأتركه شاعرًا بقواي كلها

خائرة كأنني خرجت لتوي من سباق طويل، لا أدري كيف  
سيتصرف مجدي بعدما كان؟! وماذا يخبرني لي في جعبته؟! لكنني  
أتق أنني سأخرج من كل هذا فائزًا، سأترك هذا البلد كله خلفي  
بعدهما أشرب كأس انتقامي كاملاً، لا أريد منه سوى ضي، أجل  
ستأتي معي برضاها أو رغماً عنها.

أدور بسيارتي بعدها في الشوارع لساعات لا أدري عددها،  
أعود لقلعتي السوداء فتقودني خطواتي نحو مختبري البسيط في  
الدور السفلي، أتمس الصندوق الزجاجي حيث يسبح القنديل  
المشع بلونه الأبيض فأرفع معصمي المصاب وقد غطت الضمادة  
الطبية بقعتي البيضاء، لكنني أراها من خلفها تتحرك مثل  
القنديل، تهز محسناً المشعة لتصب نورها في دمي، هيولان!  
كم أحتاج عالمكم، كم أحتاج حياة تلو حياة أعيشها دون  
خوف من هلاك أو هرم! ومعني ضي!

اسمها يشعرني إلى أي حد افتقدتها لكنني صرت أخشاهها، أعلم  
أنني أخفقها بين كفين يكادان بتضرعان إليها ألا ترحل كمن رحلوا.  
أعادر المختبر نحو غرفتنا التي أفتحها لأميز جسدها النائم  
تحت غطاء يغشاه كاملاً، أقرب بخشية لأرفع الغطاء فتتلقفني  
المفاجأة، إنها مجرد وسادة!  
- ضي!

أصرخ بها بجنون وأنا أتفقدتها في كل شبر من البيت، لكن  
الحياة تصب نصيبها في كأسني، لقد هربت!

\*\*\*

\* ضي \*

\*\*\*

الخدلان، فليقولوا ما يقولون عنه، سلوني أنا التي ذاقته بأقسي ما يكون، كغيمة وقف تحتها القلب راقصًا منتشياً يرحو المطر، ليرجفه رعدًا ويعميه بوقها فلا يتبه إلا والسيل الغادر يغرقه.

أجل، أغرقني سبيلك يا يونس، مهما ظننت أني استطعت النجاة. أضم ذراعِي حولي وأنا أتوجه نحو باب الغرفة الغربية علي لأؤكد من مزلاج المعلق، لم يعد يمكنني منح ثقتي لأحدهم فمن يلومني؟! أسبوعان كاملان مرّاب هنا منذ هربت من بيتك، ولا أدري إلى متى سأملك هنا لكن.. ما البديل؟!.

يونس، معشوقتي وجلادي، ها قد غادرت قلعتك رغماً عنك، فهل أشعر بالتشفي فيك أم بالشفقة على حالك دوني وأنا أدري منك بقيمتي عندك؟! كيف أصف خيبتني، وجعي، خوفي منك وعليك؟! كيف أردك عن طغيانك وقد سلمت زمامك لشيطانك؟! وكيف أكذب زاعمة أني كرهتك برغم كل ما كان؟!.

ألا أزال أجد لك في جحيم ماضيك عذراً لانحراف مسارك؟! نعم، ربما لهذا تختلط لعناتي عليك بشفتي نحوك وبينهما يقف قلبي حائراً.

صوت هاتفي - الحديد - يقاطع نرف أفكارني فالتقطه ليصنني الصوت الوحيد المؤازر الذي صرت أعرفه في هذا العالم:  
- تحتاجين شيئاً؟!.

أبتسم ساخرة من سداجة السؤال، هل يملك أحدهم حقاً  
منحي ما أحتاج إليه؟!

أشكر الرجل بفتور ثم أغلق الاتصال لأتوجه نحو زاوية  
الغرفة أؤدي صلاتي التي ما عدت أجد في سواها سلواتنا، أختمها

بالدعاء ليأفا وعائلتي ورغماً عني أتمنى لو يعجل الله لقائني بهم،  
لساني يغافلني بالدعاء باسمك كما اعتدت في أدبار صلواتي  
فأنخرط في البكاء وأنا لا أدري هل يجوز حقاً الدعاء لمن هو  
مثلك؟! هل لا أزال أرجو منك عودة عبر سراديب ظلماتك؟!

النوم يغلبني مكاني فألتمس السكينة في موضع سجردي،  
أرى يافا مع نضال وعائلته يشبكون أكفهم معاً ويتضاحكون مع  
أي الذي يلتفت نحوي، فلا أدري هل هي ملاحة أم ملاحك أنت.  
أنهض من رقدي فجأة شاعرة ببعض الارتياح الذي تضاءل  
مع سماعي لرنين هاتفني.

قلبي يتفض بقلق لا أدري كنهه والصوت المألوف يصلني  
غارقاً بصرامة قلقة هو الآخر:

- مهما حدث لا تغادري مكانك، يونس تعرض لحادث  
أظنه متعمداً، قد يكون هناك خطر على حياتك أنت الأخرى.

كلماته تطيش في أذني فلا أميز سوى بعضها، طلق ناري!  
طريقه للجامعة! يونس! يونس في خطر!

الهاتف يسقط من يدي وخطواتي الراكضة لا تعرف سوى  
طريق واحد.

أجل، أنا الهاربة التي عادت بقدميها لعرين الأسد.



خلف العمود الضخم أمام مكتبه في الجامعة والذي اعتاد هو الاختباء خلفه أختفي أنا الآن أراقبه من خلف باب مكتبه المفتوح وقد ازدحم حوله بعضهم، خفقاتي تتلاحق بجنون وعيناي تدوران عليه تتفحصانه بجزع، كيف ذهب حنقي عليه

أهراج الرياح فلم تبقى لي سوى جذور عشقه الراسخة؟!!

أشهق بعنف وأنا أراه يلتفت فجأة نحوي فأسارع للاختباء برأسي من جديد خلف العمود، جسدي يرتعد بقوة وقد انتهت لتوي لما فعلته، لقد أضعت فرصتي في الهروب منه، لا.. ليس بعد، ربما لم يرن، سأعود، سأ...

شهقة أخرى مذعورة تتزامن مع شعوري بقبضته التي امتدت فجأة لتجذب ساعدي نحوه.

عينانا تلتقيان للحظة فينفجر سيل دموعي حاجبًا عني كل ما دونه، فلا أشعر بعدها إلا ببياب غرفة مكتبه يغلق خلفنا وحدنا وبذراعيه يطوقانني بقوة من يحشى فقد روحه، كلياتي تنساب دون إرادة وكأنني لست المرأة التي هربت منه منذ أيام بعدما جرحت معصمه.

- كنت سأموت لو أصابك مكروه.

يعتصرني بين ذراعيه أكثر حد الألم كأنه يعاقبني مع همسه

المحترق:

- تعلمين أول ما فكرت فيه عندما سمعت صوت

الرصاصه؟! خشيت أن أموت قبل أن أراك من جديد.

عناقنا يشعل كليتنا بهذه النار التي تنير ولا تحرق، يعيدنا كيانًا

واحدًا لا يميز واحدًا من آخر.

- من فعلها؟! ولماذا؟!

أصرخ بها برعب فتقسو نظراته قليلاً ثم تتجمد تمامًا وهو

يمسح دموعي ليسألني فجأة:

- أين كنت؟!

تسرع عيناى بخوف مما أنا مشرفة عليه وقد شعرت أنى

أفقت من سكرة عاطفتى لأواجه ظلمته البشعة من جديد.

- كيف هربت؟! من ساعدك؟!

همسه يزداد قسوة لكن المكان يمنحني بعض الأمان لأهتف

بانفعال بينما أفلت من بين ذراعيه:

- لن يغير هذا مما بيننا شيئاً، لن أعود إليك، أه..

أتأوه بألم وقبضته تعصر فكي فجأة، وجهه المحتقن بالدماء

يناقض برودة صوته القاسية:

- تظنيننى لن أسألك أين اختفيت طوال أسبوعين ومن

ساعدك لتهربي من بيتى؟!

أحاول تخليص نفسي منه عبثاً فتبدل نظرتى لأخرى متحدية:

- تريد أن تعرف؟!

قبضته تشد أكثر حول فكي فتشتعل نظرتى أكثر بين ألم وعناد:

- عند دياب.

عيناه تسعان للحظة وكأننى طعنته باعترافى لأردف بالمزيد

من التحدي وقد وجدتها فرصتى لغايتى:

- فى بيته، على فراشه، أه...

صرختي تحتق في حلقي وقبضته تهوي نحو عنقي، هذه  
ال نظرة الذبيحة في عينيه تكاد تثنيني لكنني أكمل:

- لماذا العجب؟! هو الوحيد القادر على فعلها، آه...

صوتي يتحشرج بالمزيد من الألم مدركة قرب النهاية  
لكنني لا أزال أتشبث ببقايا أمل، هذه النظرة في عينيه تتصارع  
بين تصديقي وتكذبي، قلها يا يونس، قل ما أود سماعه، قلها  
واجعلني أشعر أن لا يزال لي فيك أمل.

- كاذبة!

أتهد تهيدة خلاص وأنا أسمعها منك كما تميت بالضبط،  
دموعي تسيل من جديد على وجعتي بينما أشعر بأنا مملك ترتخي  
فوق عنقي.

- أنت لا تحونين، دياب لا يحون.

- وأنت، أنت لا تحون.

أهتف بها بين دموعي لأشبث بياقة قميصك فأهزك مكانك

كأنها أوقظك من سباتك:

- أرايت؟! هذا هو ما يفعله بنا الإيمان، يجعلنا نكذب كل

جوارحنا ونثق فقط في حدس قلوبنا، أنا أؤمن بك كما تؤمن بي،  
أنت لن تحون دينك ولا وطنك ولا قلبك.

- اسكتي!

تهتف بها بألم مغمضاً عينيك فأشعر أن كلماتي وجدت

صداها في صدرك، ربما لهذا عدت أقول:

- دياب ساعدني حقاً في الهرب لكنه ترك لي بيته كي أكون

فيه وحدي.

- لماذا؟! -

تمتمت بها مصعوقاً كمن تلقى طعنة في ظهره، فأهز رأسي  
بجهل لأراك تبتعد عدة خطوات ثم تعطيني ظهرك ليظللنا  
الصمت الثقيل لدقائق طالت، وكم وددت في هذه اللحظة لو  
أحرق عقلك الغامض هذا فأدرك فيم تفكر.

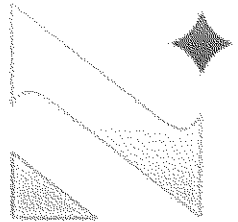
- عودي من حيث أتيت.

- ماذا؟! -

أسألك بتوجس مصدوم وقد بدت لي كلماتك وكأنها تحمل  
ما يفوق ظاهرها البسيط، فتلفت نحوي لترعيني هذه الدموع  
الحبيسة في عينيك وكلمتك تصيبي فلا أدري كطليقة غادرة أم  
مفتاح حرية.

- أنتِ طالق!

BOOKS



## (الظلمة العاشرة)

أنا يونس، ونسيت مين يونس

والدنيا مالت عليا

\*\*\*

\* يونس \*

\*\*\*

طلقتها، منحتها صك حريتها وعدت وحدي لثلث ظلماتي،  
تماماً كما عادت لي كوابيسي منذ تركتني.

لماذا الآن بالذات فعلتها؟! لأن خوفي عليها غلب كل ما سواه  
من مشاعر، بعد الطلق الناري الذي طاش تلك المرة ولا أثق أنه  
سيصيب في مرة قادمة، وفي المرتين التوقيع يحمل اسم مجدي.

خائف؟! جداً! خائف من الموت ولا أملك شجاعة  
الاعتراف بالعكس، خائف عندما تنفك أضلاع مثلث ظلماتي أن

تلقيني في جحيم الخلود، نجية، جابر، ضي، خائف أن تفرق بيننا  
الحياة الآخرة كما فرقت بيننا هذه الدنيا، خائف بل أكاد أموت  
خوفاً لكنني لا أملك سبيل التراجع.

ترارك تسامحيني يوماً يا ضي؟! سأترك لك ما يؤمن لك حياتك  
بعدي، لكنني سأتركك أنتِ فربما كان هذا هو أمانك حقاً.

هاتفني یرن جواري بينما أقود سيارتي نحو قلعتي السوداء  
فينعقد حاجبای بغضب مستعر، دياب! أخيراً ظهر هذا الوغد  
الخائن بعد يومين كاملين من اختفائه غير المبرر، لا أصدق إلى  
الآن كيف طعنني في ظهري ولماذا فعلها.

- تعال إلى بيتي، أظن بيننا حساباً يجب تسويته.

أقولها ببرود متوعد لكنه يهتف بي بجزع:

- لا تذهب إلى بيتك يا يونس، أوقف سيارتك مكانها  
وانتظرنی.

- تظنني سأثق فيك بعدما فعلت؟!!

أهتف بها بنفس البرود المتعمد وأنا ألتفت لسيارة خلفية  
تضم حرساً خاصاً جعلته لي بعد ما كان، ليصلني صوته بصرامة  
لم أعتدها منه:

- استمع إليّ هذه المرة، أنا في طريقی إليك لا...

كلماته تنقطع في أذني وعيناي يغشاهما ضوء مصباحي السيارة  
التي توقفت فجأة أمامي، قبل أن أراه يتقدم نحوي، مجدي!

عيناه القاسيتان تتوهجان بثشفٍ فأترجل من سيارتي لأتقدم  
نحوه، والنظرات العاصفة بيننا توحى بقرب معركة الخلاص.

- غريب أنت يا يونس، غريب حقاً، الدنيا منحتك فرصة  
يتمناها الآلاف غيرك، المال، الوضع العلمي، المرأة...

يقطع عبارته بغمزة وقحة فأرفع قبضتي بلكمة نحو فكه

لكنه يتفادها بمهارة تليق به ليعيدها إليّ مضاعفة فأشعر بالدوار  
يلف رأسي.

- غبي، عشت غيباً وستموت غيباً، تظن أن من هو مثلك  
قد يهزم من هو مثلي مهما كان؟! تظن صديقك الخائب دياب ذلك  
سيغلبني أنا في ألعاب الظلام؟! تظنني سأمرر لكما ما فعلتهاه بأمي؟  
- لم أفعل شيئاً.

أقولها فتمترج حروفي بنزف شفتي ليضحك هو هانقاً  
بازدراء:

- لأنك جبان، ترتدي قميصاً لا يناسب مقاسه جسديك  
الضئيل، تلعب لعبة لبيد لها، تعلم كم تشاوي حياتك الآن؟!  
أبتسم بتشف وأنا أشعر بسيارة الحرس تتوقف خلفنا  
ليترجلوا منها فأهتف له:  
- لازلت تراني غيباً!؟

لكن ضحكته المستفزة تفاجئتني وأنا أرى الحرس ينضمون  
إليه ليشهروا أسلحتهم في وجهي أنا.

- خسارة! العالم العبقري هو في النهاية مجرد غبي آخر.  
يقولها وعيناه تشتعلان بقسوتها الباردة فيرتعد قلبي وقبضة  
الخوف تعتصره أكثر.

- والآن، ماذا تظنني فاعلاً بك؟!  
يقولها وهو يشير لأحدهم فيقترب مني مصوباً نحوي

سلاحه ليردف وكأنه يتلذذ بسادية كلامه:

- هل جربت أن تكون كلمتك سرًا من أسرار الموت؟!  
بضعة حروف منك تسلب أحدهم حياته؟! فعلتها بأبيك والآن  
حان دورك.

أغمض عيني بقوة على صورة جسد جابر الميت، وقد أيقنت  
من قرب مصير يشبهه، لن أسأل مجدي عن خوفه من عقاب  
فمثله لن يعدم طريقة ليسوي بها الأمر.

رجله يقترب منا فافتح عيني لتتعلق نظراتي المذعورة  
بمسدسه ورائحة الموت تزكم أنفي، لكن المفاجأة تكون من  
نصيب كلينا وأنا أرى الرجل يهوي بكعب مسدسه فوق عنق  
مجدي الذي يسقط أمامي بعدها.

تسرع عيناى بصدمة وأنا أهم بسؤال الرجل عما فعله لكنه  
يشير لي بكفه بحركة صارمة، ثم يتناول هاتفه ليجري اتصالاً ما  
لم أفهم فحواه.

أستند إلى مقدمة سيارتي بالمزيد من الخوف وأنا أرى بقية  
الرجال يتقدمون ليحيطونني في نصف دائرة قبل أن أسمع  
الصوت المألوف يصدح خلفي:  
- خذوه ودعوني معه هو.

دياب!

ألتفت نحو سيارته التي توقفت لتوها فينعقد حاجباى بقوة



وأنا أراه يتقدم لينحني نحو جسد مجدي فينتزع من ياقة سترته شيئاً ما وضعه في جيبه هو قبل أن يتحرك الرجال ليحملوا جسد مجدي ويغادروا به في سيارتهم تاركين إيانا وحدنا.

- أيمكنني أن أفهم ماذا يحدث بالضبط؟!

أصرخ بها بجنون فتخره انفعال الدقائق السابقة ليقترب دياب مني ووجهه تحوطه هالة صرامة حاسمة غريبة عن خنوعه المعهود معي، صرامة امتزجت ببعض الرفق وهو يرت على كتفي بأحد كفيه بينما يرفع بطاقة خاصة بكفه الآخر:

- المخابرات المصرية.

الخوف يختفي لتحل محله صدمة عارمة وأنا أقارن صورته في

البطاقة مع اسمه الغريب علي، دياب! دياب ليس دياب!

الصدمة ترسم ضحكة عصبية فوق شفتي تتلوها أخريات فيزداد انعقاد حاجبيه وهو يعاود تربيته على كتفي، لكنني أزيح كفه فجأة بعنف لأصرخ وأنا أبتعد عنه:

- الآن فهمت، لا داعي لمزيد من الشرح، تلاحقوني لأجل

بحثي الأخير لكنني لا أفعل جريمة يعاقبني عليها قانون، حقي أن أمنح حق تمويل أبحاثي لمن أريد، ليست المرة الأولى.

- تعلم أن هذه المرة مختلفة، بحثك الأخير لو اكتمل فسيؤثر

على التوازن العسكري للمنطقة كلها.

يقولها بنفس الصرامة الغريبة الممتزجة بالرفق فأشبح

بوجهي دون رد، ليرد ف:

- علمك هذه المرة طعنة في ظهر بلدك.

فأطلق ضحكة متهكمة تناسب قولي:

- وفر محاضرتك السخيفة فهي إهانة لذكاء كلينا، أظنك

بعد كل هذا الوقت تعلم كيف أفكر، يا صاحبي.

- ولأنني أعلم كيف تفكر، يعز علي أن تخون، يا صاحبي!

يقولها كأنه يرد لي بضاعتي، فأصرخ بالمزيد من الانفعال

وسبابتي تلكر صدره:

- تتحدث عن الخيانة؟! ماذا تسمى ما كان بيننا إذا؟!!

واجب وطني؟!!

سخرتني المشغلة تططدم بجبال تفهمه ليصمت قليلاً قبل

أن تهوي كلماته بيننا:

- في البداية كنت لي حقاً مجرد واجب وطني، لكنني اقتربت

منك، احترقت معك بجحيم ماضيك، لمست روحك الكسيرة،

لن أبالغ لو زعمت أنني كنت أعذرك في كل ما كنت تتويه.

أكاد أتهمه بالكذب لكن الصدق الذائب بين حروفه يخرسني.

- يوماً بعد يوم لم يعد قربي منك لأجل مراقبتك فحسب بل

لأجل دعمك، لحمايتك من نفسك، أنا ساعدتك في الانتقام لكنني

كنت أحرص ألا تتجاوز حدود المحذور، قضية قمر، اختطاف

غريب، أم مجدي، لو راجعت نفسك لوجدت أنني كنت أمنحك

نشوة انتقامك دون أن تلتطخها بخطأ لا يمكن إصلاحه.  
أكز على أسناني بقوة وأنا أشعر أنني حقاً غبي، غبي كما قال  
مجدي، وهنا أبادره باتهامي:

- لم تتركني أنتقم منه لأنه شرطي.

- بل سأجعلك تفعلها، إنها بالقانون.

يهتف بها بحسم وهو يستخرج ذلك الشيء الذي كان مثبتاً  
في ثياب مجدي مردفاً:

- هو اعترف بفعلته وسيتال عقابه، عهد علي وأنا لم أخلفك

عهدي يوماً.

ضحكة أخرى ساخرة تصاحبها تصفيقة سي.

- والآن ينتهي الفيلم بموسيقا وطنية حماسية، سيادة

الضابط نجح في إعادة الابن الضال الذي عرف قيمة الوطن

ورفض التعاون مع أعدائه، عظيم.. عظيم.

أهتف بها بتهكم مبالغ فيه ولا أزال أصفق لنتشد ملامحه

مع كلماته:

- أنت لم تغادر كي أعيدك يا يونس! لو كنت تفهم نفسك

حقاً لعلمت أن الوطن الذي تسخر منه هذا كان دوماً داخلك

مهما ظننت العكس، في اإتسامة نجية، وتعاليم جابر، وحب ضي.

- لا تذكر اسمها! كفاك ما فعلته معها!

- كنت أحميها، تماماً كما جال بذهنك وأنت تطلقها.

يهتف بها داحضًا اتهامي فتشتعل ملامحي بنيران انفعالي وأنا  
لا أدري كيف أتصرف، ممزقٌ بين خوفي الطبيعي من عاقبة موقف  
كهذا وبين غضبي من كوني كنت مجرد لعبة بين يديه، وبينهما لا  
يمكنني منع مشاعر امتنان حقيقي لما كان بيننا رغم كل شيء.

أعطيه ظهري مكنتًا ساعدتي فيصلني صوته المفعم بإيمانه:

- طالما تشدقت بمثلث ظلماتك، ولو صدقت نفسك  
لوجدت أن القدر يمنحك الآن فرصة مقابضته بمثلث آخر،  
ضحي مقابل قمر، يافا مقابل غريب، وأنا مقابل مجدي، الحب،  
الدين، الوطن، ألا تزال تحب الظلمة حقًا لا يتخللها نور؟!  
أقبض كفي بقوة جواربي لتجتاحني الصور، قمر تتأبط ذراع  
كامل، رأسي يتوسد صدر ضحي، غريب المدعي يطعنني بسكينه  
فيلوث دمي لحيته الطويلة، يافا التقيية فوق سجادة صلاتها ترفع  
كفيها لي بالدعاء، مجدي يضع قدمه فوق صدر أبي، دياب - أو  
أيًا من كان هذا- يضع مجدي في السجن.

الصور تتداخل وتشتبك فأشعر بالدوار يلف رأسي لأطلق  
صرخة عالية وأنا أخبط بقبضتي فوق مقدمة سيارتي لأهتف بانفعال:

- دعوني وشأني، لو كنتم تريدونني بشأن البحث الأخير  
فسأفكم إياه، أعرف جيدًا كيف تتم هذه الأمور، سيقتلونني  
هم أو تقتلونني أنتم، لهذا سأبتعد عن هذا المجال وأرى غيره،  
وسأترك لكم هذا البلد بها فيه، لكن دعوني وشأني! دعوني وشأني!  
أظل أصرخ بعبارتي الأخيرة حتى أشعر بقبضتي تؤلمني

فيحتمل ثورتي صابراً، ثم يتحرك ليواجهني بملاحه التي لا تزال  
تمزج صرامتها بتفهمها:

- صدقني لم تعد تعينني مهمتي بقدر ما يعينني أن أعيدك  
لنفسك، لأجلك أنت يا يونس، أنت تستحق السلام بعد كل  
هذه الحرب.

ألتفت نحوه بعيني الدامعتين بمزيج غضبي وتشتي  
وعجزي، لا أكاد أصدق أن تنقلب الأدوار هكذا فيصير دياب  
البيسط الذي عاونته وانتشلته من القاع هو الآن من يعلوني  
سلطة ويقدم لي النصيح.

- هل تحتجزني لسبب ما يا «حضرة الضابط»؟ أم يمكنني  
الآن العودة لبيتي؟  
أسأله أخيراً ليحتكر نظراتي بعينيه القويتين ثم يقول بنبرة  
ذات مغزى:

- ليس أحب عليّ من أن تعود لبيتك يا يونس، لبتك حقاً تعودا  
أضحك بتهكم فظ يمتزج بمرارة حارقة وأنا أتجاوزه  
لأستقل سيارتي التي أتحرك بها تاركاً إياه خلفي.

قبضتاي تشندان حول المقود وأنا أزيد سرعة سيارتي حد  
الخطر لكنني لا أهتم، وكأنها تغلب رغبة تمردي خوفاً في العهود،  
ذكريات الليلة العصبية تشعل المزيد من النيران في مثلث ظلماتي،  
نظراتي تصطدم بـ«بقعتي البيضاء» التي ترك فيها جرح ضي

ندبة خفيفة لا تميزها سوى عيني، فتبدولي كقنديل بحر بمجسّ  
واحد، هيولان! أحتاجكم الآن بأكثر من أي وقت مضى!  
ابتسامتي الساخرة تصفع إدراكي، لكنني أشهق بعنف وأنا أميز  
هذه الشاحنة الضخمة أمامي، أحاول تجاوزها لكنني لا أستطيع.

صوت اصطدام مدوّ ثم ظلام، ظلام، ظلام.  
نفق طويل يمتد أمامي لألمح النور في منتهاه.  
أصل لأخره أخيراً وأنا أحاول فهم ما حدث.  
أين سيارتي؟! بل أين أنا؟!  
عالم أزرق صافٍ ينساب حولي كأنني سقطت فجأة في البحر.  
أحاول تحريك قدمي لكنها بدت وكأنها تحجرت أخيراً.  
يदाي كذلك خرجتا عن قيود سيطرتي لتبدوا لي وكأنها  
مكبلتان بقيد غير مرئي، أدور ببصري حولي فأنتبه لتوي لسجني  
الذي بدا لي هرمي الشكل بواجهاته المثثة شبه الزجاجية التي  
تتيح لي رؤية ما حولي.

هل هو كابوس جديد؟! لا.. أنا لا أشعر بالخوف، على  
العكس، الجو حولي يمنحني سكينه غريبة تشبه شعوري في حضن  
ضي، حتى الرائحة حولي تشبه رائحتها، تراها مثلي سجينه هنا؟!  
أهتف باسمها لكن صوتي لا يغادر خلقي، بل يرتد كسهم  
يؤلم معدتي يحذرني من تكرارها، أتلفت حولي لتسع عيناى بصدمة  
وأنا أميز هذا الكيان الذي يقترب نحوي، هيولان! أنتم حقاً هنا!

## \* هيولان الأولى \*

### \* مملكة النور والخلود \*

\*\*\*

- مرحبًا بك أيها المتلاشي، أي شرف نلتَه؟! وأي ذنب  
اقترفته حين دعاك شهاب الأعظم لتبقى معنا في هيولان «مملكة  
النور والخلود»؟!!

الصوت ينبعث بداخلي فلا أدري مصدره، لكنني أسمع  
بوضوح بينما يقتربون مني بتشريح أجسادهم الذي أعرفه،  
القرص الشفاف، القوام الهلامي، والأطراف الطويلة التي  
ندعوها باللوامس أو المجسات، يتحركون بنفس الطريقة التي  
أعرفها بانقباض أجسامهم ثم فردها بحركة حرة اعتمادًا على تيار  
الماء، لكن ما وجدته غريبًا هو حجمهم الضخم الذي يقارب  
حجمي بل يفوقه، وهذا التركيب الذي يشبه المخ البشري والذي  
يبدو واضحًا خلال الأقرص الشفافة!

- مخ؟! أنتم حقًا هيولان؟!!

أهتف بها بذهول فيرتد الصوت داخلي ل يبدو كما لو أنه يلكنني  
في معدتي كما المرة السابقة، تتسع عيناي بذعر وأنا أميز أكبرهم  
يقترّب مني أكثر، والصوت ينبعث داخلي كأنها يسقيني أفكاره:

- أنت بالذات لا يحق لك العجب، ألم تكن تزور عالمنا في أحلامك؟!

- هل هذا حلم؟!

صوتي يرتد من جديد داخلي ليصيني بألم فتتحرك مجساته بهذه الحركة السريعة حوله ولا يزال يسقيني أفكاره:

- لا تحتاج للكلام أيها المتلاشي فسيؤلمك، نحن نقرأ أفكارك كما نقرأ أفكارنا، هكذا نتحدث في هيلان، عن طريق التخاطر، لهذا لا مجال للكذب.

التخاطر؟! يالها من طريقة للتواصل! أعقد حاجبي بقوة وأنا أتلفت حولي محاولاً تحريك أطرافى دون جدوى! هل فقدت وعيى بعد الحادث؟! هل أحلم؟!

- وهل يبدو الحلم بهذه الشفافية أيها المتلاشي؟! صوته يخترقني من جديد فألتفت نحوه ليدور بيننا أغرب حديث دون صوت:

- أين أنا؟!

- في هيلان! ظننت هذا واضحاً!

- كيف؟!

- نحن نختار سجناءنا فقط ممن يؤمنون بنا، الإيمان هو بوابة دخولك عالمنا أيها المتلاشي.

- لماذا تدعوني بالمتلاشي؟!



- لأننا نحن خالدون، ظننت هذا واضحًا.

- ما هذا الهراء؟! من أنتم!؟

لم أنتبه أن فكري خرجت كصرخة إلا عندما تراجعوا جميعًا  
بقفزات محساتهم اللاسعة ليتوهج القرص الشفاف لكبيرهم  
بنور أحمر:

- لا تصرخ ها هنا، هنا أرض الجلم ولا مكان بيننا للغاضبين.

أغمض عيني بقوة ليصلني سيل أفكاره:

- هنا هيولان، مملكة النور والخلود، جدنا الأكبر اختار  
لنا هذه البقعة في المحيط، كان متلاشيًا مثلك لكنه ترك لنا سر  
الخلود، نحن نقف على الحدود الفاصلة بين البشر والتيولا،  
أفما كنا شبه بشرية كما ترى لكن أجسادنا بقيت على حالها البسيط  
الذي يتيح لنا سهولة التكاثر بطريقة «التيولا» المعهودة، لم يكن  
الأمر سهلاً لكن جدنا شهاب الأول فعلها.

- ولماذا لم يخلد هو!؟

أسأله محاولاً فهم التفاصيل الغريبة لما يحكيه فيعاود قرصه

الشفاف توهجه الأحمر الواشي بالتفعاله:

- نحن لا نموت بصورة طبيعية، لكن القتل يسلبنا أرواحنا

ككل المخلوقات، جدنا قتله مساعده ثم فر ليؤسس مملكته على  
الجانب الآخر من المحيط، هيولان الثانية مملكة الظلام والخلود،  
وفيا يعتنق أهل هيولان الأولى خصال الخير والمثالية يعتنق أهل

هيولان الثانية خصال الشر والدونية، والصراع بيننا باقٍ أبد الدهر.  
يهياً إليّ أني قد سقطت في حكاية خيالية من الأساطير  
القديمة فأبتسم ساخرًا ليقراً هو فكرتي فيسقينني فكرته:

- لا تدعي الإنكار، لو لم تكن مؤمناً بنا لما وصلت إلينا.

أصمت محاولاً ابتلاع منطقته لأعاود به أفكاري:

- إذن جدكم شهاب الأول، وأنت شهاب الأعظم، لا  
أحتاج كثيراً من الذكاء لأدرك أنك كبيرهم.

الوهج الأحمر في قرصه الشفاف يتحول لأزرق رائق مع جوابه:  
- كلنا نحمل اسم شهاب مع رقم يميز هوية كل منا عن  
الآخر، قد يروحك الأمر لأن الأرقام هنا تتعدى الستة أصفار،  
لكن التخاطر بيننا يسهل الأمور كثيراً، أما لقب «الأعظم» فهو  
كما توقعت أنت تماماً، يخص الحاكم.

- وماذا تريدون مني؟! لماذا تسجنونني هكذا؟!

- لأنك كنت سجيناً في عالمك، نحن نريد تحريرك، فقط

لو أردت.

- ياللمثالية!

سخرتني تجعل الوهج الأزرق لقرصه الشفاف يتحول  
للأحمر الخفيف فأميز أن هذين اللونين مرتبطان بانفعالاته،  
لتعاود أفكاره اجتياحي!

- تعلم كم عمر الواحد منا أيها المتلاشي؟! تعلم كم حياة

عشناها وكم شهدنا من قرون البشر؟! حروبهم، صراعاتهم، مجاعاتهم، أوبتتهم؟! نراقب كل هذا عن بعد بحسرة من يشاهد الأحمق يقتل نفسه ولا يملك له نفعًا ولا ضرًا، لكن لنا عيدًا في أول كل عام من تقويمنا نسميه عيد الخلاص، طقوسه تتمثل في تحرير واحد من المتلاشين مثلك نقدمه كقربان لجزيرتنا المرجانية المقدسة نظير أن يجد مثلث خلاصه.

غابت عني تفاصيل عيدهم المزعوم هذا مع تفصييلة أخرى شغلت ذهني:

- وكيف يسير تقويمكم هذا؟!  
- لا أدري إن كان عقلك سيستوعب هذا لكنني سأبسط لك الأمر، عامنا يبدأ مع ولادة نجم في هذه المجرة وينتهي بموته، تعرف كيف تولد النجوم وكيف تموت؟! النجوم تولد داخل سحب من الغبار نتيجة اضطرابات وتفاعلات تحدث داخل هذه السحب، فعند وجود نسب كافية من الغاز والغبار

بسبب قوة الجذب بينها ونتيجة ارتفاع درجة حرارة المركز في هذه السحب، ومع استمرار الغبار في التدفق إلى المركز تزداد كتلته وحرارته، وبعد ملايين السنين تتحول لنجوم أولية، هذه التي تزداد حرارتها بالتدريج ليتكون الهيليوم وتنتج الطاقة، وبعد أن تصل كتلة النجم الأولى إلى حوالي واحد من عشرة من كتلة الشمس يصدر عن النجم تدفقان كبيران من الغبار بعيدًا عن

سطحه الملتهب مما يؤدي إلى استقراره.

كنت أعرف بشيء من التفصيل طبيعة ما يحكي عنه، لكنني

بقيت أستمع:

- أما كيف يموت النجم فهو يعتمد على اختلاف كتلته،

فاذا كان حجم النجم قريباً من حجم الشمس فإنه سيتحول

لقزم أبيض في نهاية المطاف، أما إذا كانت كتلته أكبر فعلى الأرجح

سيتعرض لانفجار كبير ينتج عنه ما يسمى بنجم النيوترون، وفي

حال كان مركز الانفجار كبيراً جداً ولا يوجد ما يوقفه فستشكل

ما يعرف بالثقب الأسود، وهو الجاذبية اللانهائية في الفضاء.

- وأي نجم اخترتموه بالضبط؟!

- أبحاثنا وصلت قدرًا من التقدم لم تدركوه أنتم بطبيعة

الحال، لن يستوعب عقلك البشري ما أقول، لكن دعني

أبسط لك الأمر، لقد اكتشفنا علاقة وثيقة بين استقرار عالمنا

هنا وبين مجموعة بعينها من النجوم رصدتها تيليسكوباتنا منذ

آلاف السنين، وأسميناها باسم عالمنا هيولان، يولد النجم فيها

ويموت فيها يقارب أربعين ألف عام فقط من أعوامكم كبشر.

- العام لديكم بعمر النجم ويساوي أربعين ألف عام فقط

من أعوامنا؟!

أسأله بتوجس، فعلمي أن عمر النجوم قد يمتد لملايين

الأعوام، لكنه يجيبني:

- عمر النجم يرتبط بحجمه، ونجوم مجموعة هيولان كبيرة الحجم قصيرة العمر.

- دعنا من كل هذا، ماذا تفعلون بـ«عيد الخلاص» هذا؟!

وما علاقة كل هذا بي أنا؟!

صوتٌ غريب يرحني ببذبات أغرب فتسع عيناى وأنا أرى جماعته يتواثبون بحركتهم المميزة ليقتربوا منه أكثر، فيما يخفت وهج قرصه الشفاف تدريجيًا مع فكرته التي اجتاحتني:

- إنه موعد نوم أهل هيولان، غدًا نخبرك أيها المتلاشي عما تريد معرفته، لا تقلق بشأن غذائك فهذا الهرم الزجاجي الذي يحيطك مصمم للحفاظ على سلامة جسدك البشري وإيفاء جميع احتياجاته.

يقولها ثم يبتعد بحركته المتواثبة تلحقه جماعته فأسقيه فكرتي بسرعة:

- انتظر.. لا تتركني هكذا لأفكاري، أريد النوم مثلكم.

لتنساب فكرته لعقلي قبل أن يخنفي من أمامي تمامًا:

- النوم هنا مجرد فكرة قد يحسدنا عليها المتلاشون في عالمك،

فقط أغمض عينيك واستدعه، سيأتيك.

## \* السجين \*

\*\*\*

أفتح عيني فجأة لأدرك أنني حقاً قد نمت بمجرد فكرة كما  
زعم لي كبيرهم ذلك، نومًا بلا كوابيس كذلك الذي كان في حضن  
ضبي، ومن جديد أشم رائحتها حولي، أشعر بها تحوطني حتى أنني  
أتلقت حولي بحثًا عنها من جديد فلا تصطدم عيني سوى بالمنظر  
الرائق شبه الثابت، أستعيد ما قاله لي شهاب الأعظم فأترجس  
خيفة وأنا أشعر أنني مقل على كارثة، تبا! كيف وصلت لعالمهم  
الغريب هذا؟! وماذا يريدون مني؟!  
تتحفز حواسي وأنا أراه يقترب نحوي أخيرًا مع حاشيته  
بحركتهم المتواثبة المعهودة لتنساب فكرته في ذهني مع توهج  
قرصه الأزرق.

- لن أسألك إن كنت قد نمت جيدًا، صفاء ذهنك أمانمي

يخبرني أنك قد فعلت.

- ماذا تتوون فعله بي؟! \*

- أنت من سيقبل بنفسه أيها المتلاشي!

تبدولي فكرته مزيجًا من إشفاق ونبوء، فأحرك كفي المكبلين

بقيود غير مرئية لأعاود اجتياحه بفكرتي:

- فك قيودي.

هنا فقط أنتبه لغياب «بقعة معصمي» البيضاء، فيختلج قلبي  
بخوف مبهم، لكنه يقرأ فكرتي:

- بقعتك هذه كانت نداء رسالتنا لك طوال هذه السنوات،  
نحن نسميها المتلاشي الذي نختاره قريبًا لعيد خلاصنا، أنت لم  
تولد بها كما تعلم، والآن لم تعد لنا بها حاجة فالقربان بين أيدينا.  
- قربان؟! أنا؟!!

أسقيه فكرتي المتوجسة، لكن وهج قرصه الأزرق يمنحني  
بعض السكينة مع جوابه:

- لا تخف، مفهوم القربان لديكم أها المتلاشون ارتبط  
باطلاك، لكنه لدينا يرتبط بالخلاص، بالخلود.  
- تعني أنكم ستجعلون مني خالداً مثلكم؟!  
لهفتي تقابل رده الغامض:

- لا مكان بيننا للمتلاشين، الخلود لنا والخلاص لك، لكن  
دعني أولاً أصطحبك في رحلة لتتفقد عالمنا.

لا أنكر الشغف الذي ملأني وأنا أشعر بسجني الهرمي يتحرك  
ليسير بي خلفهم، تنفرج شفاتي بانبهار وأنا أراقب لون الماء الذي  
يتغير تدريجيًا من الأزرق الغامق إلى الأفتح ثم الأفتح حتى يصل  
لما يقارب اللون الأبيض، فأنتبه لهذه الصخور الضخمة كريمية  
اللون والتي ارتصت بشكل مهيب لتصنع لنا ما يبدو كمر

طويل يمهد لمدخل فخم، الشعاب المرجانية بألوانها الخلابه تبدو لي وكأنها حدائق زهر على الجانين، لكنها للعجب كانت تتخذ شكل تيجان ضخمة ملونة في منظر لم أشاهده من قبل.

- مرحبًا بك في ميدان هيولان.

الفكرة تناسب في عقلي فأنتبه لما حولي، العشرات منهم يتواثبون حولنا بحركتهم المعهودة مفسحين لنا الطريق فيبدون بألوانهم البيضاء المشعة ككريستالات ضخمة، أقرأ منهم عشرات الأفكار كلها ترحب بي بحفاوة فيخفق قلبي بانبهاج وأنا أرى لون الماء يتحول لماسية متألقة كأنها تسطع آلاف النجوم حولنا الشعاب المرجانية بألوانها المتعددة التي أعرفها تبدو لي هنا أكثر توهجًا، أكثر تنوعًا عن أي مما رأيته في حياتي، لكنني ألاحظ أن اللون الأسود ينقصها.

- لا أسود في هيولان الأولى أيها المتلاشي، انتزعناه من

ألواننا للأبد.

تنساب داخلي فأدرك أنه شهاب قرأ فكري ليسقيني المزيد:

- تمامًا كما انتزع أهل هيولان الثانية الأبيض من ألوانهم.

- هل تتقاتلون معهم!؟

- نحن نفوقهم عددًا وهم يفوقوننا شراسة، لكننا نكتفي

بالدفاع لا الهجوم، كما أنهم لا يجيدون قراءة الأفكار بنفس

النسبة التي يحظى بها آل هيولان، فقد طمست شرورهم بعض



بصيرتهم، لهذا يؤذيم كيد بعضهم بعضاً.  
- ما داموا بهذا السوء الذي تحكي عنه فلا ريب أنهم  
يتربصون لأي نقطة ضعف منكم.

هنا يبدأ إلي أن حركة الجميع حولي توقفت فجأة لأدرك أنني  
قد تفوهت بأمر جليل، خاصة ووهج القرص الشفاف يتحول  
لأول مرة للأصفر الشاحب، إلام يرمز هذا؟! للخوف مثلاً؟!  
- اصبر حتى نصل لجزيرة المرجان المقدسة خاصتنا،  
وسأخبرك بكل ما تريد معرفته.

حركتنا تستمر لأميال لا أدري عددها، وأنا أرداد انبهاراً بما  
أراه حولي من هذا العالم المشع، كائنات بحرية لا أعرف عنها  
شيئاً رغم أنه مجال تخصصي، منها ما يشبه الرخويات، نجوم  
البحر، الأسماك.

لكنها كذلك كانت تحوي كائنات شديدة الغرابة.

هاهي ذي سمكة نابليون أو «سمكة الرأس» كما يسمونها  
بحجمها الضخم الذي يزيد عن المترين، شفناها الغليظتان،  
وهذا السنام المرتفع فوق رأسها والذي يكبر كلما تقدمت في  
العمر، قرأت أنها يمكنها التحول من ذكر لأنثى والعكس، لكن  
العلماء لم يتوصلوا للسبب، ترى هل فعلها آل هيولان؟!

تفرج شفطاي بذهول ونظراتي تتجه لهذا الكائن الآخر الذي  
قرأت كذلك عنه، هو حيوان «الخيال الشفاف» أو الخيال الزهري،

والذي يشبه علبة زجاجية شفافة يعلوها ما يشبه زهرة قرمزية.  
تتسع عيناى بالمزيد من الانبهار وأنا أميز المزيد من غرائب  
هذا العالم والتي لم أرها يومًا إلا في الكتب، بل وها هو ذا بعضها  
لم أره يومًا في حياتى.

أسماك شفافة بزعانف كبيرة ماسية تشبه الفراشات، وأخرى  
فضية اللون تدور حول نفسها وهي تستطيل فاردة زعانفها  
لتتحول لما يشبه راقصة باليه، بالبروعة!

لو كانوا يتتهجون طبيعة «التيولا» حقًا فلا ريب أنهم بحاجة  
للحفاظ على توازن بيئة كهذه، هل يتغذون على بيض الأسماك  
كالتيولا؟! وما تركيب «شبه المنخ» الذي يعلو قرصهم الشفاف هذا؟!  
تساؤلان يثير فضولي حد الجنون، لكن خوفًا بداخلي كان  
يتزايد، ماذا يعنون بكوني قربانهم؟! وماذا سيكون مصيرى هنا؟!  
تتوقف أخيرًا لتتسع عيناى بصدمة وأنا أميز ما يدعونه  
بجزيرة مرجانهم المقدسة هذه، أعرف عن الجزر المرجانية التي

تشكل في قيعان المحيط أسفل البراكين في شكل حلقة كبيرة، لكن  
هذه كانت تبدو مثلثة الشكل، ما حكاية المثلثات في هذا العالم؟!  
أعلم أن هناك دلالة للأشكال الهندسية في الحضارات الإنسانية،  
ففيما ارتبط المستطيل بالجانب الدنيوي، والمربع بالجانب الدينى،  
فإن المثلث هو الشكل الأكثر ارتباطًا بالمحرمات والمقدسات،  
لهذا نسمع كثيرًا عن مثلث الشيطان، أو مثلث الرعب، ناهيك

عن استخدامه في علامات المرور الدالة على الخطر.

ضوء ساطع يضرب عيني فجأة قاطعاً أفكاري فيجبرني على إغلاقهما بقوة، لأشعر بهذه الذبذبات حولي تكاد ترجني، أحاول فتح عيني مرة أخرى فأنجح ببعض العسر، أرى محسّاتهم اللاسعة تتشابك معاً بينما يتحلّقون حول مثلثهم المرجاني هذا والذي كان مشعاً ببريق الماس.

- ترى أرضك أيها المتلاشي؟!

فكرة شهاب الأعظم تجعلني أميز تحول مثلث المرجان لما يشبه شاشة عرض تتوالى فيها الصور، تتسع عيني بانبهار وأنا أميز أغرب بانوراما وثائقية قد يشاهدها أحدهم، صور حية لحروب بدت وكأنها منذ عهد الإنسان القديم صاحب الكهف ومروراً بكل العصور حتى تصل لأيامنا هذه.

تفروح شفّتي رغماً عني بانبهار وأنا أرى العرض ينتهي لتعود جزيرتهم المقدسة مجرد مثلث ماسي مشع، فيما تندفق أفكار

شهاب في رأسي:

- لا تتعجب، نحن اكتشفنا طريقة خاصة للسفر عبر الزمن، طريقة جعلت بإمكان الواحد منا أن يسافر للماضي ويدرس ثغرات السابقين كي نتفادى أخطاءهم، خبراتنا علمتنا أن جحود المتلاشين هو سبب شقائهم وأن نجاتهم في الإيمان، الإيمان بمعتقداتهم، بأوطانهم، وحتى بمشاعرهم، هذا الدرس

الذي وعيناه جيداً، لهذا يفوق عددنا عدد أهل هيولان الثانية بكثير إذ يهلكون بعضهم بعضاً، أما عن طقوس عيد الخلاص فقد بدأت لدينا منذ عهد بعيد، أحد أجدادنا الأولين فكر في غزو أرض المتلاشين، ليس غزواً لأجل السيطرة بل لأجل منحكم هذه السكينة التي نعيشها هنا، حشد جيوشنا بتلك الأسلحة التي لا قبل لكم بها وكاد يبدأ غزوه، لولا..

أفكاره تتوقف ليعود القرص الشفاف خاصته لوجهه الأصفر للحظات انقطع فيها تواصلنا ليزداد فيها فضولي لما أكمله بعدها:

- لولا أن تدخل أهل هيولان الثانية في المعادلة، حشدوا جيوشهم بدورهم، كنا نعلم أن تدخلهم في شأن المتلاشين سيزيد من بؤس عالمكم، لهذا وجهنا حربهم لهم هم كي نمنعهم، كانت أعظم حرب عرفها عالمنا وضاع ضحيتها الكثير منا ومنهم، حتى استقر حكماء العالمين على هذا الاتفاق بيننا، تعال شاهد هذا.

أفكاره توجهني لمثلث جزيرتهم المقدسة، فأنتبه لهذا الفراغ الذي تشكل في وسطها، فراغ لمثلث أكثر صغراً، هذا الذي تحدث عنه بدوره:

- هذا الفراغ المثلث هو فحوى الاتفاق بين العالمين، هو ضمان قوتنا وأمانكم، هذا الفراغ الذي اتفقنا ألا يملأه سوى

متلاشي من أرضكم في كل عام لنا، يجمع أضلاعه واحداً واحداً  
من ثلاث حيوات مختلفة يعيش فيها بطولة حقيقية، فإن جمعها  
كان هو عيد خلاصنا وخلصكم واحتفلنا بعام جديد لنا هنا،  
وإن فشل وهلك كانت الغلبة لأهل هيولان الثانية يلجمون  
قوتنا ويعزون أرضكم.

- لا أفهم، وكيف يعيش متلاشي مثلي ثلاث حيوات  
بافتراض أي قربانكم لهذا العام؟!  
- انتظر، وسأخبرك.

فكرته محتاجي بينما أراه وجماعته يعودون لما بدأ كرقصة  
خاصة متحلقة حول مثلثهم المقدس هذا بمجساتهم التي  
تشابكت لثواني، قبل أن تجذبني أفكاره بعيداً ليسير بي هرمي من  
جديد خلفهم حتى يتوقف بنا أمام ما بدأ كفتحة كبيرة وسط  
كهف صخري كانت تنبثق منه موجات مائية صغيرة بسرعة  
عالية مختلفة عن الحركة الراقدة لتيارات الماء حولنا.

- غداً يتجمع أهل هيولان الأولى جميعاً قرب سطح البحر  
يرقبون احتراق نجم وينتظرون ميلاد آخر، آخر قد يولد على  
يديك، تبدأ الطقوس باغتسالك بماء هيولان المقدس لتكتسب  
صفة خلودنا طيلة حياتك في زمن الخلاص، هذا الذي يبدأ من  
دخولك عبر فتحة هذا الكهف والتي سترميك عبر نهر الزمن،  
ستعيش هناك حياة تلو حياة ما لم يقتلك أحدهم، تذكر أن خلود

«الهيولان» لا يحميه من القتل، لو عشت كل حياة من الثلاث  
كما ينبغي فستجد في آخرها ضلعًا ماسيًا من مثلثنا المقدس، اجمع  
ثلاثة أضلاع وُعِد بها، ساعتها نحتفل نحن بتنام مثلثنا وبداية  
عامنا واستقرار عالمنا، وتحتفل أنت بتحريك، تحريك من عالمنا  
ومن ظلماتك.

- ظلماتي؟!

- لا تظننا اخترناك عبثًا أيها المتلاشي، هو عيد خلاصنا  
وخلاصك، قربانك ليس لنا فحسب بل لأحلك أيضًا.

- لا أفهم.

- كل من سبقوك لم يفهموا حتى دخلوا التجربة.

- هل نححو جميعًا؟! وهل هناك مجال للفشل؟!

- بالتأكيد هناك، بعضهم ناله القتل وبعضهم لا يزال تائهاً  
عبر الأزمنة يبحث عن أضلاع مثلثه.

- وماذا تفعلون أنتم حينها؟!

- نقبل بخسارة عام من أعمالنا ونرسل الدية لأهل هيولان

الثانية كي نمنعهم من غزو أرضكم، فإما قبلوها أو رفضوها،  
ولحسن حظكم أنهم إلى الآن لم يرفضوها، لكن هناك مرة أولى  
دومًا كما تعلم.

أشعر بالخوف مما يقوله، ربما لو كان لي قرص شفاف مثله  
تلون الآن بالأصفر الفاقع.

- لا تحف أيها المتلاشي، ستنال فرصتك كاملة في عشرات  
الحيوات عبر الأزمنة، فقط عش ثلاثًا منها مؤمنًا وستنال مثلث  
خلاصك في نهاية الأمر.

- لا أريد، أعيدوني لعالمي.

تصرخ فكرتي رغبًا عني فيتراجعون جميعًا بحركتهم المتواصلة  
وقد توهجت أقراصهم الشفافة بالأحمر عدا شهاب الأعظم  
الذي بقي قرصه على توهجه الأزرق الهادي كأنه يعذر غضبي  
هذه المرة:

- فكر جيدًا، هي ليست فقط تجربة مشيرة مستحوذها، هي  
أيضًا ظرف مسئوليتك، دليل إيمانك وسبيل خلاصك.  
- لا أريد.

تزداد ذبذبات التوتر حولي ممثلة في الوهج الأصفر  
لأقراصهم، لكنني لم أكد أقذف فكرتي حتى فوجئت بشعور  
غريب، الهرم حولي تضيق أضلاعه حتى تكاد تطبق على أنفاسي،  
والقيود حول معصمي وكاحلي تزداد لي اعتصارًا فلا أملك إلا  
الصراخ الذي يرتد بداخلي كأنه لكلمات موجعة.  
- لا تفعلوا بي هذا، أرجوكم.

أقذف فكرتي لكنني لا أتلقى ردًا، فافتح عيني لأصطدم بالأغرب.

تبًا!

ما الذي يحدث هنا؟!

كيانات مشابهة لهيولان الذين عرفتهم لكنهم بلون أسود قاتم، أقراصهم تكاد تكون معتمة و«أشباه أمخاخهم» تبدو أكثر تعرجًا فتثير داخلي الاشمئزاز، هل هم أهل هيولان الثانية؟! هل هي حرب بينهم!؟

الأفكار التي كانت تصلني من شهاب الأعظم رائقة تصير الآن متداخلة، متشابكة، فلا أفهم شيئًا.

خاصة وهم يتصارعون بطريقة غريبة، محساتهم اللاسعة تتشابك بقوة للحظة واحدة يرتد بعدها كل منهم مصعوقًا بما يوحى بتوازن القوى.

أراقب المعركة بخوف كاسح ولا يزال هرمي يزداد ضيقًا وقيودي تعترضني أكثر حتى أشعر بالهرم ينقلب فجأة فأنقلب معه. هنا يفقد عقلي إدراكه لما بقي من المشهد، الهرم ينقلب بي وينقلب عدة مرات حتى أشعر بالدوار، تنفلت مني بضع صرخات عالية ترند كاللكمات في بطني فأجبر شفتي على الصمت.

وأخيرًا، يعتدل هرمي فجأة لأميز الأجسام السوداء التي تحلقت حوله، هنا فقط أنتبه للون الماء الذي تغير للأزرق القاتم. مدخل من الصخور السوداء تشبه الجماجم يستقبل هرمي الذي كان ينساب في رحلته كأنه مأمور، قلبي يتنفض برعب حقيقي والهرم يتجاوز بي مدخلهم، لتقصفي الفكرة من كبيرهم أخيرًا: - لا مرحبًا بك في هيولان الثانية، مملكة الظلام والخلود.



## \* هيولان الثانية \*

### مملكة الظلام والخلود

\*\*\*

- لا مرحبًا بك أيها المتلاشي، ذنبك أكبر من الغفران،  
دونيَّتكَ لن ترقى لشرف، لهذا دعاكَ الأدهم الأعظم لتكون  
أسيرنا للأبد.  
عبارتهم الترحيبية لو صح وصفها بهذا - تسير على نفس  
نمط هيولان الأولى لكنها تقبض القلب، أفكارهم التي تجتاحني  
لا تناسب ناعمة كأهل هيولان الأولى بل تحترقني كأسواط  
لاهة.

يقترّب مني كبيرهم الذي دعا نفسه الأدهم هذا فلم أحتج  
كثيرًا من الذكاء لأدرك أن كلهم خلفه هم دُهم مثله، معلوماتي  
اللغوية تسعفني ها هنا، الدهمة تشير للسواد، تليق بهم أسماؤهم  
كما الحال في هيولان الأولى، يبدو أنهم احتفظوني، لكن لماذا؟!  
كي يقطعوا احتفال آل هيولان الأولى بـ«عيد الخلاص»؟!  
- تمامًا.. أيها المتلاشي.

يقذفني بها فأشعر بأمعائي تتقلص مع ثقل أفكاره في ذهني.  
- هذا العام سنخترق القوانين ومعنا حجتنا، فالمتلاشي

الذي اختاروه يرفض التعاون معهم، كل ما عليك أن تبقى هنا تحت حراستنا حتى يفوت يوم عيدهم، وبعدها تحضر معنا محاكمة مجلس القضاة بين العالمين فتشهد أنك لم تكن تريد خوض هذه المغامرة، أنت أول متلاشٍ يرفض عرضهم، وهذه فرصتنا لننقض اتفاقنا.

ترتعد أوصالي بخوف مبرر وأنا أشعر بمجساته اللاسعة تتحرك حوله فيبدو كعقرب أسود ضخيم، أنا من أوقعت نفسي في هذه الورطة، لماذا رفضت عرض شهاب؟! - نادم؟! -

فكرته تلسعني كسوط من نار فأكاد أكذب، لكنني أدرك أنه قد لا تكون هناك جدوى من الكذب هنا فلا أدري إلى أي مدى يمكنهم قراءة أفكارني، قرصه المعتم يتوهج بطيف أحمر خفيف فأحاول الفهم، لا ريب أن الأحمر هنا يعني الرضا على عكس هناك - كن معنا أيها المتلاشي، عندما يجسر أهل هيولان الأولى

عامهم هذا ستكون أول خطواتنا لغزو عالمك، ساعتها سنأخذك معنا، ستكون رمزنا هناك، ولك ما تريد.

الفكرة تثير مطامعي وتجعلني أميل أكثر لهذا المعسكر، لا مجال للمقارنة بين من يريدون رميي عبر الزمن كي آتيهم بما لا أعرف مقابله، وهذا الذي يطلب مني مجرد البقاء معه هنا ثم العودة لعالمي مظفراً.

ويبدو أن فكرتي التي قرأها أعجبته فقد توهج قرصه المعتم  
بالمزيد من حمرة الرضا، وكذلك أتباعه الدُّهم الذين تحلقوا حولي.  
- إذن، تعال معنا في جولة في هيولان الثانية، نمضي الوقت  
حتى ينتهي اليوم مكللاً بخيبة أهل هيولان الأولى.

ضميري يخزني ببعض الوزر شاعرًا أنني - بطريقة ما - قد  
خنت شهاب وأتباعه، لكن من هم أصلاً؟! أولم يختطفوني من  
عالمي قسرًا لأكون قربانهم السخيف هنا؟!  
لهذا نحت أفكارني جانبيًا وأنا أشعر بهرمي ينساب خلفهم  
عبر الموج الذي كان يزداد لونه قتامة كلما ولجنا، حتى شعابهم  
المرجانية كانت تتخذ أشكال الأفاعي والجماجم، عالمهم قد انتزع  
منه الأبيض حقًا كما كان يقول شهاب، ومع هذا بقي له رونقه  
الجداب في عيني، جذاب ولكنه مقبض.

المزيد منهم يتوافدون إلينا فأدرك قلة عددهم حقًا مقارنة  
بأهل هيولان الأولى الذين أسسميهم «الشهابيين» وسأطلق  
على هؤلاء «الدُّهم»، غدًا عندما أعود لعالمي مظفرًا سأكتب عن  
كل هذا، سأحكي لضيء عن هذه المغامرة العجيبة فلتتمع عينها  
بحماسها المعهود، مهلاً! لا أشم رائحتها هنا! لكن لم العجب؟!  
هذا العالم لا يليق بها إنما يليق بظلمتي أنا.

عيناى تدوران في المحيط حولي فأبتين المزيد من البحرىات  
الغرىبة على، كائنات تبدو وكأنها هجىن من نوعىن أو أكثر،

كهذا الشكل العجيب الذي يبدو وكأنه أخطبوط ضخمة إنما برأس أفعى، والآخر الذي يبدو كنجمة بحر إنما بأشواك مدببة كسيوف صغيرة.

- لا تعجب أيها المتلاشي، هذا هو مجال تفوقنا هنا في هيولان الثانية، التهجين، هيولان الأولى يجرمون هذا ويسمونه تشويه الفطرة وطمس الخلق، الحمقى، نسوا أننا أنفسنا هجين من التيولا والبشر، يزعمون أنهم رعاة الفضيلة ونسوا أن قانون الخلق الأزلي أن البقاء للأقوى، ونحن الأقوى. فكرته تشبه هذا «الجناب المظلم» بداخلي فتتوهج عيناى بحماس يبدو أنه قرأه في أفكاري بينما ينساب هرمي أعمق نحو مياهم التي يزداد لونها قتامة، أنظر خلقي لأميز الأخطبوط المهجن وقد التهم نجمة البحر بعد صراع قصير بينهما ليستهي بهما الأمر وقد لدغها لتموت بسمة ويموت هو بطعنة من واحدة من سيوفها المدببة في مشهد قبض قلبي وجعله يلقي إلي بفكرته:

- دع عنك لين القلب، الموت لمن يستحق الموت، الانتقام يرد كرامة المغدور ويبرد الدماء التي تغلي في العروق. فكرته توافق هوى في نفسي فأعاود النظر للمشهد خلفي مع فكرتي:

- يكفي أن كليهما قد مات راضياً وقد نال ثأره.  
- تعجبنى أفكارك أيها المتلاشي، ستكون خير تابع لنا.

رحلتي تستمر معه عبر عالمهم الذي تزداد عتمته كلما توغلنا، أشكال الكائنات هنا تبدو مقبضة أكثر، ما هذا؟! تبا! إنها سمكة «القرش العفريت» بشعة الشكل والنادرة جدًا، قرأت عنها يومًا بخرطومها الطويل الذي يحتوي على مجسات حساسة للمجال الكهربائي المنبعث من فرائسها، لكنها هنا أكثر بشاعة بلونها البني القاتم وهذه الحراشف التي تغطيها، وأخيرًا بلسان الأفعى الذي يخرج من فمها غزير الأنياب. تنقبض أمعائي بتقزز وأنا أميز كذلك العديد من أسماك «الينفوخ» التي أعرفها والتي تبدو ككرة مغطاة بالدبايس السامة، لكنها كانت تملك عينين حمراوين كالدم ينزف منها سائل أخضر لزج.

أدور بعيني يمنة ويسرة فأميز المزيد من الكائنات الهجينة غريبة الشكل، ها هو ذا «خيار البحر» بجسمه اللزج الذي يمكنه تشويبه عندما يشعر بالتهديد، فيمكنه التخلي عن بعض أعضائه الداخلية عن طريق الخروج من فتحة الشرج، ويتم إعادة إنشاء الأجزاء المفقودة من الجسم بسرعة عن طريق جداره الخارجي الذي يتكون من نوع خاص من الكولاجين يمكنه من إسالة أعضائه، كل هذا أعلمه لكن ما أراه الآن غريب حقًا وأنا أميز سيلان جسده وإعادة تكوينه إنها لما يشبه عنكبوتًا ضخماً بأذرع لا متناهية العدد.

أشعر بشيء ما يمس الهرم يبدو كأعشاب بحرية لطيفة  
المظهر، لكنني أترجع بعنف وأنا أميز كونها مجرد «تنين بحر  
مورق»، هذا الذي يموه نفسه بالاختفاء بهذه الطريقة، لكنه الآن  
كان يتخلص من تنكره ليبدو لي ذيله شبيهًا بعقرب.

المزيد من الكائنات الهجينة بشعة المظهر، الحبارات مصاصة  
الدماء، الشعاب المرجانية التي تشبه الجحاشم.  
أي جحيم هذا الذي أجد نفسي فيه؟!  
أخيرًا يصل بنا الهرمي إلى جزيرة مرجانية مثلثة تناظر  
شبيبتها لدي «الشهابيين» إنما كانت أصلاً لها تبدو أبوسية  
شديدة السواد، هذه التي تحلقوا حولها، لا لم يرفصوا متشابكي  
المحسبات كالشهابيين، بل كان يلدغ بعضهم بعضًا فيتقافزون  
بحركات موجوعة، إنما كان صدى ضحكاتهم السادية المتلذذة  
بما يفعلونه تدوي كالسياط داخل رأسي.

يسقط بعضهم صرعى لكنهم لا يهتمون، وحده الأدهم  
الأعظم بقي يراقب من بعيد بدكاء، حتى علا صوت فكرته أخيرًا:

- يكفي هذا.

أحدهم يركل أشلاء رفيقه بينما تتعالى ضحكاتهم رنانة  
من جديد داخلي فتكاد تصيبي بالعثيان، قبل أن يتقدم الأدهم  
الأعظم ليفعل أغرب ما توقعته.

أحد مجساته اللاسعة يتلوى بسرعة رهيبة أمام عيني ثم

يتصلب فجأة في شكل سيف حاد، هذا الذي كان يهوي به الآن فوق كل ضلع من أضلاع مثلثهم المقدس فيكسره، لتتحول جزيرة مرجانهم المقدسة لأشلاء يركلونها جميعًا بأطرافهم بينما تتعالى ضحكاتهم السادية من جديد.

- لا أقداس في هيولان الثانية، نحن نصنع قُدينا، نبجله، ثم نحطمه لنصنع غيره، أول طريق القوة أن تتحرر من أغلال عبوديتك لأي شيء، الرأس يغير اتجاه انحنائه حسب صاحب القوة، الولاء فقط...

فكرته تنقطع برأسي وأنا أراه يسقط فجأة أمامنا!  
ماذا حدث؟! أحد أتباعه قتله بنفس الطريقة التي شق بها أضلاع جزيرةهم المقدسة منذ قليل

يرتعد قلبي بهلع وأنا أتوقع غضبة بقية أتباعه، لهذا كانت صدمتي عنيفة وأنا أراهم يتحلقون حول قاتله وأفكارهم يعلو صوتها بداخلي يعلنون الولاء للأدهم الأعظم الجديد.

هو الذي تقدم نحوي وقد توجه قرصه المعتم بالأحمر الظافر:  
- أرايت أيها المتلاشي؟ هذا هو قانون القوة هنا، لا يهم كيف ستصل، المهم أن تصل.

يقولها ليرفع مجساته اللاسعة حوله بشكل مهيب، تدور بسرعة خرافية حوله فتضرب الماء بعنف أمامه، ثم يتحول كل منها لسيف حاد بلون الأبنوس، كل منها يلوح مهددًا في اتجاهه،

فينحني الدهم حوله في وضع بدا كالسجود.  
حلقي يجف وأنا أرى فيه صورة مجدي، غريب، كامل، قمر،  
بل وأنا، لو كنت أنتمي لهذا العالم لكنت أدهم بلا جدل.

+ بالضبط أيها المتلاشي، أنت منا، ولنا.

فكرته تلسعني كالسوط فأكاد أسقيه فكرتي لولا أن سمعت  
هذا النفير الصاخب حولنا والذي كاد يصيبني بالصمم، أحاول  
رفع كفي لأذني لكنهما لا يزالان مقيدين فتعلو صرختي رغماً  
عني لترتد لكمة بأمعائي، ماذا يحدث هنا؟! أخبروني.  
هرمي يزداد تقلصاً حولي حتى يكاد يخنقني وقبودي تزداد  
اعتصاراً لمعصمي وكاحلي، تماماً كالمرّة السابقة هرمي يتقلب  
ويتقلب عدة دورات متتالية فينتابني الدوار المعهود وأنا لا  
أدري مصيري، من الذي يفعل هذا الآن؟! هيولان ثالثة هذه  
المرّة؟! هل صرت لعبتهم!؟

أفتح عيني أخيراً عندما أشعر باستقرار هرمي لأجدني قد  
عدت إلى هيولان الأولى وبالتحديد أمام كهف الزمن بتياراته  
المتسارعة فينقبض قلبي بترقب، أمام ناظري أجد معركة جديدة  
تنشب بين الفريقين، الدهم الذين تتحول مجساتهم لسيوف حادة  
والشهابيين الذين تبدو مجساتهم كصواعق ماسية، الأعداد تتزايد  
من الفريقين والأفكار من كليهما تتزاحم برأسي فلا أكاد أميز شيئاً.  
- ابتعد أيها المتلاشي عن فجوة الزمن، أنت أدهم مثلنا، لن



يجبروك على فعلها. (من الأدهم الأعظم)

- لست أدهم، لو كنت كذلك لما دعوناك لتكون قرباننا،

خلاصنا وخلصك هناك، (من الشهاب الأعظم)

رأسي يكاد ينفجر والنداءات من الفريقين لجذب ولائي  
لأيهما تتزايد.

- لا تفعلها، لست بحاجة للحرب في نهر الزمن، لخوض

حرب ليست لك، كن معنا وعد لعالمك غائزًا منتصرًا. (من  
الأدهم الأعظم)

- أي غار ستحملة على رأسك لو تيسيت في هلاك عالمك!؟

نقطة واحدة من الحياة تدرس دمك كله. (من الشهاب الأعظم)

لا تزال النداءات من كلا الفريقين تتوالى على رأسي الذي

يكاد ينفجر من فرط ما تلسعني أفكارهم كالسياط وسط هذه

الحرب، ماذا أفعل!؟ لمن أنتمي!؟ أنا يونس الذي غرق في قاع

ظلماته للأبد!؟ أم..!؟

- معصمك أيها المتلاشي.

فكرة شهاب الأعظم تجتاحني وسط المعركة فأرفع معصمتي

لأجد القيود حولها قد تلاشت، البقعة البيضاء تعاود تشكيلها

هناك فلا أفهم المغزى، مهلاً، بل أفهمه.

رائحة ضي! الآن أميزها حولي من جديد، فيرتج كياني كله

وأنا أتابع معركة الفريقين بالمزيد من التشتت والهلع، ورغماً عني

أرى رؤوس الدهم تتشكل لوجوه مجدي، غريب، كامل، وقمر!  
فيما تتشكل رؤوس الشهابيين لوجوه جابر، نجية، يافا، ضي، و..  
دياب! دياب! هل ساحتته على التلاعب بي؟! هل وضعته في هذا  
المعسكر؟! ماذا عني أنا؟! أي رأس سيحمله وجهي!؟

عيناى تسعان برعب حقيقي وأنا أرى شهاب الأعظم يستقط  
أمامي بضربة غادرة من أحد الدهم فيتعلق الشهابيون حوله  
يدافعون عنه، فيما أرى رأسه لا يزال يتلون بين وجوه أحبتي.

صوت الصراع يعلو بداخلي أكثر يمزقني بين الفريقين فلا  
أعلم حقاً لمن منها أريد الانتهاء.

- لن يسعفكم الوقت، يومكم أوشك على الانتهاء دون  
قربان. (من الأدهم الأعظم)

- سنحيا بالأمل لآخر لحظة. (من الشهاب الأعظم)

- الأمل بضاعة الخاسرين. (من الأدهم الأعظم)

- بل يشرى المؤمنين.

فكرة شهاب الأخيرة تصيبني فأجده لا يزال ساقطاً أرضاً

وحوله أتباعه يذودون عنه باستماتة، فتتفض روحى أخيراً ليعلو

صوت فكري وسط المعركة:

- أيها الشهابيون.. أنا معكم.

أشعر بصاعقة تضرب هرمي فلا أدري من فعلها منها،

هرمي الذي عاد للتدحرج بي قبل أن أشعر بهذا السائل الذي

يتدفق حولي فيغمرنى حتى رأسي، الغريب أنني لم أكن أشعر  
بالغرق بل بالتطهر، قيود كاحلي كذلك تتلاشى، فأتطلع لبقعة  
معصمي البيضاء التي عادت تختفي كأنني ما عدت بحاجة إليها.

- اغتسلت بهائنا المقدس واستعرت منا هبة الخلود، فابدأ  
رحلتك في نهر الزمن، عد لنا بمثلث الخلاص.

- عليك اللعنة أيها المتلاشي، عسى أن يكتب عليك التيه في  
نهر الزمن.

تنساب الأولى داخلي مهبية حازمة خنونا فأدرك أنها من  
شهاب، بينما تلسعني الثانية كسوط حاقق فأدرك أنها للأدهم،  
لكن أفكاري كلها تتلاشى وأنا أشعر بهرمي يذوب حولي، فوهة  
كهف الزمن تبدو لي وكأنها نبتلعي، أصرخ رغماً عني فلا ترتد  
صرختي داخلي هذه المرة بل أسمعها تدوي حولي، أدور وأدور  
في دوامات غير متناهية حتى يسقط جسدي أخيراً فوق أرض  
يابسة، صحراء واسعة قد خلت من كل شيء.

أرفع وجهي نحو أشعة الشمس التي اشتقتها، فلا أدري  
هل أضحك أم أبكي.

هي إذن حياتي الأولى هنا، اختباري الأول.

## \* في نهر الزمن \*

\*\*\*

يا عزيزة يا بنت السلطان، لو يتغير الزمان،

وقابلتني في أي مكان،

كنت أعشق من غير ما تقولين

\*\*\*

أدور ببصري في الصحراء الواسعة حولي، رمال بيضاء  
ناعمة، شمس دافئة لا حارقة، رائحة عطرية لا أدري مبعثها،  
أحرك أطرافي أطمئن لحررتي، فيروني تصاؤل الحجم الواضح،  
هل عدت طفلاً؟! تبا! أنا عار تماماً! بقعة معصمي البيضاء عادت  
تختفي وحدث بداخلي يجبرني أنها ستعود بعودتي لميولان الأولى، لا  
أشعر بالتعب ولا بالجوع إنما بالعطش الشديد، والخرج من عربي.

خيال قادم من بعيد يجعل شعر جسدي ينتصب بتحفز، إنه  
كهل معمم طيب الملامح بزي غريب من قطعتين إحداهما تشبه

عباءة قصيرة وبأسفلها سروال، قماش ملاسه يبدو لي غريباً عما  
اعتدته، وكذلك خفاً قدميه بتصميمها البسيط جداً والقديم

جداً جداً، ينحني ليحملني بتعجب نحو قلائم يتحرك بي فتختفي  
الصحراء حولنا تدريجياً ليظهر العمار، بيوت بتصميم بسيط غاية

في القدم لكنها تبدو أنيقة، شوارع نظيفة يتحرك فيها الناس فوق  
الدواب بثيابهم المهندمة رغم قدم طرازها مع عائمهم التي علت

رؤوسهم، تتسع عيناى بانبهار وأنا أشعر أنني أعيش فيلماً تاريخياً على أرض الواقع، أراقب الوجوه بتمعن حتى يصل بي الكهل لبيته المحاط بحديقة واسعة، تستقبله جواريه فيبادرن لمساعدته في خلع عباءته ونظراتهن الفضولية نحوي لا تقل عن نظراتي المندهشة بهن، لكنه يصرفهن ليهرع إلى زوجته مليحة الملامح ليناولها إيبي شارحاً بأسف أنه قد وجدني مرمياً في الصحراء، المرأة العطوف تضمنني بحنان فأشعر أن ملاحظتها تسدل لمامح نجية، ألتفت نحو الرجل فيهبأ إلي أنه كذلك صار يحمل ملامح جابر، المرأة تغسلني بنفسها في حمام البيت بالإبريق المعدني الذي ينساب مازة دافئة فوق جسدي، تلبسني هذه الثياب برائحها المسكية التي تمنحني شعوراً بالحميمية، تطعمني وتعقد علي من حنانها فأنام قرير العين بين ذراعيها، لم أعرف هذا الشعور منذ زمن بعيد، لهذا نمت على هذا الخاطر: شكراً أيها الشهابيون، كنت أحتاج هذا حقاً.

في أي عصر أنا؟! وأي بطولة قد أحققها ها هنا؟!  
الأيام تحيب شطر سؤالي الأول بينما تبخل بالثاني.  
ها أنذا يكبر جسدي لأجدني في عهد أحمد بن طولون الذي لم أكن أعلم عنه الكثير في حياتي الأصلية، ولم أكن أهتم، لكنني ها هنا أجدني منغمساً في تفاصيل عهده المزدهر، أي - المفترض - الذي رباني من كبار التجار في العاصمة الجديدة «القطائع» والتي

بناها أحمد بن طولون على جبل «يشكر» بين الفسطاط وتل المقطم، عشت هذه السنوات التي تلت تولي ابن طولون حكم مصر في عيش رغد بنفس اسمي يونس، أحمد بن طولون كان رجل دولة من الطراز الأول، اهتم بالعمارة والزراعة والصناعة والعلاج، وأنشأ وسط المدينة مسجده الشهير المعروف باسمه للآن، والذي اشتهر بمئذنته الملوية التي تشبه مئذنة مسجد سامراء.

أما عني فقد وجدتني أنشأ مرفهًا كثيرًا، والداي المفترضان اعتنيا بي كأنني ابنهما الحقيقي ولم يبخلا عليّ بعلم ولا مال، حياتي هنا أكثر هناءة من حياتي الحقيقية خاصة وقد التفتيت - لتوبي - بضئ! لم يجربني الشهابيون أنني سأراها هنا أجل، رأيتها في السوق، تبدو رقيقة الحال تنتقي بعض القماش الرخيص من بائع بدا مثلي مأخوذًا بجملها، الوقح يراوغها بالسعر وقد بدا لي وكأنه قد مال على أذنها يستر إليها بما يسوؤها، فأجد نفسي أتحرك كالقذيفة نحوها كي أحميها منه، لكنها كانت قد تركته لتسير في طريقها، أراقبها لأجدها تدخل بستان بيت عظيم، لم أكثرث وأنا ألهف حول السور الذي اعتلته لأهبط داخل البستان، لن أهدأ حتى أراها وأعرف من هي هنا. أسمع صوت بكائها خلف إحدى الشجيرات، فأتحرك نحوها بخفة لأبتسم وأنا أملا عيني من ملامحها، فتخرج كلمتي دون وعي مشبعة بمشاعري:

- حبيتي!

تشهق بعنف وهي تقفز مكانها بعدما سمعتني، تهتم بالصراخ

لكنني أكمم فمها ببعض الرفق هامسًا:

- اهديني، لن أؤذيك.

- ترمقني بنظرة مذعورة تتسع معها ابتسامتي وسؤالي

الساذج - يسبقني:

- ألا تذكريني؟! ألا تعرفيني؟!!

ترمقني بنظرة مندھشة ثم تهز رأسها بحيرة فأرفع كفي عنها

لأسمع صوتها

- شكلك يبدو مألوفًا، أنت صديق السيد؟!!

- أنت قريبته؟!!

- جارته.

الضيق يكسو ملامحي لكن الهاتف يعلو فجأة حولنا:

- ضي.. السيدة تريدك.

فتهمس هي بذعر وهي تدفعني بعيدًا:

- ابتعد.. لو رأوك هنا سيقتلوننا معًا.

- لن تكوني بعد اليوم إلا لي.

أقولها لأفي بوعدني بعدها بقليل، فلا يمر الغد إلا وقد

اشتريتها من سيدها لتكون لي.

لم تكن جاريتي فحسب في هذه الحياة، بل كانت صديقتي  
وكاتمة أسرارِي، عدا سر «هيولان» الذي احتفظت به لنفسي  
بالطبع، أعتقتها وتزوجتها وعشت معها سنوات لم نرزق فيها  
بأطفال.

مصر الطولونية كانت أجهل كثيرًا مما تخيلت، وطن أحببت  
العيش فيه ربما لأن العدل كان يسودهم دون تفریق بين واحد  
وآخر، أبي - المفترض - هنا كان شديد التقوى، جعلني أحفظ  
القرآن في حلقة مسجد ابن طولون، وظالمًا كان يؤسني على  
تفريطي في قروض ديني، لكنني كنت أكره ويكره معي هذا  
الحاجز غير المرئي بيني وبين شعائر الدين، كنت لا أزال أرى  
وجه الشيخ غريب على ملامح كل إمام وداعية، عملي بالتجارة  
مع أبي جعل لي العديد من الصلات بالعباس بن أحمد بن طولون  
- أحب أبنائه إليه - لهذا وجددتني رغبًا عني أنضم لبطانة العباس  
من يثق في حصافة رأيهم.

دخلت قصر الحكم ولا أدري كيف تبدلت أحوالي بعدها،  
مات أبوأي - المفترضان - وقد أوصيا لي بشروة وفيرة، لكنني  
أهملت التجارة، فعقلي صار مشغولًا بكرسي الحكم.  
لدي المال والزوجة الصالحة والذكاء الذي مكنتني من أن  
أكون أهم الثقات في بطانة العباس بن أحمد بن طولون، الأيام  
تمر بي في بلاط القصر وثقة العباس بذكائي تدفعني للمزيد من



الطموح، أعرف أن مهمتي هنا لأجل «هيولان» تنتظر مني بطولة ما، بطولة أن أعيش حياتي كما يخدم مثاليتهن، أخلص لديني ووطني وحببي، لكن هذه الفكرة توارت رويدًا رويدًا خلف ضبابات من شهوة السلطة التي تملكني ها هنا، الفكرة تختمر في رأسي لكنني أنتظر الوقت لتنفيذها، أصارح بها ضي وهي بين ذراعي في ليلة دافئة فتنتفض هاتفة باستنكار:

- ما الذي تفكر فيه؟ تؤلب الرجل على أبيه؟!
- لا تفكري في الأمر هكذا، فكري فيما سنجيبه من خلف هذا.
- لا! اتق الله! ستكون فتنة.
- بل غيبته العمر.

أقوها وقد غلب طمعي كل ما دونه، نشوة السلطة تسري في دمي فأود تجربة هذا الشعور، بينما ترمقني هي بنظرة آسفة طويلة ناسبت قولها:

- تغيرت كثيرًا! ليس في هذا الشأن فقط، سمعتهم يقولون

إنك تنتوي الزواج من تلك المرأة.

فأنكسر رأسي ببعض الخزي:

- زواجي منها سيعزز علاقتي بالعباس، تعلمين أن قلبي لا

يتسع لخب غيرك.

دموع الخذلان تلمع في حدقتها لكنها تهمس باستسلام

عاتب:

- افعل ما بدا لك، ما أنا إلا جارية أعتقتها.

أكاد أهتف بها ألا يليق بها هذا الحديث وأنها بعيني ملكة النساء،  
إنها يمنعني كبريائي وطمعي فيما أرجوه، فأكتفي بعناقِي المملك لها،  
لكنها تعطيني ظهرها أخيراً، ثم تكون هذه آخر ليلة أراها فيها.

أجل، اختفت بعدها تمامًا فلم أعثر لها على أثر، كأنها قد  
عوقبت بحرمانِي منها، الأيام تمر بي وحيدًا بعدها إلا من سلطان  
شيطاني يلوح لي بالمزيد من الوعود، لهذا لم أكذب أعلم عن خروج  
ابن طولون إلى الشام واستخلافه ابنه العباس مكانه - شريطة  
ألا يتجاوز أوامر وزيره الواسطي - حتى أوعزت إليه بخطتي، لم  
أكن وحدي، بطانة العباس كانت إما حاسدة تمنى زوال نعمته  
أو جبانة تخاف بطش أبيه، أشرنا عليه بالاستقلال بأمر نفسه  
والتمرد على أبيه بإتيان برقة ففعلها.

- يونس! أبي علم بعصيانِي وتمردِي على أوامر وزيره  
الواسطي، منذ عاد إلى مصر وهو يرسل إلي بالمكاتبات يريد مني  
طلب الصفح منه والعودة لإمرته.

يقولها لي العباس ذات يوم طالبًا مشورتي لكنني أرد بحماسة:  
- إياك أن تفعلها، شأنك ليس بهين كي ترضى بكونك مجرد  
تابع للقائد حتى ولو كان أباك، كن أنت القائد، أنت لها.  
أقولها ثم أشير عليه بقصد إفريقية كذلك بدلاً من العودة  
لأبيه، فيسير إليها محاولاً التهادي في خطتنا للتمرد، لكن جيش

العباس ينهزم أقبح هزيمة ويقتل من أصحابنا خلقٌ كثير فنضطر  
للعودة إلى برقة، وأخيرًا أخذنا أسرى إلى أبيه ابن طولون.

ماذا فعل ابن طولون!؟

حبس ابنه العباس في حجرة في داره إلى أن قدم باقي  
الأسرى من أصحابنا، فلما قدمنا أحضرنا أحمد عنده والعباس  
معنا، العباس الذي كان يرمقني بنظرة ساخطة تتهمني بدفعه  
لكل هذا.

- هكذا يكون الرئيس والمقدم!؟ كان الاحسن لو أنك كنت ألقيت  
نفسك بين يدي وسألت الصفح عنك وعنهم، فكان أعلى لحلك وكنت  
قضيت حقوقهم فيما ساعدوك وفارقوا أوطانهم لأجلك.

يهتف بها ابن طولون بصوته المهيب المستنكر مخاطبًا ابنه  
المطرق بخزي فيرتعد جسدي وأنا أشعر بقرب عقابي، لو قتلوني  
هنا فستكون نهايتي وخزي جديد للشهابيين في هيولان.

- عقابك مني أن تُضرب مائة مقرعة.

يهتف بها ابن طولون للعباس قبل أن يمضي لتنفيذ حكمه  
فيه بيده ودموعه التي تجري على حال ابنه تناقض قسوة عقابه  
هذا، قبل أن يلتفت نحوي وأصحابي مردفًا:

- وأنتم تقطع أيديكم وأرجلكم.

يسقط قلبي بين قدمي وأنا أرى الجنود يدفعوننا لتنفيذ الحكم  
فينا، الألم الذي عاناه جسدي لم يكن يساوي شيئًا أمام شعوري

باحتراري لنفسي، لقد خسرت ضيّي، وخسرت رهان الشهابيين  
عليّ، السنوات تمر بي ثقيلة في السجن تجتاحني حسرة خيبيتي،  
أسمع بعدها أن ابن طولون قد مات، يهرم جسدي وأشعر أن  
نهايتي في هذه الحياة قد اقتربت.

- الفاسق بونس يجتصر في زنزاتته، أحضروا طبيب  
البيمارستان.

أسمع أحد الحراس يهتف بها ذات صباح فأوقن أنها محطتي  
الأخيرة ها هنا، دقائق قلبي تحفت رويداً رويداً فلا أكاد أتبينها،  
أسمعهم يؤكدون موتي، يدفنون جسدي ويهيلون عليه التراب،  
الرعب يتملكني للحظة لكنني أشعر بلسعة حارقة على عنقي  
كأنه أحد محسات الشهابيين الصاعقة، لأدرك وقتها أنها إشارة  
الإخفاق في هذه الحياة، الدين، الوطن، الحب، لعنة الظلمة في  
مثلثي لا تزال تلاحقني للأسف، وقد آن الأوان لحياة جديدة،  
عبر نهر الزمن.

BOOKS

## الضال

\*\*\*

حياة تلو حياة أفضيها هنا عبر نهر الزمن

كلها تبدأ بي طفلاً لقيطاً في صحراء بتشلتي أحدهم كي  
يربيني عنده، لتمضي بي الأيام، فأكتشف أن لعنة ظلماتي تغلب  
لهفتي للعودة مظفراً إلى الشهابيين في هيولان.

عشت حياة في عهد الإخشيديين، كيف كانت!؟

من التقطني كان لصاً وقاطع طريق، فتربيت في كنفه لأكبر

مثله، يموت ويورثني مهنته، علمت عن مصر الإخشيدية ما لم

أكن أعلمه في حياتي الأصلية، كيف أن محمد بن طعج مؤسس

هذه الدولة كان تابعاً في بداياته للدولة العباسية، وقد أقر فيها

الأمن والأمان وتمكن من درء المطامع الفاطمية بمصر فمحه

الخليفة لقباً فارسياً تشريفياً هو «الإخشيد» تكريماً له، لكنه ما

لبث أن سار على درب ابن طولون فاستقل بمصر عن الدولة

العباسية واستولى على أغلب أجناد الشام عدا حلب، ثم ضم

الحجاز كذلك لدولته، وبعد وفاته تولى أبو المسك كافور شئون الحكم وكان مملوكًا حبشيًا اشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارًا كما يزعمون وجعله خادمه الخاص، لكنه انفرد بالحكم بعد موت الإخشيد، فكان أول حادثة في نوعها في التاريخ الإسلامي للخادم المملوك الذي يبلغ قمة الملك.

حياتي في مصر الإخشيدية كانت سلسلة من البغي، كنت أقطع الطرق على المارة الأمنين لأسلب منهم أموالهم، حتى كانت تلك الليلة التي هجمت فيها على تلك القافلة التي بدت لي عظيمة المغنم.

- اهبطوا هذا الهودج وأحضر والي كل من فيه.

أهتف بها بين رجالي وأنا أراهم قد أحكموا سيطرتهم على الوضع، لأراها أخيرًا وقد ترجلت من هودجها لتقترب نحوي مع من بدا كأبيها، عرفت من عينها رغم أنها كانت تخفي وجهها خلف نقاب وجهها، ضئي!

أحاول نزع نقابها عنها فتسبقتني يدها قبل كف أبيها الذي

هوى على وجهي بصفعته ومعه عبارتها:

- أبعد يدك، أنا حرة لا يكشف وجهها.

تضطرب ملاحي بين رغبتني في استعادة هيئتي أمام رجالي وبين ضعفني الطبيعي نحوها، فأنحني لأحملها فجأة بين ذراعي ثم أركض بها نحو خيمتي القريبة وقد كفاني رجالي هم أبيها الثائر.

- لا تؤذوه، قيدوه فحسب.

أهتف بها بصرامة ثم أدخل خيمتي لأنزلها هي أرضًا  
إزاء مقاومتها الشرسة، أنزع عنها غطاء وجهها لأملأ عيني  
من ملامحها الحبيبة، أضمها نحوي باشتياق كاسح لأفاجأ بها  
تغافلني فتنتزع خنجري من عنقه ثم تدفعني بقوة لتضع نصله  
فوق عنقها بأنامل قوية لا تهتز:

- أموت حرة ولا تدنسني يدك.

أشهب بفرع وأنا أحرك كفي لها مهدئًا:

- ارمي ما بيدك ولك مني ما تريد.

- وكيف أتق بكلمة من مثلك!؟

- أقسم لك أنني لن أؤذيك، اطلبي أي ضمانة.

تدمع عيناها الصافيتان وقد بدا التردد على ملامحها فأعاد هتافي:

- لو تركت أهلك يعاودون رحلتهم آمنين وأعدت لهم

أموالهم فهل تقبلين الزواج مني!؟

- بماذا تهذي!؟ أنا ضي ابنة الشيخ المقدسي أتزوج من

لص!؟

- لا خيار لك، حتى لو قتلت نفسك الآن فسأقتل أهلك

واحدًا واحدًا بعدك.

أقولها بقسوة طبيعتي في حياتي هذه مدرّكًا بذكائي أنها لن

تلبث أن توافق.

وقد صدق ظني، أبوها قد قبل زواجي منها فداء لأهله  
متعجبًا من طلبي الغريب للزواج من ابنته وقد كدت أملكها  
رهينة، لكنه اشترط توبتي.

والعجيب أنني وافقت، كنت مستعدًا لفعل أي شيء كفي  
أحفظ بها في هذه الحياة، انتقلت بعدها للعيش معهم قرب  
مسجد الفقاعي في سفح جبل المقطم، والذي بناه كافور  
الإخشيد ليكون وسطه محراب من طوب وهو أول محراب بني  
في مصر.

الشيخ المقدسي والدها كان تقيًا ورعًا يقصده الناس للفتوى  
في مسألتهم، ورغم دناءة لقائنا الأول لكنه احترم توبتي وزادني  
قدرًا في عينيه، ورغم حبي الشديد لابنته لكن صورة «الشيخ  
غريب» بقيت حائلًا بيني وبينه، بيني وبين الدين عمومًا،  
امتنعت عن السرقة والنهب وقبلت العمل البسيط الذي منحني  
إياه، لكنني كنت لا أزال غارقًا في ظلماتي، أؤدي صلاتي وصيامي  
رياء وسمعة، فقط لأكسب وده وود ضي.

ضي التي كانت جنتي في هذه الحياة كذلك، حبها الذي  
أغدقته علي بلا حدود تبرره عبارتها:  
- كفاني أن ألقى ربي وقد كسبت أجر توبتك.

فأجتر مرارة خذلاني لها محاولاً أن أفهم أي بطولة يمكن أن  
يحملها لي هذا العالم ويريدها مني الشهابيون في هيلان.



مصر الإخشيدية كانت كمصر الطولونية وطن مزدهر عظيم  
أحب العيش فيه، لكنه ما لبث أن نخر فيه سوس التناحر بين  
الحكام، وما زاد الوضع سوءاً هو تدهور الأحوال الاقتصادية  
إزاء حالة الجفاف التي أصابت البلاد لتسعة أعوام متتالية بسبب  
نقص فيضان نهر النيل.

الجفاف الذي صاحبه وباء عظيم هلك معه الكثير من الناس  
كان منهم الشيخ القديسي و.. ضي.

- لا تبك يا يونس، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، أقسم  
لي إنك لن تعود بعدي حياة الضلال مهما ضاق بك الحال.

كانت هذه آخر كلمات ضي قبل أن تموت بين ذراعي متأثرة  
بالوباء، لكنني لم أستطع أن أمنحها قسمة حية ولا ميتة.

المشهد المروع لها ولأبيها ولكل من أصابهم الوباء وهم  
يحفرون لهم الحفر ويرمون فيها جماعات ثم يردم عليهم التراب  
بقي يظلل كوابيسي.

شعوري بالحزن يتقلب لستخط عظيم على كل شيء، أهجر  
المدينة لأعود لخلوتي في الصحراء، أطلب العون من جماعتي  
القديمة لأعود لسابق حياتي من السلب والنهب، وهل بقي لي  
من حل سواه وقد ساءت أحوال البلد أكثر؟! \*

أعلم أنني خنت ضيّ بعودتي لضلالي القديم، ليس ضي  
فحسب بل والشيخ الذي أقسمت له بالتوبة، والوطن الذي ما

عدت أرى فيه سوى خراب تنعق فيه الغربان، لكنني عاجز عن فعل العكس، ساعوني أيها الشهابيون، لن أنال بطولة هنا.

الأيام تمر بي متشابهات، يهرم جسدي وينقلب عليّ رجالي فيتركوني وحدي، الشيخوخة تنخر بسوسها في جسدي، في خيمتي في الصحراء يبدو الموت ضيفاً منتظراً يذكرني بنخباتي، أنفاسي تتناقل وكذلك خفقات قلبي الواهنة في هذه الإشارة المعهودة لانتهاى حياتي.

لأسمع صوت أحدهم يدخل خيمتي بفتش ثيابي، يرفع ذراعني ثم يتركه فيتهاوى مع صوته الآسف:

- جثة، لس مع شيء  
أشعر بمن يحملني لأجرب شعور الدفن من جديد، شعور مقبض تزيده قسوة إحساسي بهذه اللسعة الحارقة في عنقي مشيرة لفشلي في هذه الحياة كذلك.

### حياة أخرى في عهد الفاطميين، كيف عشتها؟! \*

نفس البداية لطفل لقيط عاري الجسد في الصحراء يتشلني رجل يشبه ملامح جابر إنما تبدو عليه أمارات الثراء، لم تكن له زوجة تحتمل غرابه أطواره، قرباني وحده لأكبر في كنفه وأدرك أنه عالمٌ شديد الذكاء حد الجنون، احتملت طباعه الغريبة وتجاربه التي كان يجربها خلسة في قبو قصره، ولا أنكر أنه علمني الكثير

عن علوم الفلك والهندسة والرياضيات، كان يعدني لأكون خليفته في علمه، ورغم أنني كنت أخاف شطحات جنونه لكنه كان يحمل قلب طفل جعلني أحزن حقاً لموته الوشيك بعدها.

مات وترك لي إرثه من العلم والمال، فشعرت أنني أستعيد مجد يونس القديم، كنت أتعلم في دراسة ما علمني إياه، واستهواني علم البصريات لسبب لا أعلمه، حتى انتقل بي المقام في العاصمة الجديدة التي أنشأها الفاطميون وقتها شمال القسطنطينية، وأسموها القاهرة.

عشت أيامي في هذه الحياة بين مجالس العلم أراقب تحول مصر السياسي والاقتصادي، العصر الفاطمي شكّل امتداداً للعصر الذهبي للإسلام، وكان الجامع الأزهر ودار الحكمة مركزين كبيرين لنشر العلم والدين، الدين الذي بقيت على حالي منه فلا أقرب ولا أبتعد بل أكتفي بحاجزي غير المرثي بينما.

وكعهدي لم أفهم بالضبط دوري في هذه الحياة، لكنها كانت

فرستي الذهبية للعيش كعالم من جديد.

إلى أن علمت بأنه سيأتي للقاهرة، من؟! الحسن بن الهيثم نفسه! أجل، التقية في بيته ورأيه رأي العين، غداً عندما أعود لعالمي الحقيقي سأروي لتلاميذي بفخر عن هذه المغامرة.

كيف جاء ابن الهيثم من البصرة محل ميلاده إلى مصر؟!!

يقولون إنه قد ذكر يوماً «لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملاً»

يحصل النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان» فوصل قوله هذا إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، والذي دعاه إلى مصر لتنظيم فيضان النيل، وأمهده بما يريده للقيام بهذا المشروع.

في هذه الفترة تعرفت إلى الرجل عن قرب لأجده شديد التواضع غزير العلم، الرجل لم يكن عالماً محدود العطاء، بل كان عبقرياً في علوم الرياضيات، الفيزياء، الفلسفة، الفلك، والهندسة. ورغم أنه كان شديد التواضع لكنني شعرت بغيرة طبيعية منه وجدتها تتنامى داخل صدري.

هل كان هذا هو اختياري هنا؟! يبدو أنه كان كذلك، فها أنا ألتقي ضي في هذه الحياة، كانت خادمته.

قدمت لي شراب الضيافة أول مرة في بهو بيته، فشعرت بنفس الحب الذي يحمله قلبي لها في كل حياة أعيشها، هذا الشعور الكاسح الذي يفقدني عقلي ويجعلني أهرع فقط لأكون جوارها، أصطنع الأعداء فقط لأراها بأي طريقة.

- تزوجيني.

قلت لها ذات يوم لتلتمع عيناها بتلك الفرحة كأنها لا تصدق أن يقدم ثري مثلي على الزواج بخادمة مثلها بهذه السرعة، ربما لهذا تناقصت فرحتها لبعض الشك مع جوابها:

- أبي مسافر لبعض شأنه في بلاد العراق، انتظر عودته ثم حدثه بشأننا.

قالتها لتبتعد عني بعدها قاطعةً عليّ أي طريق لرؤيتها حتى  
كدت أجنّ، لكنني حاولت شغل نفسي بابن الهيثم، تقربت إليه  
أكثر لتزداد غيرتي منه أكثر وأكثر.

حتى جاءتني فرصتي الذهبية عندما علمت أن الخليفة  
يطلب منه تنفيذ أفكاره التي زعمها بتنظيم فيضان النيل، لكن  
ابن الهيثم وقف عاجزاً ليكتشف استحالة تنفيذ أفكاره مقارنةً  
بضعف الإمكانيات وقتها، فطلب من الخليفة أن يمهله  
التفتحه ليلتها في بيته وقد بدا الغم على ملامحه، سألتني المشورة  
فراودتني الفكرة بسرعة

- ادع الجنون، ساعتهما لن يطالبك أحدهم بشيء.

كنت قد قرأت أن هذا ما فعله ابن الهيثم حقاً في زمانه، لهذا  
لم أتعجب سرعة موافقته على اقتراحي، لكنه ما كاد يفعلها حتى  
أجبره الخليفة على البقاء في منزله، فكرس ابن الهيثم حياته لعمله  
العلمي، وخلال هذه الفترة كتب كتابه «المناظر».

- هل جننت؟! تريدني أن أسرق كتاب سيدي!؟

تهتف بها ضئي باستنكار ذات ليلة وقد التفتتها حفية عن

الآعين خارج بيت ابن الهيثم لأهمس محاولاً إقناعها:

- ليست سرقة، أريد فقط معرفة ما وصل إليه كي أقارنه بما

كتبته أنا.

أقولها كاذبًا، فقد كان كل ما يملؤني وقتها هو الغيرة منه  
والمبلغ الخرافي الذي وعدني به جاري الصائغ اليهودي لو منحته  
الكتاب ليعود به إلى بلاده، لتدمع عينها بمزيج من غضب  
وخيبة:

- ألهذا طلبت لقائي؟ وأنا ظننتك تريد سؤالني عن عودة أبي؟!  
- بالطبع سأفعل، زواجي منك لا علاقة له بهذا الأمر، أنا  
أحبك يا ضي.

أهمس بها بصدق لكنها ترمقني بنظرة أخرى خائبة ثم تولي  
هاربة تلاحقها نداءاتي التي تتردد مخذولة.

المزيد من الجنون يصيبني فأتحين الفرصة لأفتح البيت خلسة  
كي أسرق الكتاب مستغلًا خبرتي بشغراته، ولم أكد أصل لغرفة ابن  
الهيثم التي يحتفظ فيها بالكتاب حتى ألقى الحراس القبض عليّ  
متلبسًا بفعلتي لأصطدم بظل ضي المختبئة خلف أحد الأعمدة  
ترمقني بنظرة مزدوجة بين ذنب وعتاب، فأفهم - حانقًا - أنها  
من وشت بي، أفر منهم بشق الأنفس لأهرع نحو جاري اليهودي  
أطلب منه العون فيخبثني في قبو بيت قديم يملكه.

الأيام تمر بي متناقلة وأنا أشعر بالمزيد من الخزي والغضب،  
لماذا تخذلني نفسي هكذا في كل حياة؟! لماذا أكون دومًا بهذا  
السوء؟ وإلى متى سأظل أتخبط في مثلث ظلماتي؟! لم أكن أظن  
الرحلة عبر نهر الزمن ستكون بهذه الصعوبة.

أفكاري تنقطع وأنا أشعر بهذه الزلزلة في الأرض تحتي،  
أسمع صوت الانهيار فأدرك ما يحدث، البيت القديم يسقط  
ليدفنني - حياً- تحت أنقاضه.

الموت البطيء يسحق هامتي من جديد، واللسعة الحارقة  
على عنقي تعلن فشلي الحديد في هذه الحياة.

فرصة أخرى أيها الشهايبون! امنحوني فرصة أخرى، أنا  
مثلكم مللت الخذلان.

وها هي ذي فرصة أخرى في حياة جديدة في مصر الأيوبية،  
كيف عساها تكون؟!

بمستواي السابق لا أستبعد أن ألتقي صلاح الدين الأيوبي  
نفسه فأستزره ليجز عنقي ويعلقه على مقدمة رمح.

التفاصيل المكررة ذاتها، الطفل اللقيط في الصحراء تلتقطه  
يد كريمة، لكنها هذه المرة كانت ضي.

أجل، طفلة كانت في العاشرة تقريباً من عمرها لم تكف تلمحني  
حتى انحنيت لتحملني ثم قبّلت جبينني بحنان لتعيدني مكاني وتعدو

هاربة، هكذا ظننتها فعلت قبل أن ألمحها تعود ومعها ذلك الرجل  
الذي كان يشبه جابر، فلم أحتج كثيراً من الذكاء لأدرك أنه سيكون

أبي المفترض هنا، لكن هل ستكون هي أختي؟!

أكبر في بيت الرجل لتجيب الأيام على سؤالي، الرجل هرب  
بابنته الوحيدة من القدس بعدما استعمرها الصليبيون ففقد أهله

وزوجته ليستقر هنا بتجارته في مصر، كانت هذه أسعد حياة  
عشتها ربما لأن ضي لم تفارقني منذ دخلت ها هنا، وربما لأن  
والدها كفل لي معيشة كريمة، حفزني لدراسة الطب فأجدها،  
علمني ركوب الخيل ورمي السهام فنشأت فارسًا لا يشق له  
غبار كما يقولون، أبي هنا لم يكن تاجرًا ماهرًا فحسب، بل كان  
تقيًا ورعًا حتى أن أهل الحي قدموه لإمامتهم على أهل وطنهم.  
- لم أرزق بأبناء سوى ضي، لكنني أشهد الله أنني اعتبرتك  
ابني منذ تكفلتك، ولا أطلب من الله إلا أن أراك في الجيش الذي  
يجرر بيت المقدس، شاهديها في رؤياي بالأمس بعد صلاة الفجر،  
وظني أنها بشرى خير

يقولها لي أبي - المفترض - ذات يوم بنبرته الدافئة فتبتسم  
ضي وهي ترنو نحوي بخجل لتهدف بحماسها العذب:  
- عادة ما تصدق رؤياك يا أبي، ألم تعلم بما حدث؟! الوقح

«رينو دي شاتيون» بعدما استقر في حصن الكرك الذي يقطع  
الطريق بين مصر وسوريا اختتم مصائبه بأن احترق الهدنة وشنّ  
غارة على قافلة متجهة من القاهرة إلى دمشق يقال إنها لأخت  
السلطان صلاح الدين، فنهب بضائعها وسرق أهلها، السلطان  
صلاح الدين يكاد يحترق غضبًا، وقد طالب ملك القدس «جي  
دي لوزينيان» بالإفراج عن الأسرى وتعويض الضرر ومحاسبة  
الناهب، لكن الملك لم يجازف بمسّ تابعه القوي رينو، سمعت



من إحدى صديقاتي المقربات في القصر أن السلطان صلاح الدين قد أعلن الحرب على مملكة القدس.

- الله أكبر! اللهم امدد في عمري كي أشهد صلاة في بلدي

وأدفن فيه.

يهتف بها أبي رافعاً كفيه بحرارة نحو السماء فأبتسم بارتباك وأنا لا أفهم حقيقة شعوري، شيء ما بداخلي قد تغير في هذه الحياة، ربما هو خوفي من الخذلان كما فعلت في المرات السابقة، وربما هو شيء قديم دفن بداخلي يثر بعض الحمية نحو بيت المقدس بالذات، وربما هو التحامي الحقيقي بضي وأبيها كعائلتي ها هنا، هذا الشعور الذي تضخم عندما بسط الرجل أحد كفيه فوق كتفي والآخر فوق كتف ضي لينقل بصره بيننا للحظات ثم يقول بها بدا كأمر:

- سأزوجكما الأسبوع القادم، لو قامت الحرب فكونا معاً

كزوجين.

تشهق ضي بخجل لتهتف باعتراض وإه:

- أنا أتزوجه؟! كيف؟! أنا أخته التي تكبره بعشرة أعوام،

بل أعتبر نفسي أمه وقد ربيتها معك.

أختلس نظرة جانبية نحوها، فما تقوله ظل حاجزاً بيني وبينها

طوال هذه السنوات، لهذا لم أصارحها يوماً بحقيقة شعوري مكتفياً

بعلاقتنا الأخوية، لكن الرجل عاد يهتف بمكر حان:

- تظننني غافلاً عن سبب رفضك للخاطبين طوال هذه

السنوات!؟

ابتسامتها الخجول تبدو كشمس اعتراف مشرقة تسطع فوق

ملاحي أنا، فأشعر لأول مرة بحرية أن أنظر إليها دون قيود من الذنب.

أتزوجها لأقضي معها أهناً أيام عرفتها قبل أن يذاع الخبر بين

الناس أن صلاح الدين يجمع الجيوش لملاقاة الصليبيين.

شيء ما بعقيدتي الدينية في هذه الحياة مختلف، ربما لأن أبي

هنا كان يحمل ملامح جابر مع عطر يافا التقيية، لأول مرة أعيش

حياة في نهر الزمن لا أرى في رجل الدين وجه الشيخ غريب.

لهذا لم يكن عجيباً أن وجدتني أنتظم في صلواتي وإن بقي

في صدرتي شيء من التيه القديم، لكنني في هذه الليلة توضأت

بأحسن مما علمني أبي، صليت ركعتين من القيام بللت فيها

دموعي لحيتي، كنت أشعر أن الظلمة الأولى التي طالما أهلكني

عتمتها تنقش عن نور طفيف يبرغ بين ضلوعي.

- تبكي يا يونس!؟

يقولها أبي وقد قلق من نومته لأواجهه بملاحي المرتبكة وقد

هملت بالنهوض من موضع صلاتي، لكنه يثبتني مكاني.

- ما الذي يؤرقك يا ابني!؟ تخاف الجهاد!؟

- أخاف نفسي. وساوسي.

- وبماذا تحدثك وساوسك!؟

أصمت قليلاً متردداً عن الجواب، مشاهد من حياتي الأصلية تجتاحني بعنف، لتتوقف جميعاً أمام مشهد واحد: قدم مجدي فوق جسد جابر الميت، فأجدني رغماً عني أسأله السؤال الذي كدّر حياتي الحقيقية بعد هذه الواقعة:

- هل الله عدل؟! أين عدله وهو يذر الظالمين يتمتعون في الدنيا بطغيانهم؟! بينما يموت الأبرياء دون ذنب؟! ما قيمة صلاتنا وصيامنا لو لم يكونا درعاً لنا من مصائب الدنيا؟! ما جدوى الدعاء لو كان سيرُد إليّ خائئاً بخدول؟!  
دموعي تختلط بكلماتي وجسدي كله يتفض هذه اللوعة الحارقة كأنني - لتوي - أشهد موت جابر من جديد.

فيهب الرجل رأسه متفهماً ليربت على ركبتي بجوابه:  
- الله عدل؟! ومن أعدل من الله حكماً يا يونس؟ لكن الدنيا دار اختبار وليست دار عدل، العدل هناك في الآخرة حين ينصب الميزان أمام الخلائق فلا تُظلم نفسٌ مثقال ذرة، صلاتنا وصيامنا وعبادتنا قد لا تكون درعاً لنا من مصائب الدنيا، لكنها تقينا عذاب الآخرة، الدعاء قد يؤخر الحاجة لا يعلمها إلا الخالق، العاقل من يدرك اختباره فيجتازه، والأحمق من تشبته السبل فيضل ويشقى.  
- والظلم؟ كيف نمحو مرارة علقمته من الحلق؟  
- باحتساب الأجر عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

يقولها ثم يتلو قول الله تعالى: (الذين قال لهم الناس إن

الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء).

يتوقف هنا عامداً كأنها يدعوني للتدبر وكأنه أساء تأويل كلماتي لخوف من الحرب، لكنني أشرد في كلماته وأنا أحاول تطبيقها على واقعي الحقيقي، بينما هو يردف بنفس النبرة الغارقة في إيمانها:

- مهما عظم البلاء تأكد أن خلقه رحمة، إن الله العظيم قضى برحمته أن يجعل مع كل عسر يسرين، أليس هو القائل في كتابه «إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً»؟ سُئِنَ اللهُ في كونه أن يتناحر الحق والبغي إلى قيام الساعة، هناك تبلو كل نفس ما أسلفت، فلا يعزبك حلم الله على الظالمين، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

- والمظلوم؟! ألا يحق له أن ينعم بثأر؟! أن تبرد ناره بانتقام؟! كيف يثق في عدل الله وهو لا يراه؟!  
- كما يتنعم بفضله الذي يراه.

يقولها بحسم ليردف بيقين مؤمن:

- تدري معنى الإيمان؟! الإيمان الذي جعل إبراهيم يترك زوجته وولده في وادٍ غير ذي زرع، الإيمان الذي جعل أم موسى تلقي رضيعها في اليم، الإيمان الذي يملوك باليقين فيما عند الله بأكثر مما تمسكه بين كفيك، هذا الإيمان الذي يجعلنا نمضي في حياتنا وكل ما يعيننا هو السعي، أما الحصاد فهو فضل الله يؤتيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء، فقط تذكرها يا يونس، متى اشتد

عليك البلاء، إيمان قلبك هو كنزك ودرعك، وما دون ذلك رماد تذرره الرياح.

كلماته الصادقة تنير قسبًا بداخلي فأعاود قولي الشارد بتردد:

- لو أحب الله عيدًا ما ابتلاه.

- بل يبتليه ليختبره، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، يبتليه ليظهره حتى يكاد يمشي على الأرض وليس على ظهره خطيئة، يبتليه لينزع من قلبه حب الدنيا فلا يبقى فيه سوى حب رب الدنيا والآخرة.

ابتسامة خافتة تشرق فوق شفهي وأنا أشعر أن هذه الليلة ستبقى فارقة في حياتي، لئست حياتي هذه فحسب بل لو قُدرت لي العودة لعالمي، كلماته فتحت لي أبوابًا ظننتها ستبقى موصدة في وجهي للأبد، لهذا عندما قمت بعدها معه لصلاة الفجر - فتمعذر هو بمرضه ليقدمني لإمامة الناس في الصلاة - شعرت أن هناك شمسًا ما قد أشرقت في روحي لن تغرب بعد اليوم أبدًا.

- الله أكبر.

حين نطقتها هذه المرة لم تكن باردة مُدعاة كما سبقتها في حياتي هذه أو ما سبقتها من حيوات، لكنها كانت حارة، مزلزلة، كأنها أسمعها تدوي داخلي بصدى مهيب.

الله أكبر من جهلي، من ضلالي، من هواجسي، ومن ظلمتي. ولأول مرة منذ غادرت هيولان الملح «ضلع الثلث الماسي»، أجل، عندما عدت من الصلاة وأويت لمخدعي وجدته فوق

وسادتي، لكنني عندما مددت يدي نحوه اختفى.

هل يعني هذا أنني على الطريق لكنني لم أنته بعد؟!

الأيام التالية كانت شديدة التلاحق في سرعتها، كان صلاح الدين قد فتح باب التطوع في مصر لمحاربة الصليبيين، فالتحقت بالجيش كطبيب وتطوعت معي ضيّي وأبي رغم كبر سنه، عرفت «صلاح الدين» عن قرب لأدرك أي قائد عظيم كان، أول ما فعله كان توحيد المسلمين إما باللين أو بالقوة، قبل أن يشرع في اجتياح قلعة الكرك، عبرنا نهر الأردن ثم سرنا إلى تل كفر سبت، وحاولنا الاشتباك، لكن الصليبيين رفضوا القتال، فاستولينا على طبرية قاطعين على العدو طريقه إلى الماء.

أجواء معركة حطين الحقيقية اختلفت بحرارة أحداثها عما قرأته في الكتب الباردة، هأنذا أراي مع جنود المسلمين نحرق الأعشاب والشجيرات في ساحة المعركة ونستولي على عيون الماء عملاً على تعطيش الصليبيين وإجبارهم على الاشتباك الذي كانوا يرفضونه، فلما وصلوا إلى السهل بين لوبيا وحطين هجمنا عليهم ففروا إلى التلال القريبة، ليشرق الصباح التالي علينا وتبدأ المعركة في قيظ شديد ونقص في مياه الشرب، يلتحم جيشانا بالسهم أولاً ثم السيوف والرماح، جيشهم يتهاوى ويستسلم منهم الألوف، يلجأون لمناورة فيخترقون صفوفنا بما ظنوه ثغرة لدينا فاندفعوا إليها لتطوقهم جيوشنا بجسارة، وينهزموا هزيمة كارثية.

وأخيراً فتحت لنا الأبواب، وخفقت راية صلاح الدين

الصفراء فوق القدس.

أتحدث عن جيشنا بضمير الجمع رغم أن دوري لم يتجاوز  
تطبيب الجرحى، هل يمكنني الاعتراف أنني - ولو أتيتحت  
الفرصة- لم أكن سأشارك في القتال؟! جبان؟ ربما هو خوفي  
الطبيعي من أن أقتل في هذه الحياة فأفنى للأبد، وربما لم يبلغ إيماني  
بديني ووطني هذا الحد الذي يدفعني للمجازفة.

- الحمد لله الذي مد في عمري وأعادني لوطني مظفرًا.  
كانت هذه آخر كلمات أبي تلتها الشهداءتان وهو يلفظ آخر  
أنفاسه، ورغم الحزن الذي تملكنا أنا وضي بعدها، لكن عزاءنا  
أن الرجل حقق أميته ومات في وطنه بعد تحريره.  
- دعنا نبق هنا يا يونس، نفسي لا تطاوعني أن أترك أبي  
وحده في قبره.

تقولها لي ضي وقد همّ جيشنا بالعودة لمصر، فأكاد أجيها  
لمطلبها لكنني أتذكر ضلع مثلثي المفقود فأقول بما ظننته الأصلح:  
- عاهدت أبي أن أكون خادمًا لجيش وطني، متى يحتاجني  
يجدني.

تردد قليلاً لكنها تطيعني فنعود مع الجيش لمصر، أعيش  
معها حياتي هنا بوضع يقارب المثالية، ولا أزال أبحث عن ضلع  
مثلثي، حتى يتوفى صلاح الدين.

- يا لحسرتي على حال البلاد بعده! تقسمت دولته بين أبنائه  
وأخيه العادل بعد وفاته، وصاروا يناطح بعضهم بعضًا.

تقولها لي ضي ذات يوم وهي تودعني عند باب بيتنا الجديد حيث استقر مقامنا بينما تساعدني في ارتداء عباقي وتناولني عصاي، فأبتسم لها وأنا أتأمل صفائرها التي غزاها المشيب، أول حياة نشيخ فيها معاً، وليت العمر الحقيقي يمنحنا هذه الفرصة، أتفكر في حديثها قليلاً، الملك العادل جعلني طبيبه الخاص منذ ذاع صيتي في أواخر أيامي كأمر طبيب في مصر والشام، الرجل كان يثق برأيي كثيراً خاصةً وقد داويته بأفضل مما فعل من سبقني.

- يونس! أنت في طريقك لبيت الملك العادل والرجل يثق بك، اصدقه النصيحة فلا خير فيك إن لم تقلها ولا خير فيه إن لم يسمعها، ذكره أن أخاه صلاح الدين رحمه الله لم ينتصر إلا عندما وحد المسلمين حوله، حذره من الفرقة والتناحر بينه وبين أبناء أخيه.

- تتحدثين وكأنني وزيره، مالي أنا وحديث الملوك والسلاطين؟! أنا طبيب عجوز لا يفقه إلا علوم الداء والجسد.

ترمقني بنظرة عاتبة لا أحتملها، فأميل عليها لأمنحها قبلة تشبه الاعتذار قبل أن أتركها لأغادر نحو قصر الملك، حديثها يشغلني طوال الطريق، لكنني لا زلت أنحفي خلف درع جبني، تراها هذه هي المشكلة؟! لهذا لم أعثر على ضلع مثلي بعد في هذه الحياة؟! الحياة!؟

تُفتح لي أبواب القصر ليجد لي الملك مكاناً بين بطانته، يصرف الجمع ثم يتكئ على كرسيه فأفتح صندوقي لأستخرج



أدواتي وأتفحصه، ثم أقول مطمئناً:  
- أطال الله في عمرك يا مولاي.

لكنه يتنهد بحرارة ثم يقول بنبرته المهيبة:

- تعلم بالتأكيد عن النزاع بيني وبين أبناء أخي! بعد كل ما قدمته للدولة يكون هذا فقط نصيبي من إرث أخي صلاح الدين؟! هل هذا عدل؟! لن أفرط في حقي ولو تطور الأمر لحرب بيني وبينهم.

تفرج شفثاي وأنا على وشك الاستماع للصيحة ضي، فأكد أصدقه الرأي، لكن خوفي يكبلني فأتحنج لأنافقه بقولي:  
- نعم الرأي وأبلك، الله ناصرك ومؤيدك.

يرمقني بنظرة راضية ثم ينادي حاجبه فيأمرني بالمزيد من المال الذي أتناوله برضا، أغادر قصره شاعراً بالذنب، لن أخبر ضي عن جبني وتخاذلي، رأيي لم يكن ليشكل فارقاً من الأساس، من أنا وسط الملوك والقادة؟! حشرة ستطوؤها أقدامهم.

أفكاري تنقطع وأنا أشعر بألم حارق في صدري، دقات قلبي

العجوز تتفافز حد الجنون وجفثاي ينسدلان رغماً عني، هل هي النهاية؟! هل سأموت هكذا في هذه الحياة دون أن أنال ضلع مثلي؟! وحدي في الطريق دون ضي؟! أسقط مكاني لأترقب التسلسل المعهود ككل مرة، أشعر بهم يدفنونني ثم يهيلون فوقني التراب، أتلقى اللسعة الحارقة على عنقي تصفعني بفشلي بحسرة مضاعفة هذه المرة وقد كدت أصل، كدت أصل.

## مثلث الأقداس (الضلع الأول)

\*\*\*

نفس التراب الناعم في صحراء واسعة وتلمسه كفي المنتم،  
فأكاد أبتسم وأنا أشعر أنني - ربما - فهمت المغزى من أن يكون  
هذا المشهد الثابت بداية كل حياة، يروح الناس ويأتى الناس، يذهب  
ملك ويحل محله غيره، لكن يبقى تراب الوطن هو هو، ليس ملكًا لأحد  
ولا رمزًا للشخص بل هو قدسٌ منزهٌ تفتديه جميع الأرواح.  
هذه المرة يلتقني رجلٌ ما يرتدي ثياب العبيد ليتوجه بي  
نحو بيت سيده، يبدو أنها ستكون حياة قاسية.

عوملتُ معاملة الأرقاء تنقلني الأيادي من يد ليد، من  
بيت لبيت، لا ملامح لجابر ولا لنجية في هذه الحياة، رأيت من  
صنوف المهانة ما رأيت، لكنني بقيت أصبر نفسي أنني لن أخسر  
ضلع المثلث في هذه الحياة مهما كان الثمن.

هذه الفترة من حكم مصر كانت شديدة التقلب، سقطت  
الدولة الأيوبية بعد الفارقة بين أبنائه وإخوته وانقسموا لدويلات  
يجارب بعضها بعضًا، فهزلت صورتهم أمام الصليبيين من

الغرب والتتار من الشرق، ووصل بهم الأمر إلى أن يستعينوا بهم على إخوتهم، واستمر الأمر كذلك إلى أن انتهت الدولة الأيوبية وبدأت دولة المماليك، اشتراهم الملك الصالح أيوب وعلمهم فنون الحرب والقتال ليقوي بهم ملكه، لكن نفوذهم ازداد يوماً بعد يوم حتى صاروا أمراء الجيش وقادته.

ذات يوم كنت جالساً في تلك البقعة القصية البعيدة عن العمران والتي أحتل فيها بنفسني كلما ضقت ببطش سيدي الذي يزداد يوماً بعد يوم، ظهري يثن بأثر جلداقة التي وصمني بها بالأمس عقاباً لي على أمر تافه، هذه الحياة تدو أصعب حياة عشتها، فقر وعبودية ومهانة، بلا جابر ولا نجية ولا ضي.

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لا أدري كيف جرت على لساني هكذا بيسر وكأنها أقولها طوال عمري، أتسم برهية وأنا أرفع وجهي للسماء الصافية في هذا الوقت من النهار، عيبٌ عليك ألا تذكرها سوى الآن وأنت المسمى "يونس".

قلبي يرتعد بخشية وأنا أبتهل بدعاء خاشع لم أعرفه منذ كنت في جيش حطين، اللهم الثبات، اللهم الهداية، لا تكن لي لخدلان نفسي هذه المرة.

صوتٌ ينبعث جوارِي كأنه صليل سيفين يتقارعان يجعلني أنتفض مكاني لأهرع نحو مصدره، فأرى فارسين يقتتلان،

أحدهما ملثم ضئيل البنية مقارنة بصاحبه، لكن ضرباته تبدو شديدة القوة حقًا، أقف مكاني مخبئًا خلف شجرة ما ومكتفيًا بمراقبة القتال بينهما والذي تشتد ضراوته حتى يستطيع الضخم الإطاحة بسيف صاحبه الضئيل، فيسقط الأخير أرضًا ليسقط معه لثام وجهه.

- امرأة! كنت أقاتل امرأة!

يهتف بها الضخم بغيظ وعيناه اللتان تقدحان الشرر لا تستران إعجابه الغامر بها، نفس الشعور الذي كنت أشاركه إياه بالضبط، فقد كانت ضي.

- دعني لشأني وخذ الصندوق.

تهتف بها بشراسة فتيية مشيرة لما فوق جوادها القريب والذي بدا وكأنه ما دفع هذا اللص لمطاردهما من الأساس، ليرد ساخرًا:  
- منذ تولت شجرة الدر الحكم وقد تجرأت علينا النساء،

صدق ملوك الأيوبية لما عيرونا بقولهم إن كنتم عدتم رجلكم فأخبرونا نرسل لكم من رجالنا.

لكنها تعيد عبارتها بصرامة:

- دعني لشأني وخذ الصندوق.

فيتقدم منها ملوحًا بسيفه:

- ولماذا أكتفي به ما دام يمكنني امتلاككم معًا!؟

يقولها بخبث وهو يميل عليها فلا أستطيع الصبر أكثر،

أستغل عنصر المفاجأة لأباغته فأقفز فوق ظهره لأسقطه أرضاً،  
أنتزع منه سيفه ثم أثب واقفاً لأسلطه فوق عنقه.

- لا تقتلني! خذ الصندوق وسأكتفي بالمرأة.

يهتف بها لاهتاً بخوف فأصدر صوتاً ساخراً الأردله بضاعته:

- ولماذا أكتفي بواحد ما دام يمكنني امتلاك الاثنين؟!

أقولها وأنا أرفع السيف بحركة تهديد مردفاً:

- لو رأيتك بعد العد لثلاث فسيرتوي هذا الرمل بدمك.

ينهض ليعدو هارباً وتهم ضي بفعل المثل مستغلة الشغالي به.

- انتظري.

أهتف بها برفق فقلقت نحوي بعينها.

يوماً ما سأخبرها أنني عشقت عينها في كل حياة، أنني

أحببتها كل مرة وكأنها أول مرة.

- اتق الله! أنا امرأة حرة اضطررتني الظروف للسفر، لو

تركنتي فلن أنسى صنيعك.

- أخبريني فقط أين تقيمين.

أقولها مسقطاً سيفي كي أطمئنها فتنهد بارتياح ثم تعبد

اللثام لوجهها هاتفة من خلاله:

- لا يمكنني إخبارك.

تقولها ثم تعتي ظهر حصانها برشاقة لتجذب لجامه نحوها

وتنطلق يلاحقها هتافي:

- قلتُ أنك لن تنسي صنيعي، كيف سأجذك؟  
- أنا سأفعل.

هتافها يطرب أذني قبل أن تخفي من أمامي فأبتسم بسعادة  
وأنا أراها أول فرحة حقيقية لي في هذه الحياة، لكنني أطلق صيحة  
ذعر وأنا أتبه لمرور الوقت، سيدي سيقتلني.

بضع جلدات قاسية نالها ظهري من جديد هذا اليوم، لكنني  
كنت راضياً أنني رأيت سيدة قلبي، هي وعدتني أنها ستجديني،  
ترى هل ستفعل؟

الناس في مجلس سيدي يتحدثون كعهدهم، فلا هم لهم  
سوى الثثرة عن شئون الحكم، كانت شجرة الدر أرملة  
السلطان الصالح أيوب قد تولت الحكم بعد وفاة زوجها،  
فأثار ذلك حفيظة الأيوبيين لكونها امرأة، وكى تستقيم الأمور  
تزوجت الأتابك عز الدين أيك، وتنازلت له عن الحكم، لكن  
بقيت لها كلمتها خلف الستار، واليوم قُتل السلطان أيك وصار  
الملك لابنه الصغير المنصور.

- وهل سيحكمنا طفل؟!  
يهتف بها سيدي باستنكار، بينما أصب له كأس شرابه ليرد  
صاحبه بتهكم:

- حكمتنا النساء ثم الأطفال، لكن لا أظن الوضع سيبقى  
هكذا، قطز نائب السلطان لن يبقى مجرد مساعد.

- مللت هذا البلد بتقلباته، كيف تنشط تجارتي في هذه الظروف؟ سأصفي تجارتي هنا وأسافر للشام.

يهتف بها سيدي بسخط ثم يركلني بلا سبب، فينسكب الإبريق من يدي فجأة على الأرض لتتألني لعناته، أمضي لأنظف الأرض وقد راودني خاطر مزعج، هل سأأخذني معه إلى الشام؟ لكن الفرج جاء بأقرب مما توقعت، الرجل صفى تجارته وباع بعض عبيده قبل سفره إلى الشام، وقد كنت أنا عن باعهم من عساه سيدي الحديد؟ يا لله! إنه العالم العزيز عبد السلام نفسه! لم أصدق نفسي وأنا أراه لأول مرة بملاحة السمحة ونظرته التي تميز الحزم بالرحمة، أستعيد تاريخ الرجل المجيد الذي أعرفه، كيف اشتهر بمناصحة الحكام، ومعارضتهم إذا ارتكبوا ما يخالف الشرع، وقد قاده ذلك إلى الحبس بعدما كان خطيباً في الجامع الأموي بدمشق، لكنه هاجر إلى مصر واستقبله الملك الصالح أيوب بحفاوة بل وعينه قاضي القضاة، كما تولي الخطابة في جامع عمرو بن العاص، لكنه سار على نفس النهج كما كان في دمشق لا يخشى في الحق لومة لائم مهما كلفه الأمر، وله في مسألة بيع أمراء المهاليك شأنٌ جليل.

- ما اسمك؟

يسألني العز مقاطعاً أفكاره بصوته الوقور، فأتقدم نحوه مأخوذاً بهالة هيئته:

- عبدك يونس .

- أنت حر لوجه الله .

يتهلل وجهي للمفاجأة، فأكاد أنحني لأقبل كفيه لكنه  
يسحبها بسرعة قائلاً:

- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أخبرني قريتي عما  
فعلته لأجلها ذاك اليوم إذ أنقذتها من بطش ذاك اللص .

ضي! ضي قريبتة! لكن كيف عرفت مكاني؟!!

- لا أريد الرحيل من بيتك يا شيخنا، دعني معك هنا  
خادمك وتلميذك .

أهتف بها مرءاء يتقبله الرجل بساحته لتسع ابتسامتي وأنا  
أشعر بمزيج الفخر ولذة المغامرة .

- وعدتك أن أجذك وقد وفيت .

تقولها لي صبيحة اليوم التالي وقد التقيتها في حديقة بيت  
العز، كانت تغطي وجهها بلثامها لكنني كنت أحفظ كل  
تفاصيله، فأسأله بدهشة:

- كيف عرفت مكاني؟!!

- ومن غيره يسلم عبيده بالنار؟ لعنه الله!

تقولها مشيرة لهذه العلامة في جيبي والتي وسمني بها  
سيدي القديم المشهور ببغيه فأشعر بمزيج من الحرج والخزي،  
لكنها تردف بنبرة أرق كأنها توأسيني:



- إنها العبودية عبودية القلوب، كم من حرّ استعبده قلبه،  
وكم من عبد يرفرف قلبه حرّاً، وما رأيت منك إلا قلبَ حرّ.

أبتسم لها بكل ما أوتيت من عشق، وبجراحة غريبة على وضع  
كوضعي في هذه الحياة أجدني أهتف لها بحرارة:

- لو كان مثلي أن يتقدم للزواج بمثلك، فأني مهر تطليين؟  
تسع عينها للحظة وكان جرأتي صدمتها، لكنني ألح  
ابتسامتها في نظرتها وجوابها المقتضب:

- صليل سيفٍ في سبيل الله.  
تخفتي بعدها عن ناظري فأبتسم وأنا أنذر نفسي أن أمنحها

مهرها مهما كان الثمن.  
تمر الأيام بي بعدها سريعة فتتوطد علاقتي بالشيخ العز،  
أستغل علمه الوافر فأسأله عما استشكل عليّ من أمور الدين،  
أشعر أن تلك الثغرة التي خلفها الشيخ غريب في حياتي الحقيقية  
يسدها العلم المستبصر رويدًا رويدًا، حتى يهبأ إليّ أن «الندبة  
الهلالية» التي تركها يومًا على صدري لم تعد موجودة.

- تبدو مهمومًا يا شيخخي.  
أقولها للعز ذات ليلة وأنا أساعده في تبديل ثيابه عقب عودته  
من الخارج، فيتنهد بحرارة ليجيب:

- الملك الجديد قطز جمعنا اليوم لمشاورتنا بشأن حرب  
التار، بيت المال خالٍ من الأموال والملك يريد فرض ضرائب  
باهظة على الشعب، وقد طلب فتواي.

- وبمَ أفتيته؟

- قلت له إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم وجزاه له أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد ولكن بشرط، أن يبيع الخاصة من قادة الجيش وأمرائه ما لهم من الذهب والآلات النفيسة، ويقتصر الخندي على سلاحه ومركوبه فيتساوون مع العامة، أما فرض الضرائب على العامة مع تنعم الجنود بالمال والسلاح الفاخر فلا.

أبتسم معجبًا بجزأته رغم أن موقفه هذا ليس بغريب، أو ليس هو الذي وقف من قبل في وجوه الأمراء من المهالك وأفتى بأنهم لا يزالون في حكم الرق ولا تصح ولايتهم، كانت ازمة كبيرة، فقد جن جنونهم وقتها زاعمين أنهم ملوك الأرض، فكيف يباعون كأرقاء؟ لكنه ظل على فتواه حتى بيع الأمراء جميعًا في مزاد كبير ودفع ثمنهم السلطان أيوب وردّه إلى بيت مال المسلمين ليصرف في وجوه الخير، ثم اعتق رقابهم ليصيروا أحرارًا، هذا الرجل لن يكف عن إبهاري.

- الحرب قادمة يا يونس، أدعو الله أن يجعل لي في الجهاد نصيبًا.

- أريد التطوع في جيش الملك المظفر قطز.

أهتف بها بحماسة فيربت على كتفي برضا لتكون هي بداية بطولتي في هذه الحياة، خمسة أشهر تقريبًا احتاجها إعداد الجيش وتجهيزه وجمع المتطوعين كي تبدأ المعركة.

وأخيرًا أخرج مع شيخي العز في جيش المسلمين بقيادة قطز

الذي كان قد أخذ الفتوى من العلماء بعزل السلطان الصغير  
وتولي أمور البلاد مكانه بعدما استفحل خطر التتار.

وها أنذا أرى الملك المظفر قطز وقد قادنا خروجًا من  
الصالحية شرق مصر إلى سهل عين جالوت في فلسطين.

هذه المرة لم أكن أخشى الموت رغم يقيني أنه سيكون نهايتي  
الحقيقية ولن تكون لي فرصة في حياة جديدة، لكنني ولأول مرة  
منذ دخلت نهر الزمن أتمنى شهادة في سبيل الله، لعله تأثر العز  
بن عبد السلام الذي أثرت في صحبته طوال هذه الأيام، أو لعله  
هذا الشعور الغريب الذي ملأني بالقوة وأنا أحاهد تحت لواء  
ملك كقطز قطع رؤوس رسل أعداء التتار وعلقها فوق بوابة  
المدينة في رسالة أرهيت قلوبهم وملأت قلوبنا نحن بالعزة.  
سيفي في يدي يبطش بأعداء الله والوطن يمينة ويسرة،  
ولأول مرة لا يعينني أن أجد ضلع مثلثي، فقد وقرت بطولتي في  
قلبي ولم أحتج لدليل.

وبينما أنا وسط جنود جيش الميسرة وقد تعرضنا لضغط  
شديد في بداية المعركة يزلزلني النداء:

- وإسلاماه! اللهم انصر عبدك قطزًا على التتار.

يصرخ بها قطز بحماسة وهو يخلع خوذته ليرميها في الهواء  
ثم يهجم بنفسه قبلنا على جنود التتار فيشتعل قلبي بالحماسة وأنا  
أزيد من قوة ضرباتي.

نرى جيوش التتار تتراجع نحو بيسان فتتعبهم، لكنهم كانوا قد استطاعوا تجميع قوتهم من جديد، يصدموننا بهجومهم الطاعي، فتأتي صرخة المظفر قطز ثانية لتزلزل الأرض تحتنا:

- وإسلاماه! يا الله! انصر عبدك قطزًا على التتار.

هذه المرة كانت دموعي تملأ عيني وأنا أصرخ بها خلفه، أكررها كأنني لم أعد أفقه من الكلام سواها، السيف يتكسر في يدي من فرط قوة ضرباتي فأتناول غيره، الدم ينزف من جسدي لكنني لا أبالي، اللهم ديني ووطني! ديني ووطني! ديني ووطني! لا أدري كم سيفًا تكسر في يدي ولا كم جرحًا احتمله جسدي، لكنني أسمع أخيرًا هتافات النصر وأدعية شيعي العز بن عبد السلام تبشرنا بالغلبة.

هزمتنا التتار، أول هزيمة ساحقة يتلقونها على أرض مفتوحة توقف توغلهم للشرق.

بل إننا تتبعنا فلوهم ومضينا في انتصاراتنا حتى استطعنا تطهير الشام كله منهم وتوحيد مصر والشام تحت دولة واحدة بقيادة الملك المظفر قطز.

- قتلوا قطزًا!؟

أصرخ بها ذات يوم والخبر يصلنا في مخيم الجنود. كنا في طريق عودتنا من دمشق إلى القاهرة ولم يمض أكثر من خمسين يومًا فقط على انتصارنا.

يقولون إن بعض الأمراء قد تأمروا عليه، بعض الشائعات تنسب الأمر لبيرس لرفض قطز أن يوليه إمارة حلب، وبعضها يرى بيبرس زاعمين أن من فعلوها كانوا ينتقمون لأقطاي ملكهم الذي شارك قطز يوماً في اغتياله فتعرضوا هم للتشرد والاضطهاد بعده، لكن ما يعني بيمن قتله؟ الكارثة أنه قد قُتل، ورغم علمي أن هذا ما كان سيحدث له مما أذكر من معلوماتي التاريخية، لكن معايشة الحدث أرعدت قلبي، مات المظفر! مات غدرًا في عز انتصاره!

- كل نفس ذائقة الموت، لعل موته شهيدًا خيرًا له من أن يعيش مفتونًا.

يقولها لي شيوخ العز مواسيًا، فأتدبر معانيها، لكن حزني على البطل لا يفارقني لأيام بعدها حتى أنني غفلت عن البحث عن ضلع مثلثي.

نعود لمصر فتستقبلني ضي بين فرحتها بانتصارنا وحزنها على قطز، لم أجروا أن أفاتح الشيخ بشأن زواجنا، فقد كانت صدمتي بمقتل المظفر غدرًا توجع قلبي، تعيد لذهني مشهد جابر وقدم مجدي فوقه. يستلم الظاهر بيبرس السلطة فيستدعي العلماء والأمراء لمبايعته، هنا كان دوري لأشهد بطولة جديدة لشيخ العز الذي وقف في وجهه دون خوف قائلاً:

- أنا أعرفك مملوك البندقدار.

يعني أنه مملوك ولا يجوز له تولي السلطة، فأحضر بيبرس ما يثبت أن البندقدار كان قد وهبه للملك الصالح أيوب الذي اعتقه بعدها، وهنا فقط تقدم شيخي لبيايه.

أقضي ليلتها في غرفتي الصغيرة التي خصصها لي الشيخ وقد اعزمت أن أحدثه غداً بشأن زواجي من ضي، شيء ما قد وقع في صدري وجعلني متردداً بشأن البقاء في جيش الظاهر بيبرس، لكن.. - الدين، الوطن، الولاء لها يا يونس وليس لأي شخص، لو بقيت في العمر دقيقة واحدة فاندرها لها فحسب. أحاطب بها نفسي بحسب وأنا أضرب بقبضتي على صدري موقناً أنني قد وعيت الدرمن.

أصلي الفجر بخشوع صار يلازمي بحلاوة وجدتها في قلبي ثم أنام فلا أشعر بشيء، دقائق قلبي تتناقل بهذه الوثيرة التي صرت أحفظها، هل سأموت الآن؟! هكذا بسرعة دون أن أتزوج ضي؟

يبدو أن هذا ما سيحدث فعلاً، فها أنذا أشعر بهم يدفنونني ثم يهلون التراب فوقي، لكنني هذه المرة أجده مشعاً فوق صدري يحتضنه ذراعي بقوة.

إنه هو، حصلت عليه، أخيراً حصلت عليه. ضحكتي تدوي بين ضلوعي وأنا أتذوق لذة المغنم الأول.. الضلع الأول.

## (الضلع الثاني)

\*\*\*

تراه نفس المشهد المكرر للصحراء حولي؟  
لا أدري، أنا لا أرى شيئاً.  
كفي المنمنم يتلمس التراب الناعم تحتي حتى أشعر بأحدهم  
يحملني، يسير بي فلا أعلم وجهتي، لكنني أشعر أخيراً بالماء  
يغسلني، بملمس قطني يحتوي جسدي، بهذه الرائحة العطرية  
الدافئة، وبصوت امرأة تهتف بلهجة قروية ممطوطة النهايات:  
- بارك الله لك يا شيخ «جابر»، من يدري ما الذي كان  
سيصيب المسكين هذا لو بقي ملقياً هكذا في الطريق.  
- أنا قلق بشأن آخر، حركي كفك هكذا أمام عينيه.

يقولها الرجل بتوتر فيعصف القلق بي من جديد وأنا أدرك  
أنني حقاً لا أرى شيئاً.  
- كيف؟! وماله يا شيخ، كلهم بركة، بالله عليك دعنا نعود  
به إلى قريتنا، نربيه مع البنت ولنا الثواب.

أسمع الرجل يوافق بعد صمت قصير لأشعر به بعدها يميل  
على جبينه بقبلة دافئة، لكنني كنت حقاً أشعر بالهلع.  
سأخوض هذه الحياة كيف البصر، لماذا تفعلون بي هذا أيها

الشهابيون؟ لماذا تصعبون عليّ الأمور أكثر؟!

تمر بي سنوات طفولتي ومراهقتي في هذه القرية التي عرفت اسمها، قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية، لم أعرف سبب اختيار هذه القرية بالذات إلا عندما توطدت علاقتي بذلك الصبي الذي انجذب نحوي دونها سبب ليختارني صديقاً رغم ظروف المعقدة، صبي عرفته باسم أحمد الحسيني عرابي.

والده كان عمدة قرينتا، توفي بداء الكوليرا الذي تفشى وقتها وعرابي في الثامنة من عمره، تعرفت إليه أول مرة وقد شرع الصبية في القرية يقدفونني ببعض الأحجار بينما أمشي في الطريق وحدي متجاهلاً أوامر أبي الذي كان يبهاني عن الخروج دونه، لكن عرابي الصغير مهرهم ثم أمسك كفي ليسألني عن بيتي ويعيدني لأمي، كان قد فقد أباه لثوه فشرع بأن مأساتنا مشتركة، ربما لهذا توطدت صداقتنا سريعاً وزادتها الأيام قوة.

كنت أكبره ببضعة أعوام، وبينما تلقى هو تعليمه في الجامع الأزهر في القاهرة، كنت أنا قد حفظت القرآن الكريم في مسجد قرينتا على يد أبي الشيخ جابر الذي لم يبخل عليّ بعلمه، وقد أعدني لأكون خليفته في المسجد، خاصة وهو لم يُرزق من الأولاد إلا بفتاة توفاه الله بعدما وجدني، فاكتفى بي من الولد هو وأمي. لم أرهما بطبيعة الحال، لكنني كنت أشمس وجهيهما فأبتين ملامح جابر ونجية، كذلك فعلت بعرابي الذي كان نافذتي على هذا العالم، ملامحه لم تكن باردة متعجرفة كما تظهرها الصور، إنما



عرفته طيب القلب خفيف الظل.

حياتي - ككفيف - علمتني الكثير، زرعت في الصبر وحب التأمل، عودتني أن أستمع لحدسي وأرى الناس ببصيرتي، خفت حدة طباعي المعهودة وجعلتني أكثر حلماً، لهذا لم أستشعر ضيقي بهذه الحياة رغم كل شيء.

- بارك لي يا يونس! عينوني ضابطاً في الجيش!  
يهتف بها عرابي وهو يدخل عليّ مقامي المعهود في المسجد، فأضحك مستبشراً وأنا أفسح له مكاناً جواري، كان هذا أمراً جلاً وقتها، فقد كانت التفرقة عظيمة بين المصريين والشركس في الجيش، لكن الخديوي محمد سعيد باشا كان قد أمر بالحاق أبناء المشايخ والأعيان بالجيش ضمن جهوده للتسوية بين المصريين والشركس.

- يوماً ما سأخذك معي لـ «المحروسة»! يجب أن تراها.

يقولها وهو يضع في حجري هداياه التي لا ينسى نصيبي منها كلما عاد إلى القرية، فأرد ساخرًا ببعض المرارة:

- أراها؟! \*

لكنه يربت على كتفي هاتماً:

- تراها بعيني يا يونس، أجمل بلاد الأرض.

أبتسم لحماسته وقد وقع هذا الأمر في قلبي موقع التمني، أتوق لرؤية القاهرة أو كما يسمونها المحروسة في هذه الحقبة من الزمن، وأتوق أكثر لمعرفة دوري في هذه الحياة كيف سيكون.

يغيب عرابي عني طويلاً هذه المرة لأسمع أنه قد استفاد من نظام الترقى بالامتحانات فوصل إلى رتبة ملازم ثاني بعد أربع سنوات فقط من الخدمة، ثم ارتقى سلم الرتب العسكرية بسرعة حتى وصل إلى رتبة قائم مقام «عقيد حالياً» وهو لم يكمل عشرين عامًا.

- فخّم «الصاد» يا فتى، وإلا صارت كـ«السين»، هيا انطقها، تصير.

أخاطب بها أحد تلامذتي صبيحة ذات يوم في زاوية المسجد حيث صار مقامي في تحفيظ القرآن خليفة لأبي، فيكررهما الصبي خلقي ليقاطعنا نداؤه:

- افتقدتك يا يونس!

- عرابي

أهتف بها مستبشراً وقد سرني سماع صوته بعد كل هذه الغيبة، فأنهي درسي مع الصبي بسرعة لأسمع صوت عرابي يخفق بسعادة:

- سعيد باشا صار يثق بي كثيراً، تصور أنه أهداني هذا!

يقولها وهو يضع في حجري ما تلمسته بأناقلي ليردف

هو بفخر:

- كتاب عن تاريخ نابليون مكتوب بالعربية.

- يا الله! بارك الله يا صاحبي! تستحق الخير كله.

- لا زلت على وعدي بصحبتك للقاهرة، انو أنت فقط

واستاذن الشيخ جابر.

لكن أبي توفي في هذه الفترة لتمرص بعدها أمي مرضاً شديداً، إحدى قريباتنا تستجلب لنا فتاة تساعدنا، لم تكن خادمة بالمعنى المعروف، لكنه ضيق الحال.

- تريد شيئاً يا شيخ يونس قبل رحيلي؟  
ضي! إنه صوت ضي! تباً لظلام عيني هذا الآن! أقاوم بشدة أن أهرع نحوها كي أتحمس وجهها، فأسألها بصوت مرتجف:  
- ما اسمك؟  
تمنحني الجواب المتوقع فأزدرد ريقني بانفعال مع قولي:  
- هل نامت أمي؟  
- نعم بعدما تناولت طعامها.  
- أين تقيمين؟  
أسألها محاولاً مد جسور الحديث بيننا ليصلني صوتها الخجول:

- بيتنا على أطراف القرية، جوار المسجد الذي تصلي فيه.  
أبتسم أروع ابتسامة عرفتها منذ دخلت هذا العالم وأنا أتمنى في هذه اللحظة فقط لو أعرف كيف يبدو لها شكلي هنا، لا يعنيني كيف يكون شكلها هي، أنا متيم بها على أي حال.  
- هيا يا ضي، عفواً يا شيخ يونس! لم أنتبه أنك هنا.  
يهتف بها الرجل الذي استتجت أنه والدها قبل أن يأخذها معه ويرحل فأدرك - كعهدي - أن رحيلها يأخذ معه قطعة من روحي.

أكاد أتقدم للزواج منها كما أفعل في كل حياة ألتقيها، لكن  
هذه المرة كانت مختلفة، إشفاقي عليها غلب عاطفتي، وكيف لا  
وأنا أدرك أي حياة صعبة أعيشها هنا؟!!

- تزوج يا يونس! أبوك قد مات وأشعر أنني لاحتقته، من  
سيعتني بك بعدي؟!!

تقولها لي أمي كل صباح قبل مغادرتي للبيت فأبتسم ببعض  
الحسرة وأنا أحاول أن أهني نفسي بشئون أخرى، شئون هذا  
الوطن مثلاً!

مات سعيد باشا ليخلفه الخديوي إسماعيل فعود التفرقة  
بين المصريين والشراكسة، ترى كيف حالك يا عرابي؟!!

- مخذول يا يونس!  
يقولها لي عرابي ذات يوم عقب عودته وقد جلسنا على شاطئ  
الترعة ليفضي إلي بما يسوؤه:  
- فصلوني من الجيش

يحكي لي كيف وقع خلاف بينه وبين أحد اللواءات  
الشراكسة، والذي سعى لإقالته يدعوى شراسة الخلق وقدمه  
بسببها للمحاكمة العسكرية، وانتهى الأمر بفصل الخديوي  
إسماعيل له.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وماذا ستفعل؟!!

- سألتحق بوظيفة في دائرة الحلمية، لكنني سأبقى أرفع  
مظالمي للخديوي لعله يقبلها.

يقولها ليتحول يأسه لغضب هادر:

- إنها بلدنا نحن، نحن لا هم، أحوال الجيش لا تسر أحداً.

- اصبر ولا تجزع، عسى الله أن يُجِدِّث بعد ذلك أمراً.

أقولها له مطمئناً ثم نفترق على لقاء قريب، ولم يدر بخلدني

أن يكون اللقاء في عزاء أمي.

رحلت الغالية وتركتني وحدي في هذه الحياة، حتى ضيَّ لن

أتمكن من لقيها بعد اليوم، بأية ذريعة!؟

- تعال معي إلى المحروسة يا يونس، أحتاجك جوارِي.

يقولها لي عرابي وهو يشد على كفي فأتههد متسانلاً:

- وماذا سيصنع مثلي هناك!؟

- تحفظ القرآن للصبية كما تفعل هنا، سأتولى لك هذا الأمر،

لا تقلق.

أتردد قليلاً لكنني أستشعر بحدسي أن دوري في هذه الحياة

يقتضي السفر للعاصمة، لهذا أمنحه موافقتي لنبدأ في تدبير الأمر.

حتى إذا جاءت ليلة السفر وجدت أباضي يزورني ليساعدني

في حزم أغراضي كعهده منذ وفاة أمي، ترددت قليلاً ونفسي

تسوّل لي أن أهمّ بطلب الزواج منها، لكنني فكرت، هي تستحق

الأفضل، ربما كان هذا ما يميز حياتي هذه، المزيد من أنانيتي يُدْفَن

تحت أطلال الواجب.

ليلتها أويت إلى فراشي ليخدش سمعي صوت بكاء خفيض

قرب النافذة، توكأت على عصاي لأتحسس طريقي إلى هناك

لأميز الصوت أكثر.

- من؟! -

صوت البكاء يتوقف مع شهقة خافتة، وقلبي يميز رائحة

حضورها رغم صمتها:

- ضي! ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟! -

صمت مشحون يظللنا وتنتهي عبارتها الراجية:

- لا ترحل.

أنتهد بحرارة وحروفها تشبعتني باعتراف عشق غير منطوق.

- لا بد أن أفعل.

- إذن، خذني معك، لن أجد أفضل منك أعرض

عليه الزواج.

عبارتها تدهشني حد الصدمة، فقد كانت المرة الأولى التي

أصطدم بهذا الوجه الجريء منها.

- أقسم بالله العظيم أنني لن أكون لغيرك حتى لو رفضت،

يشهد ربي أنني لم أنجرأ على قولها إلا خوفاً عليك، لن أهنأ بمقام

وأنا لا أعرف من سيعتني بك بعدي.

- وهل تتزوج المرأة الرجل لأنها تريد العناية به؟! -

- بل.. لأنها تحبه!

يا الله! أروع اعتراف بالحب أناله منها في كل هذه الحيات،

والمصيبة أنني لا أراها! تباً لكم أيها الشهايون! بل.. شكراً،

شكراً لكم!

- عودي لبيتك يا ضي!

- هل ترفضني!؟

سؤالها يبقى معلقًا بيننا للحظات تسيء هي تأويلها فأسمع  
خفيف خطواتها تبعد، لكنني أرفع صوتي قليلًا:

- سأؤجل سفري ريثما أقابل والدك كي نُتِمَّ الأمر.

ضحكتها الخجول تداعب أذني فلا يكاد صداها يفارقني  
طوال أسابيع بعدها، حتى تزوجتها.

لن تنسى أنامل مذاق ملامحها التي تحسستها أخيرًا، قبلتي  
لعينها حبيبي، حتى وإن كنت لا أراها تبقى صورها نقشًا على  
حدقتي لأبطلن.

ألتق عرابي في المحروسة لأدرك أن عدوى الزواج قد  
أصابته، ها هو ذا يقترن بأخت الخديوي توفيق - فيما بعد - من  
الرضاعة، ومن هنا تكون وساطة بعض المقربين من زوجته  
لاستصدار أمر العفو عنه من الخديوي إسماعيل وإعادته للجيش  
برتبته التي خرج عليها.

وجد لي عرابي عملاً شرفيًا بأحد المساجد حيث همي  
بتحفيظ القرآن وعلوم الدين كما أوجد لي مسكنًا جواره، عرابي  
الذي يزداد سخطه على أوضاع البلد يومًا بعد يوم خاصة بعدما  
أصدر ناظر الجهادية «وزير الدفاع حاليًا» عثمان رفقي عددًا  
من القرارات المجحفة للضباط المصريين في الجيش، منها منع  
ترقيتهم واستبدال مواقعهم القيادية بأخرى للشراكة.

سألني عرابي المشورة فاقترحت عليه ترجمة غضبه والضباط  
لمذكرة يرفعونها لرياض باشا رئيس النظار يتظلمون فيها من  
انحياز رفقي للشراكية، والمطالبة بالمساواة بين جميع الأجناس  
في الجيش وزيادة عدده، لكن الخديوي لم يتقبل هذه المطالب بل  
وألقى القبض على عرابي وأصحابه بتهمة التآمر.

تم اعتقالهم فعليًا لبرهة، لكن الضباط المصريين قاموا  
بتحريرهم بالقوة، تدخل القناصل الأجانب لفض الاختلاف  
وإصلاح ذات البين فاستجاب الخديوي لمطالبهم أخيرًا.  
- تبدو مهمومًا يا صاحبي!

أقولها له ذات ليلة وقد استقبلته في بيتي ليرد بضيقي:

- ألا ترى الأمور تزداد سوءًا؟! التدخل الأجنبي في شئوننا  
يزداد، لجوء رياض باشا للعنف الزائد مع المصريين، سوء  
الأحوال الاقتصادية، كل هذا يزداد وطأة.

- إذن قلها ولا تخف! كلمة حق في وجه سلطان جائر.

- نعم الرأي يا صاحبي!

وكانت الثورة العرابية التي التف فيها الضباط حول عرابي  
ليرفض الخديوي توفيق مطالبهم زاعمًا أنهم عبيد إحسانه، ليقول  
عرابي عبارته المشهورة:

- لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا ترانًا أو عقارًا، فوالله الذي  
لا إله إلا هو لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم.

يلتف الشعب حول عرابي فيرضخ الخديوي توفيق لمطالبنا.



- شكلوا حكومة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي  
وجعلوني ناظرًا للجهادية.

يهتف بها عرابي ذات يوم وهو يزورني في بيتي كعهده بفرح  
أشاركه فيه شاعرًا بقيمة ما أنجزه الرجل وصحبه، لكنني كنت  
أتوجس خيفة من القادم، وقد صدق ظني.

فقد تفاقمت الأزمة بين الخديوي وعرابي، واستغلت  
الأطراف الجانية هذه الأزمة فسعت كل من إنجلترا وفرنسا  
لإرسال أسطول مشترك في تهديد واضح للحكومة المصرية.

كنت جالسًا في صالة بيتنا الجديد أحاول استعادة معلوماتي  
عن هذه الفترة من ذاكرتي الحقيقية لكنها كانت مشوشة تمامًا،  
هل ستنجح ثورة عرابي؟! هل سنهزم إنجلترا وفرنسا؟!  
رائحة عطرها تقاطع أفكارني فأبتسم فاتحًا ذراعي لها.  
- الشاي.

- سلمت يدك يا ضي.

أتناوله منها شاكرًا فتجلس جوارني لتمسك كفي بين كفيها:

- أنا حامل.

تزف إليّ بشرها فيتفض قلبي بفرحة حقيقية، إنها أول حياة  
تحمل هي فيها طفلًا مني، يا الله! كيف أصف فرحتي بها... بها؟!  
أضمرها نحوي لتهدئها قبلاتي عالمًا من زهور، هذه الحياة  
مختلفة، مختلفة تمامًا!

تمر الأيام وعرابي الشريف يكافح وحده مع أصحابه، الخيانة تأتيه

من كل صوب، فالخديوي منحاز للإنجليز المتربصين على سواحل الإسكندرية، وها هو ذا الخديوي يأمر بعزل عرابي لكنه لا يمثل .

هنا كان دوري لأعلن فتواي دون خوف والتي وافقت فتوى شيوخ الأزهر، بمروق الخديوي عن الدين لانحيازه للجيش المحارب لبلاده، ومن هنا تبطل أوامره ولا طاعة له .

أتحرك مع عرابي كظله نجمع ما يمكننا من الرجال والسلاح من القرى والعزب والكفور، قاومتنا مقاومة عنيفة لمدة شهرين متواصلين في معركة كفر الدوار، والتي تنتهي بخسارة بريطانيا وانسحاب أسطولها نحو الإسكندرية .

لكننا لم نكد نهتأ بالنصر حتى عام نهر الحياة يتدفق، العرابيون يواجهون الإنجليز في معركة التل الكبير فيخون الخديوي توفيق، يخون ديليسبس صاحب شركة قناة السويس الذي يسمح للإنجليز بالدخول، يخون بعض بدو الصحراء فيطلقون الإنجليز على مواقعنا، يخون السلطان العثماني فيعلن عصيان عرابي ويجرض الناس ضده، بل ويخون بعض ضباطنا فيطلقون الإنجليز على ثغراتنا .

كلهم خانونا .

يضيق صدري ولا ينطلق لساني، الهزيمة تمرر حلقي وأنا أرى بسالتنا لا تمنحنا النصر، يدخل الإنجليز القاهرة ويبدأ الاحتلال البريطاني لمصر .

يحتجز عرابي في السجن ويحكمون بإعدامه، لكن الحكم

يُخفف للنفسي إلى سيريلانكا.

- هون عليك يا يونس!

تواسيني بها ضي فأغمض عيني قائلاً:

- يعز عليّ فراق صديق العمر عرابي، يعز عليّ أن يُجثّل وطني

ولا يزال في جسدي عرق ينبض.

لأول مرة أجرب حرقه الهزيمة رغم جهد السعي، لكنني لم

أفقد إيماني أنها ليست آخر المطاف.

دقات قلبي تتناقل هذه الصورة التي ألفتها فأوقى قرب

النهاية، لا! بالله عليكم أيها الشهابيون ليس الآن! لم أشهد

انتصاراً بعد.

أكتم تأوهي وأنا أتلمس بطن ضي البارز لأبثها وصيتي:

- أسمىه يونس، اسقه حب الدين والوطن قبل لبنك،

اجعله يكمل الطريق، كلنا عرابي، كلنا أحرار.

جفناي ينسدلان في إعلان للنهاية، أشعر بهم يدفنوني

ليهيلوا فوقي التراب، ينتفض قلبي بترقب وأنا لا أدري كيف

أبليت في هذه الحياة، لقد أجدت السعي لكنني لم أحصد النجاح.

والجواب يصلني في «الضلع الثاني» الذي وجدته مشعاً فوق

صدري لتدوي ضحكتي بوجداني عالية.

لم يبق سوى ضلع واحد وأعود للشهابيين بمثلثهم،

وحرיתי.

## (الضلع الثالث)

\*\*\*

تراب الأرض تحتي صار يعرفني وأعرفه، هنا، هنا وطني  
الذي احتضن جسدي إذ ولدت وسيؤويه حين أموت، ولو  
عشت ألف حياة.

هنا مصر التي صرت أعرفها كما لم أفعل من قبل، لم يقهرها غازٍ  
ولم تنحن لطاغية، تتبدل عليها الوجوه ويبقى وجهها هو الثابت،  
وجهٌ بعيني عاشقة وأنف ملكة وابتسامة أم وحجاب حرة.

هذه المرة يلتقني رجل تبدو عليه ملامح الصرامة مع  
الطيبة، ينحني ليحملني فأرى فيه وجه جابر.

يتحرك بي الرجل ليتوجه بي نحو بيته في ذاك الحي الشعبي  
ببور سعيد؛ لألتقي بزوجه التي تحمل ملامح نجية.

أستبشر بحياة تجمعني بهما معاً.  
أبي كان يمتلك مطبعة صغيرة، ورغم كونه أمياً لكنه علمني  
قيمة الكلمة، كيف تكون سهلاً لا يحطى هدفه.

عشت طفولة رائعة في الحي الذي يعبق بروح مصر القديمة،  
أما مراهقتي فصادفت ثورة يوليو.

مصر بعد الثورة كانت تشبه أميرة ليلة عرسها، الناس فيها بدوا وكأنهم يكتشفون حقهم في أرضهم لأول مرة، الشوارع كانت تنبض بأنفاس العزة وضحكات المستبشرين بغد جديد يمحو عنهم مذلة الأمس.

لم ألتحق بمدرسة، لكن جارنا الشيخ الأزهري تولى تعليمي بنفسه فكان معلمي الأول، وأبي الثاني.

ضي؟! كانت رفيقة الطفولة والصباء، ابنة الجيران، قطعة السكر التي يتهافت الجميع لنيل رضاها، لكن عينها الحبيبتين لم تكونا تتوهجان إلا لأجلي.

- «الرئيس» سيلقى خطاباً!

كلمة السر تدوي في الحى والتي كانت وحدها تكفي ليتحلق الرجال حول المدياع في مقهى الحى متربصين بما سيسمعونه.

ورغم علمي بما سيقوله الزعيم ناصر بحكم ذاكرتي الحالية، لكن معاشتي للحدث كانت ذات صدى آخر.

- قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية.

- الله أكبر!

يضج المقهى بالهتافات فأبتسم شاعراً بالحراسة وأنا أهتف معهم تلتقيني ضي على السلم في بيتنا بعدها، فتسألني بفرحة لا

تخلو من قلق:

- لماذا تظنه فعلها؟! -

فأبتسم ابتسامة الخبير محاولاً كسب انبهارها:  
- أظنها فرصته الوحيدة للحصول على التمويل اللازم لبناء  
السد العالي.

- وهل سيتركوننا لحالنا؟!!

تسألني بنفس القلق، والجواب يأتينا سريعاً في الأيام  
اللاحقة، فيما أسموه «بروتوكول سيفرز» وأطلقت عليه إسرائيل  
اسم «معركة قادش» نظراً لما يعتقد بعض الباحثين اليهود بأن  
مدينة «قادش بارنيا» (بالإنجليزية: Kadesh Barnea) المذكورة  
في التوراة، تقع في منطقة شمال سيناء، وهي آخر موقع على  
الحدود المصرية خرج منه اليهود مع موسى إلى الشنات، فكان  
الاسم رمزاً لبداية العودة إلى القطة الأخيرة في هذا الشتات، بينما  
عرفناه ببساطة حديثاً باسم «العدوان الثلاثي».

إذ قررت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وضع خطة لاستخدام  
القوة العسكرية ضد مصر، أملين بذلك تحقيق مصالحهم من  
تلك الضربة، فعلى الصعيد البريطاني كان الهدف التخلص من  
عبد الناصر الذي هدد النفوذ البريطاني بتحقيق الجلاء وتحالف  
مع السوفيت وأمم القناة التي تمر منها المصالح البريطانية، وعلى  
الصعيد الفرنسي كانت فرصة للانتقام من عبد الناصر الذي  
ساند ثورة الجزائر وأمم القناة التي كانت تحت إدارة فرنسية، في  
حين وجدت إسرائيل فرصتها لفك الحناق المحكم على سفنها في  
قناة السويس وخليج العقبة، وتدمير القوات المصرية في سيناء

التي كانت تشكل تهديدًا صريحًا لها.

طبقًا لبروتوكول سيفرز وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ هبطت قوات إسرائيلية في عمق سيناء، واتجهت إلى القناة لإقناع العالم بأن قناة السويس مهددة، وفي ٣٠ أكتوبر أصدرت كل من بريطانيا وفرنسا إنذارًا يطالب بوقف القتال بين مصر وإسرائيل، ويطلب من الطرفين الانسحاب عشرة كيلومترات عن قناة السويس، وقبول احتلال مدن القناة بواسطة قوات بريطانية فرنسية بغرض حماية الملاحة في القناة، وإلا تدخلت قواتها لتنفيذ ذلك بالقوة.

- «الريس» لن يوافق، ولن يعيد لهم القناة من جديد.

تهتف بها ضئي بنبرتها الثورية مخاطبةً أمي التي استقبلتها في بيتنا، لترد الأخيرة بقلق وهي تدير مؤشر المذيع باحثة عن أي خبر:

- هو لن يوافق وهم لن يسكتوا، يارب سلّم!

ثم تنظر إليّ مردفة:

- اذهب لأبيك في المطبعة، لا تدعه وحده.

أغادر بسرعة لتلحق بي ضئي على السلم:

- خائفة يا يونس.

كنت أشاركها خوفها إنما ليس على نفسي بل عليها هي

وعليهم جميعًا، ارتباطي بهم في هذه الحياة صار أقوى مما عرفته

في حيواتي كلها.

- لست خائفة من الموت، بل من العجز! من أن أشهد حقي  
يُغتصب ولا أملك القوة كي أدافع عنه.  
- لا تخافي، الحق لا يضع عندما يُغتصب قسرًا، بل يضع  
عندما يسكت عنه أصحابه، ونحن لن نسكت.

أعلنت مصر بدورها رفضها احتلال إقليم القناة، وفي  
اليوم التالي بدأت الغارات الجوية على القاهرة ومنطقة القناة  
والإسكندرية، ونظرًا لتشتت القوات المصرية بين جبهة سيناء  
وجبهة القناة أصدر عبد الناصر أوامره بسحب القوات المصرية  
من سيناء إلى غرب القناة، وبدأ الغزو الأجنبي - فرسي على مصر  
من بورسعيد التي تم ضربها بالطائرات والقوات البحرية تمهيدًا  
لعمليات الإنزال الجوي بالمطلات.

- ظلمة، لعنهم الله! أحرقوا حي المناخ بأكمله بالنابالم،  
ودمروا منطقة الجمر كبحي العرب.

يهتف بها أبي لاهثًا وهو يدخل البيت ممسكًا بصدرة وقد  
كانت هذه آخر كلمات نطقها.

أجل، سقط ميتًا من فوره لتشتعل أعماقي بالغضب.  
غضب أسود جامع جعلني شعلة لن تنطفى حتى أخذ بثأره.  
هنا كان دوري لأكون في مقدمة صفوف المقاومة الشعبية في  
بورسعيد، والتي كبدت القوات المهاجمة خسائر فادحة في حرب  
شوارع تم التخطيط لها وفقًا لتنظيم محكم من قيادات الجيش  
المصري وقتها.



- ماذا ستفعل يا يونس!؟

تسألني ضيَّ عقب عودتي من إحدى المسيرات التظاهرية التي كنت أقودها يوميًا فأشير لمطبعة أبي في الجوار:

- كل ما يمكنني فعله، من ناحية سأستمر في طبع المنشورات وتوزيعها لأحرض الناس على المزيد من المقاومة، بل سأطبع جريدة أفصح فيها أفعالهم القذرة، ومن ناحية أخرى سنستمر في حربنا المنظمة ضدهم.

- خالتي تعمل ممرضة في عيادة طبيب شهير هنا كما تعلم، اقترحت عليها أن نحول العيادة لمخزن للأسلحة والذخائر ننقله للفقديين، كما يمكننا أن نروي الضباط المصائبين هناك بعد أن نلبسهم زي المرضى.

- عظيم! نحن نعد لهم كذلك مفاجأة سارة، سنرد بها كرامة أسرانا.

- ماذا ستفعلون!؟

- عددًا تعلمين.

أقولها لأمضي ليلتي في طباعة منشوراتي:

- لا تلتق سلاحك.

- سنقاتل.. سنقاتل.

- ارفع رأسك يا أخي.

ولم يكدا الصبح يشرق حتى سعت مع جماعتي لتنفيذ ما

عزمتنا عليه، ناديت الصبي الصغير الذي كان واقفًا ينتظرنني على

مقدمة الحي:

- تعرف ما استفعله؟! -

- لا تخف! رجل من ظهر رجل.

يهتف بها الصبي بفتوة وهو يخطب بقبضته على صدره فأشد على عضده ليتركني فيركب دراجته، أشير لأصحابي فتبعه بسيارتنا وقد ارتدى اثنان منازي الشرطة، وأخيرًا نراه.

«أنتوني مور هاوس» الضابط الإنجليزي الشهير بعدائه للمصريين وابن عمة إليزابيث ملكة إنجلترا.

الصبي يستفزه بسبابه كما خططنا ثم يعدو بدراجته فيتبعه أنتوني ونحن خلفه، الصبي يرتبك فيسقط أرضًا ليلحق به أنتوني، لكننا نتوقف فنقترب منهما وقد نجحنا في إقناع الأخير أننا من الشرطة، أخطفت أنا سلاحه بسرعة فيما يقوم أحد أصحابي بليّ ذراع أنتوني ثم وضع إصبعه هو في ظهر الرجل كأنه سدس فانهار الأخير تمامًا.

أبتسم لبساطة التديير ونحن ننجح في اختطاف الرجل الذي

سيكون مغنمًا كبيرًا في سنيل مبادلته بأسرانا، نذهب لما يسمى

بـ«بلوكات النظام» حيث اعتدنا خطف الخونة من المصريين

الذين يتعاونون مع الإنجليز.

- جرّده من متعلقاته الشخصية، الكارنيه، نوتة المذكرات

هذه، هيا بسرعة.

أهتف بها مخاطبًا صاحبي فيستغل أنتوني الفرصة كي يشاغلنا

ويهرب، لكننا نكلم فمه، نقيد قدميه ويديه ثم نضعه في صندوق

لتتحرك به في سيارتنا.  
- انقلوه لسيارة أخرى للتمويه، هذه الخاصة بعمليات  
خدمة المياه ستفي بالغرض.

أهتف بها ونحن نتحرك بغنيمتنا، وأخيرًا استقر به في أحد  
البيوت بشارع أحمد عرابي حيث نخفيه في الدور الأرضي.  
- الدنيا مقلوبة يا يونس، منذ علم الإنجليز عن خطف  
ضابطهم وهم يحاصرون المنطقة بالسلاح بعدما وجدوا فيها  
السيارة المستعملة في الخطف، بل إنهم طوفوها بالأسلاك  
الشائكة أيضًا.

تهتف بها ضحي بتولر الأشبح بوجهي هاتقًا بقلق:  
- الأغباء سيتسببون بقتله هكذا، لن يخاطر أحد بالذهاب  
إليه لتقديم طعام أو شراب.

وقد صدق ظني فقد مات الرجل في صندوقه لأشعر بوخز  
في ضميري، فلم تكن نيتي قتله بهذه الطريقة، لكن الخبر الذي  
شاع يبذر الخوف في قلوب القوات المعادية، خاصة وقد استمرت  
حركة المقاومة في حصد الرؤوس.

اغتيال جون جون وويليامز رئيس مخابرات القوات البريطانية،  
وهاجنا الدبابات البريطانية بالصواريخ في شوارع بورسعيد  
بتعاون مع مجموعة الصاعقة بقيادة البطل الملازم إبراهيم  
الرفاعي، كما تمكنا من مهاجمة مقر كتيبة بريطانية، في مبنى مدرسة  
الوصفية نهارًا، ومهاجمة الدوريات الراكبة والسائرة لقوات

العدوان بالقنابل اليدوية، وهو ما كبد القوات المهاجمة خسائر كبيرة، تسببت في فضيحة عالمية للدول المهاجمة.

- أين يونس؟! افتحي الراديو يا خالتي.

أخرج من غرفتي صباح ذات يوم بعدما سمعت صوت الجرس يعقبه صياح صبي الملهوف، تهرع أمي لفتح المدياع قبل أن تطلق زغرودة عالية ترددت مثلها من نساء الحي.

- تزغردين يا أمي!؟

أهتف بها بصوت مرتجف وينبرة هي أقرب للموعة منها للاستنكار، لكن أمي تنظر لصورة أبي المحلقة على الحائط لتقول بين دموعها:

- اليوم فقط يمكننا أخذ العزاء في أبيك، ناري بردت يا يونس. أضمها بين ذراعي بقوة لتمتج دموعي بدموعها فيمَا تراقبنا ضي بملامح تتصارع فوقها ابتسامة نصر بالدموع.

تم وقف إطلاق النار بعد ضغط دولي كبير على الدولتين إنجلترا وفرنسا، ساندتنا فيه الدول العربية التي قامت بنسف أنابيب البترول.

- أنزل العلم البريطاني من فوق مبنى قناة السويس، انسحبت القوات الإنجليزية والفرنسية من بورسعيد، تسلمت السلطات المصرية مدينة بورسعيد، عادت لنا القناة.

أكتب آخر مقالتي بمجلتي الجديدة التي عدت لإصدارها، كانوا قد دمروا مطبعتي لكنني عدت أبنها من جديد فقد أدركت

قيمة الكلمة.

أزوج ضي لتعجب لي طفلاً، يونس آخر أصرت أن تسميه على اسمي، الحياة الأولى التي أشهد لي فيها طفلاً منها، أراقب نموه يوماً بيوم، أعلمه بنفسه أقداسه الثلاث، الدين، الوطن، الحب.

- شقيقتي وضعت طفلتها، ستسميها ضي على اسمي.

تهتف بها لي ذات يوم ضاحكة فأمازحها بقولي:

- عرفت، وعرفت أن يونس ابننا كان أول من حلها، قلبي يجبرني أن التاريخ سيعيد نفسه، قصة حينا ستعاد طباعتها في إصدار آخر.

- إذن توافق أن تنقل معها للسويس؟! لأجل خاطري يا يونس، شقيقتي هي كل من تبقى لي من أهلي.

تقولها مكررة رجاءها الذي تلح فيه منذ شهور، وبالتحديد بعد وفاة أمي، فأرمقها بنظرة مترددة لكنني أحسم قراري خاصة وقد عرض عليّ زوج شقيقتها مشاركتي في مطبعة أكبر هناك.

ضحكاتنا تمتزج ليس لهذا اليوم فقط، بل لسنوات تلته.

ثم.. الخامس من يونيو عام ١٩٦٧.

نكستي أنا كانت مزدوجة، فقد ماتت ضي ذلك اليوم.

قلبها الثوري الذي طالما توله بحب الوطن لم يحتمل أن يدنس اليهود تراه.

ماتت ضي، لكن إيماني بعدها لم يموت، نكستي لم تولد انتكاسة، بل أشعلتني بالقوة، لست وحدي بل كل من معي.

عضم اخواتنا

نلمّه نلمّه

نسّته نسّته

ونعمل منه مدافع، وندافع!

فات الكثير يا بلدنا

ما بقاش إلا القليل،

بينا ياللا بينا

نحرر أراضينا،

نجيب النصر هدية لمصر،

وتحكي الدنيا علينا.

الهاثف ينطلق بصدورنا قبل حناجرنا، يريدون تهجيرنا  
من الأرض خوفاً علينا لكنني أرفض، أنقى مع قلة قليلة معي،  
دوري الذي بدأ في المقاومة الشعبية ببورسعيد يجب أن يكتمل  
هنا في السويس.

لا أريد الحديث عن النكسة، سأختزل رواية ست سنوات  
في مرارة ستبقى في حلقي ما حييت، ليأتي نصر السادس من  
أكتوبر كرشفة عسل تعوض بعضاً من علقمه.  
لكن هذه لم تكن النهاية.

السويس من وجهة النظر العسكرية لم تكن عرضة لأي  
خطر بعدما عبر جيشنا القناة واجتاح خط برليف، لهذا لم يتخذوا

أي تدابير عسكرية شاملة لحماية المدينة، كان هذا عندما فوجئنا في يوم الرابع والعشرين من أكتوبر بجحافل العدو المدرعة تقتحم شوارع مدينتنا.

- خائف يا يونس!؟

أسأل طفلي وأنا أحتضنه بقوة فيهب رأسه نفيًا لكنني أعلم أنه كذلك.

الطائرات الاسرائيلية تقوم بغاراتها على شركة النصر للأسمدة فتشتعل الحرائق حولنا، لم يكفوا بالحصار البري لنا وقطع جميع الطرق المؤدية إلينا ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي للخليج والبحر الأحمر، بل اعتمدوا أسوأ وسائل الحرب النفسية، قطعوا ترعة السويس التي تمدنا بالماء العذب، دمروا شبكة الضغط العالي التي تحمل لنا التيار الكهربائي، قطعوا أسلاك الهاتف التي تربطنا بالعالم الخارجي.

- يظنوننا سنواجههم بالأعلام البيضاء! لا والله! نموت

شهداء ولا نحيا جبناء!

أصرخ بها في رفقتي حولي ونحن نسمع وابل الصواريخ يضرب المدينة حولنا، المئات بل الآلاف من الشهداء يسقطون، لا أخاف، لم يعد يعنيني مثلث هيلان، لم أعد أهتم أن أعيش بقدر ما أهتم كيف سأموت.

قوات دفاعنا الشعبية تتكون من منظمين: إحداهما تدعى منظمة سيناء تكونت بعد النكسة وتلقى أعضاؤها تدريبًا خاصًا

عن طريق مكتب المخابرات الحربية في السويس، والثانية تدعى فرق  
حماية الشعب وقد أنشئت تحت إشراف لجنة الدفاع الشعبي للقيام  
بالدفاع والحراسات وقت الطوارئ، وهذه ما كنت أنتمي إليها.

نجتمع في إحدى المدارس ليسلحونا بالبنادق ويقسمونا  
لمجموعتين تتناوبان الحراسة.

المعركة تقوم بيننا، قذائفنا تنال من دباباتهم، أسلحتنا خفيفة  
وقنابلنا يدوية الصنع لكنها تثير الرعب في نفوسهم، يغادرون  
دباباتهم مذعورين يحاولون الهروب، لكن لعنتنا تحصدهم،  
المعركة تستمر لصالحنا، وتنتهي بتكبيدهم خسائر فادحة بين  
قتلى وجرحى، فيضطرون للانسحاب عاجزين عن اقتحام  
المدينة والاستيلاء عليها.

- هزمناهم يا أبي!

- هزمناهم يا عمي!

الأولى من يونس - ابني - والثانية من ضي الصغيرة، فأفتح  
لها ذراعي وقد وقفنا يستقبلانني على أول الطريق.

بعض الحروق البسيطة نالتي لكنها لا تساوي شيئاً أمام  
فرحتي بدوري ها هنا.

- سمعتهم في المذياع يعلنون خسائرهم، وددت لو كانت  
أمي معنا!

يقولها يونس الصغير فتدمع عيناى وأنا أرفع وجهي للسما  
التي شعرت أنها ازدادت ضياء في هذا الوقت من النهار:



- هي معنا، دومًا معًا!  
دقات قلبي تتأقل بهذه الطريقة التي عهدتها فكأنها هي  
مطرقة النهاية على منصة العدل.

أبسم بشجن وأنا أملأ عيني من ملامح يونس الصغير.  
أسقط على ركبتي ولا زلت أضمه والصغيرة لصدري.  
أنفاسي تتلاحق فأقرب وجهه من وجهي كأنني أبته وصيتي:  
- الدين، الوطن، الحب.  
تسع عيناه الصغيرتان بخوف، لكنني مسك كفه لأشبهه  
بكف الصغيرة جواره، أنقل بصري بينهما لأرشف  
- ضي يونس لعنان أن تكونا دومًا معًا!  
جفناي ينسدلان رغبًا عني فتمتد أناملي لتقبض على حفنة  
من التراب تحتي وقد شعرت أنها المرة الأخيرة لي في هذا العالم.  
احفظ ملمسه يا يونس، تيمم به لعلك تزيل عنك دنس  
وزرك القديم، وتستعد لصلاتك الجديدة في عالمك الحقيقي.

المشهد المعهود لجسدي يواريه التراب، الضلع الثالث  
يتوهج مشعًا فوق صدري، لكن فرحتي الآن يشوبها الكثير من  
الشجن، ألا ليتني بقيت أطول!

## عيد الخلاص

\*\*\*

دوامة خلف دوامة تدور بي حتى أخرج من فجوة نهر الزمن  
لأجد جسدي يستقر داخل هرمه شبه الزجاجي من جديد،  
لكنني لم أكن واقفاً هذه المرة بل جالساً على ما يشبه عرشاً ماسياً.  
يادي وقدماي لم تعد مقيدة، أضلاعي الثلاث تستقر في  
حجري بينما أرتدي حلة بيضاء.

رائحة حبي حوي تعود لتؤنسني، كيف أزعم أنني اشتقتها  
وهي لم تفارقني لحظة في رحلتي؟!  
- مرحباً بعودتك مظفراً أيها المتلاشي.  
- افتقدتك أيها الشهاب الأعظم.

أسقيه فكري بحنين حقيقي لا أدعيه وأنا أراه يقترب بحركته  
المتواثبة مع أصحابه، أفكارهم التي تصلني واضحة تبث داخلي  
المزيد من الفخر لكنني أشعر ببعض القلق من فشلي في الثلاث  
حيوات الأولى:

- تأخرت؟!  
- قليلاً، لكنك وصلت قبل الموعد.  
أبتسم ببعض الدهشة ولا أصدق أنني عشت سبع حيوات

ووصلت قبل انقضاء يومهم هذا.

- فلنبداً الاحتفال.

فكرته تشعل الحماسة في الأجواء بينما يسير الهرم بي في الطريق الذي حفظت معالمه، اللون الأزرق يتحول رويداً للأبيض المشع بينما نتوغل أكثر نحو جزيرة المرجان المقدسة، لحن غريب ينبعث من مكان ما فلا يشبه أي عزف عرفته؟! أي آلة هذه؟! لا يبدو كقرع الطبول ولا كعزف الناي، مزيج عجيب متضافر بينهما.

الهرم يصل بي لجزيرتهم المقدسة فأشعر بهذا السائل يغمرني من رأسي إلى قدمي ولا زلت في جلستي الملكية.

- أن الأوان أن نستعيد هبة خلودنا ملك أيها المتلاشي، هذه أول طقوس الاحتفال.

أبتسم ببعض الأسف وأنا أحس أنني أودع عزيزاً، أشعر بالجفاف أخيراً فأرفع عيني نحوه لأرى قرصه الشفاف يتحول لأرق درجات الأزرق، قبل أن يمتد أحد مجساته ليضرب هرمي ضربة خفيفة، ولم يكذب فعلها حتى لحقه كل من في المملكة بنفس الحركة الغريبة وكأنهم يؤدون طقساً ما.

ولم يكذب ينتهي آخرهم بعد وقت مر عليّ كدقائق - رغم كثرة عددهم - حتى شعرت بفتحة الهرم فوقني تُفَتِّح ببطء شديد.

أشعر ببعض الذعر من تدفق الماء للداخل الهرم لكن...

- صرت مناً، مياه هيولان لا تُغرق أهلها.

عرشي يرتفع بي تزامناً مع انفراج فوهة الهرم شيئاً فشيئاً، فتتسع عيناى بانبهار وأنا أراني وقد انتهت بي المقام جالساً أمام

جزيرتهم المقدسة.

- انظر لما جتته يدك.

ينعقد حاجباي بدهشة وأنا أرى مثلث جزيرتهم يتحول  
لشاشة عرض كما رأيتها من قبل، إنها «البانوراما» هذه المرة كانت  
تخصني أنا.

أبتسم ببعض الحزني وأنا أشهد حيواتي الثلاث الأول التي  
فشلت فيها، حزني يتحول لبعض الاعتزاز وأنا أراقب حياتي  
الرابعة، اعتزاز يتعاطم في كل حياة تلتها حتى يصل للسابعة.  
- سد الثغرة أيها المتلاشي، مثلث الأقداس في يدك.

فكرة شهاب الأعظم تجعلني أنتبه لعودة المثلث لحاله بهذه  
الفجوة داخله، فينتفض قلبي برهبة وأنا أرفع الأضلاع الثلاثة  
لأضعها مكانها واحداً واحداً.

اللحن الغريب حولنا يعلو صوته تدريجياً حتى يلهب  
حماستنا، مثلث الأقداس يلتصق أخيراً فيتوهج بضوء ماسي  
أخاذا يكاد يغشي بصري.

أراهم جميعاً يتحلقون حولي بعددهم الهائل، تتشابك  
مجساتهم في تجاورهم فيصنعون دائرة كبيرة حولي، دائرة تتسع ثم  
تضيق مرة بعد مرة فيما بدا كرقصة احتفال.  
- الطقس الأخير، ولادة نجم هيولان.

فكرة شهاب تدوي في رأسي فتتحل الدائرة حولي لأجدني  
أسبح معهم، ترتفع، ترتفع، ترتفع، فلا أدري أين سنصل.

رأسي يرتفع أخيراً فوق سطح الماء فأطلق شهقة هائلة وأنا

أشعر بغرابة التنفس.

- أغمض عينيك أيها المتلاشي، لن ترى نجم هيلان مفتوح العينين.

أرفع رأسي للسما وقد أغمضت عيني كما أمرني فيخفق

قلبي بجنون، أنا أراه، حقاً أراه.

يلتمع بوهج لم أره في حياتي من قبل، فيبدو كهامة مشعة

وسط عتمة السماء.

- هاهو ذا نحمكم، بورك عامكم.

فكرة شهاب تسطع داخلي فأبتسم ولازلت مغمض العينين،

لكنتي أفتحهما أحياناً لأدور ببصري في المشهد المهيب حولي.

سطح الماء كله قد تكسب بزحام من أقراصهم المشعة التي

ازداد توهجها حد الإبهار وسط ظلمة الليل حولنا.

ضحكاتهم تدوي داخلي فأشعر بالفخر لأنني كنت سببها.

- ميقات العودة.

النداء يدوي حولي فأشعر بجسدي يهبط من جديد،

أحرك ذراعي حولي بسلاسة أتعجبها، فلا أذكر أنني كنت

يوماً أجيد السباحة، لكن، ألم يقلها الشهاب الأعظم؟! أنا

صرت شهاباً مثلهم.

يستقر بي المقام فوق عرشي داخل الهرم من جديد، فأرفع

رأسي لأجد فوهته تغلق فوقي.

- أنت أيضاً حان وقت عودتك لعالمك أيها المتلاشي.

- وددت لو عشت المزيد من الحيات، لو استمرت بي

الرحلة أكثر!

- بطولاتك لم تنته، لا تزال تملك الكثير في حياتك الحقيقية.  
أهز رأسي بتشتت وقد بدت لي حياتي هنا هي الأصل بينما  
حياتي الحقيقية تبدو لي كحلم بعيد.

- عساك تعلمت شيئاً منا.

- الإيوان!

قرصه الشفاف يتوهج بزرقة الرضا عن جوابي فأبتسم وأنا  
أرفع معصمي حيث بقعتي البيضاء:

- لا تمحها، دعها لي تذكّاراً منكم.

- لك هذا.

- هل... سأراكم من جديد؟!!

- من يلري؟! أليها!

يسقيني فكرته الغامضة فتتسع ابتسامتي وأنا أود لو كان  
يجوز لي أن أمنحه عناقاً، أدور ببصري حولنا للشهابيين فتصلني  
أفكارهم مفعمة بالود.

- وداعاً أيها المتلاشي! عد لعالمك.

اللحن الغريب حولنا يختفي فجأة فأشعر بالصمم، ضوء  
ساطع يغشي عيني فيجبرني على إغلاقها، صداعٌ عنيف يكتنف  
رأسي وأنا أشعر بجسدي يقتحم حلقة خلف حلقة.

دوار، دوار!

صوت صفير غريب يחדش أذني فأنفض مكاني للحظة،  
قبل أن أشعر بجسدي يسكن أخيراً، وينتهي كل شيء.

## ضي

\*\*\*

عامٌ طويل مر عليّ بعد وفاة يونس.  
يقولون إن البعيد عن العين بعيد عن القلب، لكنه لا يزال  
ملء العين وملء القلب بل ملء الروح.  
صدمة فقدته بعد يافا كانت أكبر من احتمالي، لكن ما خففها  
عليّ أنه مات قبل أن يلطخه المزيد من وحل الخيانة.  
دياب أخبرني بالحقيقة كاملة، أخبرني عن طبيعة عمله  
وكيف أنقذ يونس من مجدي، مجدي الذي لا يزال حبيساً على ذمة  
القضية التي يتولاها دياب كي يحاسب على جرائمه.. والتي يبلي  
فيها محامي مجدي بلاءً حسناً محاولاً تخفيف العقوبة عنه.

لن أنسى تلك الأيام الطويلة التي قضيتها جوار يونس في  
المشفى في غيبوبته بعد الحادث، كانوا يزعمون أنه يشعر بي،  
أنه يتحسن، أنه سيفيق في أي لحظة، لأفاجأ بخبر موته يأتيني  
كقطعنة غادرة.

ورغم أنه رحل بعدما طلقني، لكنني كنت أتفهم لماذا فعلها،  
خوفه عليّ غلب رغبة تملكه لي.

طلقني! بعد كل هذا الوقت لا زلت أزعج أن الكلمة غريبة  
على أذني، من أين أتوا بهذا الوصف الذي تحمله الكلمة من حرية  
إذا كنت أشعر بعدها أنني صرت في سجن كبير؟!  
وددت لو رحل ولا زلت على ذمته، لكن منذ متى تثبت هذا  
مجرد أوراق؟

ذقات قلبي المرهونة باسمه، نبض روحي التي التقت فيه  
توأمها، عقارب ساعتني التي توقفت بعده، كل هذا لا يزال  
يشهد أنني على ذمته، حيًا كان أو ميتًا.  
لقد حاولت نسيانه، صدقًا حاولت، تذرعت بكل سبب  
يمكن أن يبذر كراهيته في روحي، لكنني عجزت! يونس لم يكن  
فاسدًا، هو كان ضالًا، وشتان بينها شتان.

أه! الخمس قلادة صدري التي صارت تحوي صورته مع أبي،  
فأشعر ببعض من وخز ضميري، كيف أساوي من مات شهيد  
الوطن ومن مات خائنه؟! لكنني أدافع بكل ما أوتيت من حب،  
دياب أخبرني أن «الملاعين» مؤلوا له أبحاثه الأولى العادية الطبيعة  
فحسب، لكن بحثه الأخير الأخطر كان لا يزال قيد الاختبار، يونس  
لم يبعه لهم، هو فقط كان ينتوي، لكن.. أوليست الأعمال بالنيات؟!  
أنا سمعته بأذني يصرح برغبته في السفر إليهم لولا أنه قد...  
اكرهيه يا ضي! اكرهيه! رفقًا بنفسك افعلي! لعلك تكملين  
حياتك بعده.



- شاردة كالعادة!

أشهق شهقة عالية وأنا ألتفت نحو مديري في العمل،  
كالعادة تربكني نظراته التي يناقض ودّها هذه الخشونة الغربية  
في صوته:

- الحقني بي إلى مكنتي.

يرمقني زملائي في المعمل بنظرات مشفقة اعتدتها منذ  
تسلمت هذا العمل، فأطرق برأسي وأنا أمتير خلف الرجل إلى  
مكنتيه، هل سيطرّدني؟! ليست سابقتي الأولى في ضبطني غافلة  
عن عملي متلبسة بشرودي، ماذا لو فعلها؟ وظيفتي هنا في شركة  
الأدوية هذه تعتبر معجزة لا أظنني كنت سأحصل عليها لولا  
مساعدة دياب، لو تنازل الرجل عن خدماتي فلن يمكنني مطالبة  
دياب بالبحث عن عمل آخر.

- اجلسي.

يقولها الرجل بنبرة أرق فأجلس أمام مكنته مشبكة كفيّ في

حجري لأغمغم بارتباك:

- أنا آسفة، أعرف أنني مقصرة كثيرًا في عملي هنا، لكن...  
لا أملك القدرة لأسرد أعذارني مع هذه الغصة التي  
استحكمت حلقي، ولا حتى لرفع عيني نحوه، لكنه يزفر ليقول  
بصوته الغريب الذي يحمل بحّة مميزة:

- أعرف أنكِ مررتِ بظروف عصيبة خاصةً لامرأة في

سنتك، لكن ألم يئن الوقت بعد لتستعيدي تماسكك؟!  
خيطٌ من الدموع يخونني فأمسحه بسرعة خشية أن يراه ليردف:  
- أنا لا أتحدث بحكم كوني مديرِك فحسب، ولا يعينني  
العمل بقدر ما تعينني أنتِ.

كلماته تدق ناقوس خطر بروحي كعهدي كلما تحدث إليّ، منذ  
تسلمت عملي هنا وأنا أشعر بنظرات إعجاب في عينيه تطوقني، لا..  
لم تكن قميئة مهينة كمنظرات خطّاب، بل دافئة واعدة كذلك التي كان  
يحملها لي يونس، ربما لهذا تصاعدت دقات قلبي مع استطراده  
- لا تتعجبي، أنا أعرف كل شيء عنك، وأعرف أنك أقوى  
كثيرًا مما تبدين عليه.  
أخيرًا أجد بعض الجرأة لأرفع إليه عينيّ، فلم تبدُ لي كلماته  
متحرّشة بقدر ما بدت داعمة، ورغما عني أجدني أقارن ملامحه  
بيونس.

لحيته المهدبة تفضح تديّنًا لا أظنه يدعيه، الشركة كلها  
تتحدث عن التزامه وتقواه وعن هذه الأعمال الخيرية التي  
يرعاها، ملامحه وسيمة مريجة على عكس ملامح يونس التي  
كانت تحمل شيئًا من الشراسة، شعره ناعم يناقض شعر يونس  
المجعد، ابتسامته تبدو راضية مقابل «شبه ابتسامة» يونس التي  
كانت دومًا منغمسة بالتوتر، أناقته بسيطة تناقض تكلف يونس  
المبالغ فيه.

ربما يشبهه في هاتين العينين السوداوين، كلاهما يحمل «مرآة  
روح مشروخة» لا يمكنني تيين صورها.

لكن مالي وشكله؟! فليسأخني فحسب على تقصيري  
وليتركني أذهب لحالي أو ليطردني وليدعني لحياتي.

هنا أجدني أحسس فلاة صدري بقوة كأنني أستغفر يونس  
من نظرة منحتها لغيره.

- ألا يعجبك عملك هنا؟

يسألني باهتمام لأقسم بمرارة تناسب جوابي:

- على العكس، يعجبني لأنه يذكرني بزواجي.

أقولها صادقة بشجن وأنا أتذكر كم كان يونس يرغب في

مشاركتي إياه أبحاثه، ليرد هو بنبرة ضائقة:

- الراحل.

هنا كان دوري لأرمقه هو بنظرة ضائقة، بينما يردف

باستنكار:

- ما علاقة شركة الأدوية خاصتنا به؟! أعرف أنه كان عالم

بحريات، ويزعمون أنه كان عبقرًا في مجاله.

- ليس زعمًا، بل حقيقة.

يظيل النظر إليّ بعد عبارتي المنفصلة فأشعر برجفة جسدي

وأنا أتعجب هذا الضيق الغامر على وجهه، ليسألني أخيرًا:

- اعذرني لو بدا سؤالك شديد الخصوصية، أنا أعلم أنه قد

طلقك قبل الحادث الذي أودى بحياته، فلماذا لا تزالين متأثرة  
هكذا بعد كل هذا الوقت؟

ورغم طبيعتي الخائفة لكن سؤاله يستفزني ويجعلني أنتفض  
مكاني لأهتف بنبرة عصبية غريبة عليّ:

- يمكنك توبيخي على شرودي في عملي بل وفصلي منه  
كذلك، لكن لا حق لك في التدخل في شئوني الخاصة.

يزداد الضيق على ملامحه فأوقن أن قرار طردي آتٍ لا محالة،  
لكنه يفاجئني بقوله:

- ربما لسؤالي هذا ما يبرره.

أرمقه بنظرة متسائلة متوجسة وأنا أكذب كل الإشارات  
التي يحملها لي حدسي الأنثوي والذي كان - للأسف - صادقاً،  
فها هو ذا يصرح بها:

- أنا أرغب في الزواج منك.

\*\*\*

- لا! لا! لا!

لا أدري كم قلته له في وجهه، كم مرة صرخت بها داخلي،  
كم مرة أوقفت بها انهيار دموعي وأنا أجمع حاجياتي من مكثبي  
موقنة أنه يومي الأخير هنا.

أغادر مبنى الشركة وقد شوشت دموعي المرثيات حولي،  
لم يكن عرض الزواج الأول الذي أتلقاه منذ وفاة يونس ممن

يطمعون في أرملة جميلة صغيرة وحيدة، لكنني سأعترف لنفسي أنه الأفضل.

هل هذا سبب انهيارى هذا؟ إن الرجل حقيقةً هو صورة من كل ما تمناه عقلي في رجل أحلامي، نفس الصورة التي كانت تناقض يونس، أخلاقه التي يحكون عنها ورأيت منها جانبًا في معاملته إياي، التزامه الديني الواضح وعطاؤه الخيري الذي يحكون عنه، مركزه الرموق وتفوقه في عمله، طبيعته الهادئة الحليلة التي تمزج ودها بحزمها، ومع كل هذا أرفضه! أرفضه وأشعر بالغضب منه لأنه فكر في ما ليس له، لأنني لا زلت أعشق يونس، النسخة المضادة، أجل، أعشق يونس بكل إخلاص ويكل غباء.

يونس! أحتاج الآن لأي مكان يحمل رائحته، بينه؟! بأي صفة أذهب؟ الجامعة؟ نعم، لن يمنعني أحد من الذهاب إلى هناك، يمكنني أن أستقل سيارة أجرة لكنني أجدني أركب الحافلة العامة وكأنني أستعيد الأيام الخوالي.

(ببعز عليّ أغني يا حبيبي،

ولأول مرة ما ينكون سوا).

دموعي تعاود جريانها على وجهي وأنا أستعيد كلمات غنوتنا، أقسى الناس أثرًا من يهجرون الجسد ويستوطنون الروح وأنت كنت قاسيًا جدًا.. جدًا يا يونس!

قدماي تحملانني لمكتبك الذي لم يعد لك، شغله آخر يكبرك  
سنًا بكثير، فأشعر وكأنهم اغتصبوا مني وطني من جديد، كل ما  
يخصك كان يومًا وطني يا يونس.

أدور بعيني حولي لأستعيد ذكرياتنا فتبدولي الوجوه غريبة،  
الجدران غريبة، الأعمدة غريبة، كأنها إشارة أخرى من القدر  
أنك ما عدت لي وطني كما أزعم.

الآن صرت وحدي تمامًا خاصة بعد زواج حبيبة وسفرها  
مع زوجها، لتسقط آخر ورقة في شجرة أحبابي.

أغادر محمّلةً بخيالاتي لتحملني خطواتي نحو بيت يافا القديم  
الذي هدموه، كأننا يتقصني جلد الذات هذا.

أقف أمام البناية الحديثة التي أقاموها مكانه فأشعر بغصة  
حلقي تمرر روحي كلها، افتقدتك يا يافا، افتقدتك حتى وأنا  
أعيش بنفس طقوسك التي علمتني إياها، لا زلت أعيش بك يا  
يافا قمثلك لا يموت، أبدًا لا يموت.

- ضي! ما كل هذه الغيبة؟! كيف حالك يا غالية؟

صوت المعلم عطوة يأتيني كنسمة باردة وسط كل هذا القipzig  
فالتفت نحوه بابتسامة حقيقية.

- أحلى عصير لـ «ست البنات» يا ولد، بسرعة.

- لا داعي يا عمي.

- معك حق، العصير والغداء عندي في البيت، زوجتي

ستطير فرحًا عندما تراك.

يهتف بها بترحاب فيلتف حولي رجال الحي الطيبون،  
مشاعرهم الصادقة ترمم بعضًا من شروخ قلبي، لكنني أشعر  
أنني بحاجة للمزيد من الهروب من هذا المكان بكل ذكرياته.

- دعها ليوم آخر يا عمي، أنا اليوم متعجلة.

- أخبريني عن أحوالك، كيف أنتِ في عملك الجديد؟

يسألني بإشفاق حنون فيردني سؤاله لما حدث منذ قليل

لكنني أردت باقتضاب:

- الحمد لله.

يكرر دعوته لي من جديد إلى بيته نكهة يدو وكأله قد تذكر

شيئًا جعل عينيه اللامعان يفتق غامض لم أفهمه، أرغض دعوته

بتهديب فيدور برأسه حوله قبل أن يتزل بحنانه المعهود:

- انتبهي لحالك يا ادنتي، ولو احتججت شيئًا «رقمتي سداة».

أضحك بتكلف وأنا أشعر بنفس القلق العامض على ملاحظه

لكنني أتخطى شعوري هذا مكثفة بعاصفة الحب التي اجتاحتني

من أهل الحي حتى غادرته.

أصل أخيرًا لبنتي الذي كنت قد اخترته قريبًا من مكان

عملي، عملي الذي فقدته لنوي ولا أدري ماذا سأصنع.

الوجع يسكن كل شبر في، بداية من قدمي اللتين أرهقتهما

السير مرورًا بقلبي الذي أدماه الفقد، وانتهاء برأسي الذي يكاد

يفلقه الصداع.

رين جرس الباب يزيد الطين بلة، لا ريب أنه صاحب  
البيت يريد الإيجار، إنه مواعده، كيف سأدفعه الشهر القادم؟  
وهل سأكون هنا؟

أبتلع هواجسي المريرة وأنا أنهض لأفتح الباب فيفاجئني  
الوجه البغيض الذي كدت أنساه:  
- خطاب!

\*\*\*

- ضربته، أنا ضربته يا يونس، لم أعد ضعيفة كما كنت  
تدعوني في الماضي.  
أهتفب بها بسعادة وأنا أراه يفتح لي ذراعيه، يقبل رأسي قبل  
أن يغمرنى في كفه، يعتذر لي عن رحيله، عن طول خذلانه،  
يقسم لي إنه يحبني، أنه لم ولن يعشق امرأة سواي.  
- دع لي نصيبي من العناق يا ولد.  
تهتف بها يافا خلفه فأضحك وأنا أتوجه نحوها لأعانقها  
بقوة، افتقدت راحتها هذه.

- أبي!

أصرخ بها بفرحة وأنا أراه يتقدم نحونا ليغمرنى عنقه، ها  
هي ذي أمي كذلك، نضال وعائلته، كلهم حولي، كلهم جاءوا  
إليّ، أم تراني أنا من ذهبت إليهم؟



- ضي.. أفيقي.

الصوت الغريب يقتحم جتتي هذه فأقاوم سماعه لكنهم  
يرحلون تباعاً ليتركوني ويتبقى يونس.

- إذا ابق أنت معي يا يونس.

- ضي! أخبريني فقط أنك تسمعيني.

الصوت الغريب يقتحمني من جديد فتشوش الصورة  
ويتلاشى يونس.

أفتح عيني لأصطدم بالجدران البيضاء فأعود إغلاقها  
بسرعة، لكن يونس كان قد اختفى تماماً.

- لا، لا، عد يا يونس، بالله لا تكن حلماً، عد، عد.

- اهدهني يا ضي، هل أستدعي الطبيب؟

أستسلم لدموعي خلف عيني المغمضتين للحظات كأنها  
أرجو أن أعود لجنة حلمي، ولما يست عدت لأفتحها كي أرى  
الوجه المألوف أمامي والذي ظننتني لن أراه بعد ما فعلته معه في

الشركة:

- ماذا حدث؟ أين أنا؟!

أقولها بتشوش وأنا أحاول التذكر، آخر ما أعيه هو وجه  
خطاب البغيض يواجهني بعدما فتحت له باب الشقة الذي  
أغلقه هو خلفنا بعدما دفعني، نظراته التي ازدادت وحشية  
وهو يخبرني أنه كان ينتظر أي خبر عني كي ينتقم لسجنه بسببي،

أنه تبعني بعد زيارتي لحينا القديم إلى هنا، وأنه سيصفي معي حساباته كاملة.

كفه الضخم يكمم شفتي وهو يلصقني بالحائط القريب،  
قلبي الذي تقافزت خفقاته يلهج بالدعاء لله أن يجبرني منه،  
قطرات العرق الغزير تبلل جيني وأنفاسي تتلاحق كعهدها  
فأتمنى أن تتوقف تمامًا قبل أن تدنسني يده، أتذكر يونس  
فتجتاحني قوة لا أدري مصدرها، أدفعه لأحرر صرختي،  
أصفعه، لكنه يرد لي صفعتي، يحبط رأسي بعنف في الحائط،  
الدوار اللعين يصيبني، فلا أذكر ما حدث بعدها.. بل أذكر،  
يونس عاد، عاد واقترح البيت، أوسعته ضربه وحررتني منه،  
ضمني إليه ثم حملني ليعدو بي مبتعدًا، هل كان حلًا هو الآخر؟  
- لا تبكي.. أرجوك.

صوته المميز يرتجف الآن بانفعال خائق بين غضب ورجاء  
وهو يمد أنامله نحوي كأنها بهم بمسح دموعي لكنه يقبض كفه  
فجأة جواره، فأمالك مشاعري لأسأله:

- أنت أتيت بي إلى هنا؟ كيف عرفت بما حدث؟  
عروق جبهته النافرة تكاد تقفز من مكانها ولغة جسده تبدو  
لي أكثر حرارة من كلماته.  
- لا يهم! لا تفكري كثيرًا، المهم أنك بخير الآن، دومًا،  
دومًا ستكونين بخير، الله لطيف بعباده، إن الله يدافع عن الذين

آمنوا، سيجعل الله بعد عسر يسراً.

تسع عيناى ببعض الدهشة وأنا أعود رغماً عنى لمقارنته  
بيونس، كلماته المنطلقة بحرية تناقض اقتضاب يونس المعهود،  
خاصة بغلالة الإيمان التى تلفها هذه.

لماذا أقارنه دوماً بيونس؟ لماذا أشعر أننى عشت معه هو  
موقفاً كهذا من قبل؟ رباها! عيناها! عيناها تحملان نظرة عاشق لا  
يمكن أن أخطئ تأويلها، نظرة رأيتها من قبل فى عيني يونس، إنما  
مقيدة مختنقة مكتومة، لكن هذه حرة طليقة صارتحة.  
ما هذا الهراء الذى أهدي به؟!  
- ماذا فعل بي؟

أسأله بخزى وقد عدت لأغمض عيني هرباً من نفسى ومن  
نظراته ليرد بغضبه المكتوم:

- لم يفعل شيئاً أكثر مما رأيت، أنا شعرت بالقلق عليك عندما  
غادرت الشركة فى ذلك الحال، السيد دياب كان قد منحني  
معلومات كاملة عنك، لهذا لم أجد حلاً سوى زيارتك فى بيتك  
وقد أغلقت هاتفك، سمعت صوت صرختك فقرعت الجرس  
ثم اقتحمت البيت، أنا انشغلت بك والجبان هرب.  
- كنت أنت؟!!

الحياة التى تفيض بين حروفي - وأنا أستعيد ما ظنته حلماً -  
تجعله يسألنى بنفس الغضب المكتوم:

- ظننتني يونس؟! -

سيل دموعي الصامت يمنحه جوابي فيزفر بقوة ثم يتراجع  
في مقعده أمام فراشي ليعاود قوله بنبرة أرق:

- سمعتك تحدثينه في هذيانك!

- طالما كان يلومني علي ضعفي في الماضي، كان يقول لي  
كوني قوية بي أو بدوني، لهذا وددت لو كان معي اليوم لأخبره  
عما فعلته بخطاب، لأحكي له أنني لم أخف، أنني صفعته، أنني  
حقاً صرت أقوى.

غصة حلقي تمنعني المزيد فأشيع بوجهي لبسودنا صمت  
قصير قبل أن أحسس معصمي فجأة لأهتف بهلع:  
- ساعة أبي!

يرمقني بنظرة دافئة وهو يستخرجها من جيبه قائلاً بنبرة  
ذات مغزى:

- إنها سليمة، معي.

يقولها وهو يمد أنامله بها ليضعها برفق في موضعها فوق

ذراعي دون أن يمسه تاركًا لي حرية ارتدائها، فأشعر بضيق خفي  
من حركته هذه التي بدت لي حميمة مع ما تمثله هذه الساعة لي.

صممت مشحونٌ بظلمتنا من جديد وتقطعه كلمته التي بدت

لي غريبة في موقفنا هذا:

- تزوجيني.

أكاد أصرخ بالرفض القاطع لكنّ رجاءه الحار يسكب

الوجع في شراييني:

- أقسم لك بالله العظيم أنني لن أتعجلك ما لا تريد

منحه، أبقي بعيداً غريباً فيما بيننا كما تريد، فقط امنحني صفة

أحملك بها من ذاك الوغد كي لا يعود ويؤذيك، أرجوك يا ضي،

أرجوك!

- لن أتزوج رجلاً وقلبي معلق بآخر.

- الآخر قد رحل.

- بعضهم لا يرحل أبداً، يبقى أثره في القلب نقشاً لا يطمسه

النسيان.

الصمت المشحون يظللنا من جديد فأعود اختلاس نظرة

نحو جانب وجهه لتروعني ملامحه التي امتزج فيها الغضب

بالعجز:

- لن تبقي هنا للأبد، ولن أسمح لك أن تعود لي لشقتك ما

دام ذاك الوغد حراً.

- سأجد مكاناً آخر أبيت فيه.

- وما يدريك أنه لا يراقبك الآن ينتظر الفرصة ليستغل

وحدثك من جديد؟

يهتف بها بنفاد صبر فتعاود دموعي جريانها ليردف هو

بالحاح أكبر:

- اطلبني كل ضماناتك، اعتبريني مجرد حارس شخصي لك،  
لن أسامح نفسي لو أصابك مكروه، أرجوك.

شعورٌ غريبٌ ينتابني وعيناه تسحبانني لهذه الدوامة من  
جديد، إلحاحه كان ليصيبني بالتوتر في موقف آخر لكنني الآن  
أشعر بالغرابة، لماذا يتشبث بالبقاء جوارى إلى هذا الحد؟!  
حب؟! بهذه السرعة؟! وهل يفعل الحب بالمرء هذا؟ عجبًا يا  
ضي! أنت التي تسألين؟!

أناملي تمتد دون وعي لقلادة عنقي فأكاد أحتف برفض  
قاطع لكنني أتردد، هل هو خوفاً من عودة خطاب ليفترسني  
وحدي؟ أم أن الأمر يتعلق بهذا الرجل الذي لا أنكر ارتياحي  
نحوه؟ ارتياح لا يجعلني أشعر أنني أخون يونس.  
لا أفهم نفسي، لأول مرة أشعر أنني لا أفهم نفسي.  
- وافقي وأعدك ألا تندمي أبداً.

رجاؤه الحاني يمسنني وعيناه معلقتان بأناملي على قلادة  
عنقي، أوافق؟ أتزوجه؟ أتزوج رجلاً غير يونس؟

- لي شرط.

أهمس بها بوجل فيهتف دون تفكير:

- أعرفه وأوافق دون تحفظ.

أرفع إليه عيني وأنا أشعر أنني لا زلت أحلم، أي رجل  
هذا الذي يريد الزواج مني وهو يعرف أنني أحب غيره فقط

ليحميني؟! هل عاد زمن الفرسان؟! ما يدريني أنه لن يخلع قناع لطفه هذا عندما يملكني بعقد رسمي؟ والجواب يمنحه لي حدسي الذي طالما وثقت به، يافا كانت تجربتي دومًا أن حدسي لا يخطئ، يونس كان يسخر مني في البداية عندما كنت أخبره عن هذا لكنه عندما عايشني بنفسه قالها لي يومًا «أغبطك على قلبك كهذا يبصر قبل عينيك».

يختلج صدري من جديد للذكرى وأنا أدور بعيني في المكان حولي، أين أذهب؟ ولمن؟ فأحسم أمري أخيرًا لأهمس مستسلمة: - إذا أنا أيضًا أوافق يا سيد «شهاب».

\*\*\*

ONE PIECE

- ادخلي، لا تخافي.

يهمس لي شهاب أمام باب بيته الذي سيضمننا لأول مرة فيرتجف جسدي برهبة الإدراك، كيف فعلتها؟! كيف وافقت على هذه الزيجة؟! كيف اتمنته بهذه المرعة؟! - لا تخافي.

يكررها للمرة التي لا أدري عددها منذ خرج معي من المشفى، بهذه اللهجة التي تسطع فيها عاطفته كألف شمس، هذه التي طالما غنيتها من شخص واحد، يونس.

أتحسس قلاذتي بقوة كأننا ألتمس منها دعمًا ثم ألعج للداخل فيغلق الباب خلفنا لأنتفض مكاني وأنا أنظر إليه بوجل، أستعيد

كل ما أعرفه عن هذا الرجل الذي صار زوجي، وللأمانة لا أستبصر إلا خيراً، دياب بارك زواجنا منذ قليل بترحاب، بل إنه كان شاهداً على العقد، وقد قالها لي صريحة عندما اختلى بي أنه رغم ملاسبات هذه الزيجة لكنه يتمنى لو أمنح شهاب فرصة، وقد آن الأوان أن أغلق صفحة يونس للأبد، وليت الأمر بهذه السهولة التي يدعىها.

أنظر للبيت حولي وورعاً عني أقارنه ببيت يونس، بداية من موقعه في هذا الحي العتيق الأثري من القاهرة على عكس قلعة يونس المنعزلة، مروراً ببساطته الحميمية الأنيقة على عكس فخامة الآخر المقبضة نوعاً ما، وانتهاء بكوفه بلا حراس، بل هذا الركن القصبي فيه والذي يبدو وكأنه قد أعد ليكون مكاناً للصلاة ببساطه الأنيق، هذا الحاجز الخشبي المفرغ الذي يفصله عن بقية الشقة، حامل المصحف الذي يستقر في زاويته، وهذه الرائحة لبخور عطري تبعث من فواحة جانبية تزيينه.

الرائحة التي تتغلغل داخل خلاياي فتهددني بمزيج من سكينه وشجن.

- اذهبي وتوضئي، أريد أن نبدأ حياتنا هنا بالصلاة  
الدهشة تجتاح ملاعبي لأرمله بنظرة مصدومة، ليست فقط هذه الثقة التي يتحدث بها عن «حياتنا» هنا، لكنه المعنى الخفي بالأمان الذي منحته لي كلماته، ابتسامته بقيت معلقة بعيني مع



هذه النظرة الغريبة في عينيه والتي تذكرني بتوأمةها في عيني يونس، هذا الذي حاولت تجاهله وأنا أغادره بخطوات مرتجفة نحو الحمام القريب لأتوضأ، أختلس نظرة نحو المرأة أمامي فيروعي منظر هذه الكدمة البشعة جوار فكي، خوفاً من خطاب يعاودني فأشعر بالمزيد من الامتنان لقراري بهذه الزيجة، الآن على الأقل.

أعود إليه لأجد ملامحه بأروع ما رأيتها يوماً، هذه الابتسامة على شفثيه تحكي وكأنه قد ملك الدنيا وما فيها، أنا جربت الحب يوماً وأزعم أنني أفهم ما تعنيه ابتسامة كهذه، فهل آتية فخرًا أم أبكي ذنبًا وأنا العاجزة عن منحه ما يتوق إليه؟!

أقف خلفه ليؤمنني في الصلاة، يطيل تلاوته بهذا الصوت الشجي الذي يجد مكانه في قلبي، كل خوفاً يتبعثر، يتلاشى كأن لم يكن، ويستحيل لطاقة من نور تكاد تشرق بين ضلوعي، اهدئي يا ضي، هذا الرجل لن يؤذيك، بل خافي عليه أن تفعلني أنت.

يسلم من صلاته فيلتفت نحوي، هنا تنهار كل مقاومتي لأجهش فجأة في بكاء صامت، هل هو شعوري بالصدمة؟! بالوحدة؟! بالخوف؟! بالذنب؟! أو ربما لأنني تمنيت موقفًا كهذا بالضبط ليلة زفافي إلى يونس.

كفه يمتد ليحتضن كفي، لكنني أنتزعه منه ببعض العنف، فيرفع راحته في وجهي معترًا مطمئنًا ثم يعتدل في جلسته ليصير قبالي تمامًا:

- تذكرت يونس؟! -

يهمس بها بمزيج من تعاطف وضيق فأرد منكسة الرأس:

- لا أنساه كي أذكره.

لا أكاد أتفوه بها حتى أشعر بالذنب في وضعي الجديد

فأعاهد نفسي ألا أعيد ذكر يونس بيننا لولا أن يقول هو بنبرة

غريبة:

- حدثيني عن رجل جعلك تحببته إلى هذا الحد حتى بعد

موته، هل كان مثاليًا إلى هذه الدرجة؟

أطبق شفتي كاتمة مرارة سخرיתי، فيمد أنامله بحرص

ليتحقق قلاذتي بصورتها.

- يشبه والدك كثيرًا، لهذا أحببته؟

أشعر بالارتباك وأنا أرى كفه يحضن قلاذتي فأبتعد بظهري

لأجبره أن يمررها من يده لكنه يهمس بحذر:

- لا تريدني الحديث عنه؟

- ليس أحب إلي من الحديث عنه، أنا فقط أراعي وضعنا الجديد.

- أنا الذي أطلب منك، كلميني عنه يا ضي، لعلك حين

تخرجينه إلى لسانك تلفظينه من قلبك.

فأهز رأسي لأصمت قليلاً بيأس ثم أغمض عيني هامسة:

- المرء لا يختار وطنه والقلوب لا تنتقي ساكنيها، لكننا

نؤمن بكليهما معًا مهما تعذبنا بهما، طالما كنت أخبره أنني مؤمنة

به كإيماني بوطني وديني، ربما لم يكن قديسًا، لم يكن ملاكًا، لكنه كان هو، هو بكل عيوبه التي تفهمتها قبل ميزاته، ربما لو كنت حاسبتة بعقلي لرحمته أنا بيدي حتى الموت، لكن حدسًا بداخلي كان يرى دومًا فيه ضيقًا يشبه اسمي، ضيقًا يجاهد للتسرب عبر شقوق جدران المظلمة، وددت لو عاش أطول، لو وجد جنته التي عاش محرومًا منها، لو تذوق السكينة التي ظل يبحث عنها، لو عرف لذة الإيمان لعلها كانت تنسيه مرارة موته روحه.

الصمت يسودنا للدقائق طويلة بعدها وكأنه يترك لي مساحتي الخاصة مع ذكرياتي وقد حمزت عن مواجهته بعيني، لكنه يتهدأ أخيرًا لينهض.

- كمائك ما كان اليوم، اذهبي لغرفتك واستريحي.  
غرفتي؟! الكلمة تبدو غريبة على مسامعي، وأي شيء ليس بالعريب، ها هنا؟! أسير خلفه نحو العرفة المنشودة التي فتحها لي.

غرفة بسيطة أنيقة تشبه ذوقي، لكن، ما هذا؟!!

- صورتي! كيف حصلت عليها؟!!

أسأله مصدومة وأنا أجد صورتي مؤطرة على أحد الجدران، مرسومة بخط اليد باللونين الأبيض والأسود فحسب، فيبدو لي وجهي مضيئًا كالقمر وسط ليل أسود، هو رسمها؟!!

أرمقه بنظرة متسائلة فيتسم لي ابتسامة تليق بجوابه:

- لم أكن لأعرض عليك الزواج متقبلاً كل شروطك إلا وأنا أهيمن بك حباً.

تتخضب وجنتاي بحمرة خجلي وانفعالي، منذ تسلمت عملي في شركته وأنا أشعر بنظرات إعجابه لكنني لم أتصور أن تصل عاطفته إلى هذا الحد.

أدفن وجهي بين كفيّ هرباً من طوفان المشاعر الذي يحتاجني هذا بين دهشة وخوف وذنب، فيصلني صوته ببخته المميزة:

- لا تفكري كثيراً، نامي الآن ولا تخافي.  
أزيح كفي عن عيني ببطء لأختلس نظرة وحيداً نحو عينيه،  
لو كنت أملك المرأة لأخبرته أنني لا أريد أن أسلم بنظري عنهما فقط لأنهما تشبهان عيني يونس.

الوزر يثقل كفتي فأنكس رأسي من حديد يخزي لأشعر به يبتعد مع عبارته التي أظنه يتعمدها كي تبث الأمان دافئاً في عروفي:

- لا تخافي!

\*\*\*

صباح جديد يشرق عليّ في بيته.  
شهر كامل مرّ بي هنا معه، لا نزال غريبين تحت سقف واحد، لكن شعوري الحقيقي أنه ليس غريباً عني، سمعتهم يتحدثون كثيراً عن تألف الأرواح، ربما هذا ببساطة ما أعيشه

معهم، هذا الذي يدفعني أكثر في دوامة تكاد تبتلعني، إنه يعاملني بنفس الطريقة التي تمنيت لو يعاملني بها يونس، يخاف عليّ خوفه على قارورة ثمينة شديدة الهشاشة، يطلق مشاعره نحوي حرة في بوح كلماته، كلماته التي تشعرني أنه يعانقني وإن لم يمسنني، يتقبل نوبات غرابتي، بكائي، شرودي، بل يكتفي أحياناً بالجلوس جوارني دون حديث كأنه يفهم متى يدعمني بصمته ومتى يفعل بكلماته.

يحدثني كثيراً عن وطني، فلسطين، ويطلب مني أن أحدثه عنه، بل إنه سافر معي لغزة كي تزرر قبر يافا وقبور عائلتي، هذا الذي كنت أحاجه حقاً ولم أكن لأجرؤ على فعله وحدي خشية انهياره.

الغريب أنه لا يحدثني عن نفسه وأنا أستحي من سؤاله، لا أزال أتعامل مع زواجنا على أنه أمر مؤقت سيزول بمجرد اطمئنانني بشأن خطاب، لكنني لا أرى له عائلة بل العديد من الأصدقاء، أصدقاء من جميع الأعمار والطبقات فلا أكاد أصدق تجانسهم معي، طبيعته المرحبة مع أصدقائه تدغدغني بشعور غريب، فأكررها لنفسي للمرة التي لا أدري عددها: ربما لأنني تمنيت مثل هذا ليونس.

أنتهد مقاطعة تزييف أفكاره لأغادر غرفتي نحو صالة البيت، فيستوقفني مشهده الصباحي المعهود وقد أتم صلاة الضحى ليجلس مكانه قارئاً ورده من القرآن، ابتسامتي تتأرجح على شفتي

برضا ونفس الشعور الغريب نحوه يعاود اقتحام حصوني، كيف  
يمكن أن يكون بكل هذا القرب، وبكل هذا البعد؟!  
- صباح الخير.

صوته الغريب ببحته المميزة يأتيني مع رفعه لرأسه نحوي  
وهو يغلق مصحفه برفق ليضعه مكانه، فأتقدم نحوه ليردف  
ونظراته تغمرني بعاطفته كالعادة:  
- أحب رؤيتك ترتدين هذا.

يقولها مشيراً للثوب الفلسطيني صنيدة يد يافا والذي لازلت  
أصر على ارتدائه في البيت إحياءً لذكراها، فأبتسم ببعض المرارة  
وأنا أستعيد ذكرى مشاهة ليونس، مشاهة؟! بل مناقضة.  
- هل أعد القطور؟!  
ONE PIECE

أسأله هاربة من فوضى مشاعري فينهض مكانه قائلاً:  
- نعه معاً.

يسير جواربي نحو المطبخ حيث نعد الطعام، لا تزال عادي  
في تناول «المناقيش» و«القول» قائمة، لكنني صرت أحظى بمن  
«يجب» مشاركتي فيها.

تناول طعامنا وهو كعهده يحاول اجتذابي للثرثرة، لكنني لا  
أزال أتشبه بأسوار مقاومتي.

- اليوم إجازة، ما رأيك لو أصطحبك في نزهة بعدما أمر  
على «الأولاد»؟

- أولاد!؟

أغمغم بها بتوجس يردني لحقيقة أنني لا أعرف شيئاً عنه  
فيضحك ضحكة رائقة وهو يرد:

- تعالي معي، شاهد بهم بنفسك.

أحاول قمع هذا الشعور الضائق الذي اكتسحني بعدها  
وأنا أبدل ملابسي لأغادر معه، لم أعلم أنه كان متزوجاً، لكنني  
لم أسأل.

- لماذا توقفت هنا؟

أسأله وأنا أدير بصري في المكان الذي استقرت فيه سيارته،  
دار تحفيظ للقرآن، بسيطة مع أنها تبدو أنيقة، لكن ما لفت انتباهي  
حقاً هو هذه الآية الكريمة التي كتبت في مدخلها:  
(وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في  
الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

تدمع عيني فلا أدري هل هي مصادفة، أم أن روحي

تجتذب دون وعي لكل ما يذكرني بيونس.

صياح الأطفال يقاطعني وهم يندفعون نحونا منادين شهاب

الذي وقف يستقبلهم بترحاب، يستمع لحكاياتهم ويسألهم عما أتموه  
من الحفظ فيستعرضون مهاراتهم باندفاع طفولي ليتلقوا منه هداياه.

ابتسامة اعتزاز تجتاحني وأنا أراقبه جوارهم، روحه لا تبدو

مختلفة كثيراً عن أرواحهم النقية وإن تباينت الملامح، تعلم يا

شهاب؟! لو كان الحب بالعقل لاخترت أن أحب رجلاً مثلك،  
لكن ما حيلتي في هذا الأحمق بين ضلوعي؟!؟

- من هذه «القمر»؟!؟

يهتف بها أحد الصبية فيلتفت نحوي شهاب بنظرته الغامرة

مع جوابه بفخر استشعرته حلياً:

- زوجتي.

- ذوقك حلو.

- تأدب يا ولد! سأخبر شيخك أنك تعاكس زوجتي

يهتف بها بصرح وهو يحيط الصبي على مؤخرة رأسه فأضحك

رغماً عني والصبي يبالغ في تأوّه ثم يتخذ وضعاً فتالياً مباعداً بين

ساقيه ورافعاً قبضتيه المضمومتين ليتخذ شهاب وضعاً مشابهاً:

- هي الحرب إذا؟!؟

ضحكات لا تنقطع والصبية يتحلقون حولنا مشجعين فيما

بدا كمباراة تعمد فيها شهاب الخسارة كما يبدو إرضاء للصبي

الذي غمزني بعدها بخفة ثم تقدم مني ليقول بجديّة:

- اعطني به، هو طيب و«ابن حلال».

ضحكتي تمتزج بدمعة حقيقية وأنا أرى الأدوار قد انقلبت

والصبي هو الذي يوصيني به، لكن الجلسة استمرت بعدها لأدرك

أي مكانة يحملها شهاب لدى هؤلاء الأطفال، مكانة متوسطة تماماً

بين الوالد والمعلم والصديق، ربما لهذا هم متعلقون به إلى هذا الحد.



- وهذا شيخي وصديقي.

يقولها شهاب مشيرًا لذاك الرجل الذي خرج لتوه نحونا، بجلبابه الأبيض ولحيته الطويلة وشاربه المحفوف، والذي غض بصره عني ليدعو لنا بالبركة فيخاطبني شهاب بقوله الغارق في امتنانه:

- أدين له بالكثير لو تعلمين.

- أنت تحفظهم القرآن؟!!

أسأله عقب معادرتنا وقد ركبنا السيارة ليرد:  
- لا أملك العلم الكافي لذلك، أنا فقط أتعاون مع مدير

المكان، وأدفع التكاليف.

- يبدو أنهم يحبونك جدًا.

- أنا أيضًا أحبهم، وأتمنى لو أملك أن يحفظ كل طفل في

هذا البلد القرآن، لا حفظ تلقين بل حفظ فهم وتدبر، أغلب

وسائل الإعلام تصدر صورة المتدين كإرهابي، وبعض دعاة

الدين يقتنصون ولاء الشيايب لخدمة أغراضهم السياسية، وبين

هذا وذاك جيل مطحون بينهما يبحث عن هوية حقيقية وسط

الزيف، لهذا أتمنى لو كان بيدي أن نجيد تربيتهم فيتشبثون

بأصول دينهم الحق، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما

قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً».

أرمقه بنظرة اعتزاز لأجدي أقول دون وعي:

- عمتي يافا كانت لتحبك كثيرًا لو رأتك.

فتوهج عيناك بنظرة أسرة:

- أنا أيضًا كنت لأحبها، كثيرًا، كثيرًا.

يخفق قلبي بقوة وأنا أشعر بدوامة عينيه تجتذبني للصراع من جديد، كل ذرة داخلي تستصرخني أن أستجيب لهذه «النداءات الصامتة» من رجل رائع مثله، لكن.. لا يزال بيننا عائقٌ ها هنا بقلبي، عائق يدعى يونس.

ومن جديد أحاول تجاهل فوضى مشاعري مكتفيةً بهذه السعادة التي أشعر بها معه، لم أذهب في نزهة كهذه منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، لكنه بدا وكأنه يحفظ كل تفاصيلي وهو يذهب بي إلى الأماكن التي أحبها، يتابع لي هذه الهدايا التي تناسب ذوقي رغم رفضي الخجول، يحاصرني بهذا الفيض الكريم من مشاعره ويرمم هذا الشرخ بجدار روحي بمهارة خبير.

نصل للبيت أخيرًا وقد شعرت أني مثقلة، ليس فقط بهداياه، بل بهذا الشعور المربك الذي يجيد غرس بذوره في خلالي.

- سعيده؟

يسألني وعينه تعانقان ملامحي بحب ما عدت أشك فيه مثقال ذرة، فأكاد أرد بالإيجاب، لكن ارتباكِي يصيب مني وأنا أشعر أنه لا يزال هناك حجر ثقيل مربوط في قدمي يشدني نحو قاع حب لا أزال أغرق فيه.

لهذا أنكس رأسي هربًا منه لأعتذر بكلمات مقتضبة ثم أهروا

نحو غرفتي أغلق بابها خلفي، وليتني بهذه السهولة أستطيع غلق  
كل أبوابي المفتوحة!

\*\*\*

- ضي! أنت بخير!؟

صوته الغريب ببحته المميزة يوقظني فأحاول رفع رأسي لكنني  
لا أستطيع مع هذا الصداع العنيف والألم الرهيب في حلقي.  
- حرارتك مرتفعة.

يهتف بها بجزع فأفتح عيني لأغمغم بصوت متحسرج:  
- إنه خطئي، خففت ملاسبي ولا يزال الجو بارداً.

عيناى تصطلامان بهذا القلق الكاسح في عينيه فأكره أن  
أسبب هذا له، أشعر بالارتباك وهو يجاورني جالساً على فراشي،  
لكن الإعياء الذي يجتاحني يجعلني أستسلم لعنايته بي طوال  
يومين قضاهما بأكملهما جوارى لا يكاد يفارقني.

أستعيد بعضاً من عافيتي في اليوم الثالث وأستعيد معها

فوضى مشاعري معه، مرضي الأخير جعله أقل تحفظاً معي، أم  
تراني أنا التي صرت أكثر هشاشة!؟ أنامله لا تكاد تترك كفي،  
نظراته تسكنني كقمر وجد أخيراً الليل الذي يؤويه، منذ متى لم  
أجرب هذا الشعور أن يعتني بي أحدهم؟ ربما منذ عاشرتني يافا.

لماذا أشعر وكأنني صرت أطارد سراب كل من أحببتهم

فوق ملامحه!؟ حنان أمي، قوة أبي، تقوى يافا، ونظرة يونس.

هل بلغ بي اليأس هذا الحد؟! أم تراه حقًا يحمل قبسًا من نور كل هؤلاء!؟

- صرت بخير، لا داعي لأن تبيت ليلتك هذه أيضًا هنا.

أقولها بحرج وأنا أثبت وشاحي فوق رأسي بينما أسحب كفي منه برفق، لا أزال أراه غريبًا لا يحل له رؤية شعري، لكنه يتشبث بكفي هامسًا بحنانه المعهود:

- لن أتركك حتى أطمئن عليك تمامًا.

أهم بالاعتراض لكنه يهز سبابته أمام شفقتيه بحركة ذات مغزى فأطرق برأسي مستسلمة لأسأله:

- أليس غريبًا أنني لا أعرف عنك الكثير!؟

- تريد أن تعرفي؟

نبرته بدت لي غامضة فكدت أرد بالإيجاب، لكن خوفي جعلني أهز رأسي نفيًا كأنني خشيت المزيد من التيه في وديانه الشائكة هذه، كل يوم يمر بي معه يقذفني في هذه الدوامة أكثر، يجعلني أقف على شفرة سيف الذنب، الذنب نحوه هو، ونحو يونس.

لكنه ييسر راحتي مفرودة على كفه لتدور سبابته فوقها ببطء كأنها يرسم دائرة، ثم يهمس بها بدا لي صادقًا لأبعد حد:

- لا يوجد الكثير مما تجهلينه، تعرفين عن عملي، أصدقائي،

عائلتي.

أرفع إليه عينيّ بترقب مع كلمته الأخيرة فتمتد أنامله الحرة  
لتحتضن وجنتي مع همسه:  
- ليس لي عائلة إلا أنت.

نظراتي تذوب رغماً عني في دفء حدقتيه، مهما ادعيت غربته  
عني لا أزال أشهر أمام عينيه هاتين راياتي البيضاء، خاصة وهما  
تبهلان بهذه المناجاة التي لا أملك لها سوى سمع وطاعة.

- كيف تشعرين نحوي بعد كل هذا الوقت؟  
سؤاله يلقيني في أشد ربوع نفسي تبهكا، فأهمس بياس:

- لن تفهم.

- تكلمي ودعي لي أنا شأن الفهم هذا.  
أنتهد بالمزيد من العجز ولا أحبيه سوى بصمت طويل  
يتقبله كعهده ولا تزال عيناه تمطران سيلاً من عاطفته:  
- لو تعلمين كم أحبك يا ضي!

يهمس بها بخفوت فلا أدري هل سمعتها من شفثيه أم من  
جنون خفقاته، المسافة بين وجهينا تتناقص حد امتزاج أنفاسنا،  
أغمض عيني هاربة لأشعر بعرف شفثيه على ملاحي، شيء ما  
بداخلي يسرقني من نفسي، من كل حدودي التي بنيتها بيننا، يحضني  
على المزيد من الاستسلام لهالة السكينة التي تحيطني في كنفه، أغيب  
في سكرة من الزمن لا أدري مداها فلا أنتبه إلا وأنا أنتفض مكاني  
فجأة كأنها لدغني عقرب، وصفعتي تهوي على وجهه.

\*\*\*

- اعتذر كثيرًا عن صفعتي، صدقني لم تكن لك، كانت  
لنفسي قبلك، سألتني عن شعوري نحوك بعد كل هذا الوقت  
والآن أجيئك قبل أن أرحل، أنت رائع، رائع جدًا لأي امرأة  
سواي، قد تظنني مجرد حمقاء أخرى تعيش على أطلال حب  
مات، لكنني امرأة ولدت بين رحى الحرب والحب فعرفت  
حقيقة أن يكون الوطن حبًا والحب وطنًا، وتبديل أي منهما كفر،  
أشكرك لكل ما فعلته من أجلي، لكن آن الأوان أن أحمل وزري  
وحدي، لو كنت تحبني حقًا كما تزعم فدع لي ما تبقى من نفسي،  
ومن يونس.

أترك رسالتي له ثم أغلق هاتفي لأغادر بيته، لقد تركني بعد  
ما كان بيننا بالأمس، ترك البيت كله ولم يعد، فهل ألومه؟ ما  
بيننا لن يعود أبدًا كما كان بعد تلك السكر العاطفية التي جرفتنا  
البارحة، فلا بدّ إذا من الفراق.

غداً قد أسمح لنفسي باليكاء ندمًا على رحيلي عنه، وربما على  
قبولي لدخوله حياتي أصلاً، لكنني الآن لا أبغي شيئاً سوى أن  
أستريح وحدي بعيداً عنه، وعن كل الناس.

إلى أين؟! لا أعرف مكاناً يمكن أن يؤويني الآن غيره.

لا زلت أملك المفتاح.

أقف أمام تلك الغرفة القديمة في «البدر» البسيط، والتي  
عاش فيها أبي وأمي يوماً، تلك التي لجأت إليها يوماً عندما

هجرتي يونس، والآن أجد إليها وقد هجرت شهاب، أسعل بقوة والتراب المقدس في كل مكان يمتزج بذكرياتي فيكاد يسحقني تحت هامة الحنين، أفتح الباب لأغلقه خلفي، رغم ضيق المكان لكنني أشعر بسعة الأمان، ها هنا لن يجدني أحد.

أضيء النور لأتطلع لصورة والدي المعلقة على الحائط، الوهن يتسرب إلي وأنفاسي تتلاحق، لا.. لن أسقط كالمرّة السابقة.. فلن يكون هناك يونس كي يتقدني من جديد.

- يارب! أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، يارب قوّني فلا أسقط، لست وحدي وأنت معي.

أدعوك كما علمتني يا فاشعر بغلالة من السكينة تلفني، رجفة جسدي تسكن، أنفاسي تهدأ رويدًا رويدًا، أنتهد أخيرًا وأنا أشعر أنني صرت أفضل.

يومٌ طويل قضيته أهني نفسي في تنظيف الغرفة، التعب ينال من جسدي ومن قلبي قبله.

شهاب!

هل افتقدته؟! أم هو فقط فضول لمعرفة كيف هو الآن؟! هل يبحث عني؟ حتى لو فعل، فلن يجدني، لكن.. ماذا ستكون خطوتي التالية؟ البحث عن عمل؟ وخطاب؟ أعود إلى غزة؟ ريبا، ريبا كان هذا.....

أفكاري تنقطع مع هذه الطرقات العنيفة على الباب فأنتفض

مكاني بهلع، أفكر في تجاهل الطرقات لكنها تعود أعلى فأهتف  
متسائلة عن الطارق لتعود الطرقات أعنف دون رد.

أتناول عصا مكنسة قريبة كأنها ستحميني، أفتح الباب  
لأجده أمامي، شهاب، يدفع الباب ليغلقه خلفه فأهتف بصدمة:  
- كيف عرفت؟!

سؤالي ينقطع بأهة خافتة وأنا أشعر بنفسي فجأة مغمورة بين  
ذراعيه يكاد يعتصرني بين ضلوعه، أحاول رفع رأسي نحوه لكنه  
يثبته على صدره بعنف وهو يتمتم بحمد الله، خفقانه تكاد تعوي  
تحت كفي المتبسطين بيننا، فلا تقل عنها خفقاتي جنونا.

أنفاسي تتلاحق بهذه الطريقة المعهودة كلما زاد انفعالي إنها...  
مهلاً! إنها رائحة يونس! لا ليس عطره بل رائحته هو، هو..

هل عدت لهذياني؟! هل هذا ما يبرر لي به عقلي خيانتة؟  
أرفع عيني إليه أخيراً لتعانقني نظراته بهذه اللهفة المدعورة  
التي يكسوها غضبه، هذه نظرة يونس عندما يعضب، ريباً أنا  
فقط لم أر شهاب غاضباً مني من قبل، هل أصابني الجنون؟!

حيرتي تسكب المزيد من دموعي فوق وجنتي فيخفف من  
ضغط ذراعيه حولي، نظراته الغاضبة تلين مع نسائم عاطفته،  
نظراته تتفحصني باهتمام وشفته تنفرجان كأنه على وشك  
الحديث، لكنه يعاود إطباقها بعنف وهو يلصق جبينه بجيني،  
لماذا لا يتكلم؟!



- كيف عرفت هذا المكان؟! لا أحد يعرفه سوى يونس.  
بالكاد أنفوه بها بصوت متحشرج وأنا أشعر أنني أكاد أفقد  
وعيي، هل ما أفكر به صحيح!؟

لكنه بصمت طويلاً ثم يرفع عينيه نحوي من جديد فيحمر  
شفتيه من صمتها ويطلق معها مفاجاته:

- (لا تسأليني كيف استهديت، كان قلبي لعندك دليلي)

صرخة خافتة تغادر قلبي قبل حلقي!

فيروز! «سألوني الناس»!

إنها غنوتنا! غنوتنا أنا ويونس!

وبصوته! صوته! أنا لا أتوهم.

أنامل المرحة تمتد بسرعة لتفك زر قميصه باحثة عن نديته

الهلالية، ليست هنا.

لا! لا! ولو! إنه يونس! أنا لا أهذي!

أرفع معصمه لأخلع عنه ساعته بعنف فأصطدم بها كنت

أبحث عنه،

ها هي ذي، بقعته البيضاء التي جرحتها أنا يوماً.

يونس!

- كنت أنت! طوال هذا الوقت كنت أنت! وأنا التي

ظننتني أهذي!

لا أدري بأي صوت خرجت مني وذراعي يتعلقان بعنقه،

يتشبثان به تشبثي بالحياة نفسها وأكثر.

صرخاتي تترج بضحكاتي ودموعي في مزيج عجيب لا يليق

إلا بموقف كهذا.

أراه يحاول تهدئتي فأصرخ بالمزيد من الجنون:

- تكلم، أريد أن أسمعك.

أقولها وأنا أهزه بين ذراعي بكل ما أوتيت من قوة، أغمض

عيني عن ملاحظه كأنني أخشى أن يكون كل هذا مجرد حلم.

- لماذا كذبت علي؟! حرام عليك!

- لم أكذب! يونس الذي تعرفينه قد مات، حقاً قد مات.

هنا أفتح عيني من جديد ببطء فتتلقفني التسمامة قبل أن

يقبل جيبني بعمق مردفاً:

- مات وولد من جديد، باسم شهاب.

الصدمة لا تزال تلجمني لكنني أستنبح ما حدث، بحثه

الأخير، دياب، الاسرائيليون.

- هل تهرب منهم؟

- من كل شيء يخص ماضي، شكلي، ذكرياتي، ذنوبي، كل شيء.

يهمس بها بألم صوته الذي أعرفه فأتحسس وجنتيه بأناقلي

المرتحفة ليردف بشرود:

- عندما استعدت وعي بعد الحادث كان هذا أول قرار

ألتخذه، لن أخون وطني ولا ديني، كنت أعرف أنهم لن يتركوني

وشأني، لهذا قررت أن أتخلص من وجه يونس بخطاياها للأبد،

دياب ساعدني في تدبر الأمر بسرية، ليس وجهي فحسب بل

وصوتي كذلك، يونس مات في عيونهم وعيون الجميع، علمه

فقط هو الذي حرصت أن يبقى لخدمة هذا البلد، حتى ولو كان

سرًا من خلف الستار، لم أعد أريد شهرة ولا مجداً، لعله يكون تكفيري عما اقترفته في الماضي.

لم يكديتم آخر كلماته حتى شعرت بنفسي أهوي على الأرض ساجدة، ماذا هناك أعظم من سجدة شكر توفي مقام هذه اللحظة عندي؟! سبحان من أعاد لي يونس من وسط «ظلماته الثلاث»، وردّه سالمًا لضيئه!

يتركني هو لفيض الانفعالي للحظات، ثم أشعر به ينحني ليرفعني نحوه من جديد، فيض قبلاته الغامر كأنه يشتر حول عنقي قلادة فوق قلادتي قبل أن تشتبك أناملنا فوق صورتها. - شكرًا لأنك لم تفقدي يومًا إيمانك بي، ربنا هذا هو ما رد لي إيماني بنفسي وبكل شيء.

أكتم ضحكة اعتزازي التي امتزجت بدموعي وأنا أراه الآن في أجمل صورة تمنيته فيها، وبقدر حزني لأنني لن أبصر ملامحه التي عشقتها، لكنني كنت راضية أن يولد من جديد، بشكل آخر واسم آخر... بعقيدة أخرى.

أهمس له عاتبة:

- لماذا لم تخبرني؟ هنت عليك؟!!

فيرمقني بنظرة مذنبه ثم يرفع كفي ليقبلها تباغًا هامسًا:

- في البداية كان الأمر ضرورة أمنية، لا أخفيك فولا أن

دياب كان قد حذرني من أي اتصال بك، وعندما هدأت الأمور

اقتحت عليه فكرة عملي معي في الشركة.

- ولماذا لم تخبرني حتى بعد زواجنا؟ كنت تحتبر إخلاصي؟!!

- ربما كنت فقط أريدك أن تحبيني من جديد، أن تعشقي شهاب كما عشقتِ يونس.

- حتى ولو عشق عقلي شهاب، بقي قلبي ملكاً ليونس.

- كلاهما لكِ، أنت ضيِّ شهاب، كما كنتِ ضيِّ يونس.

يهمس بها بين شفطيّ لتشتعل أنفاسنا بلهب عاطفة مستعر،  
أذوب بين ذراعيه وأنا أشعر لأول مرة أنني لم أعد خائفة معه، هو  
يونس، وهو شهاب.

- لم تخبرني ما الذي غيرك هكذا؟ هل هو الحادث؟

أسأله فيبتسم بشروود وعيناه تزوغان بجوابه:

- بل، هيولان!

أعقد حاجبي بشكّ وأنا أكذب أذني، فيضحك وهو يجذبني  
معه ليستقر فوق الأريكة الوحيدة في المكان يجلسني فوق ساقيه  
كطفلة، ثم يسند رأسي إلى صدره بينما يزيح عني وشاحي ويتأمل  
شعري بشوق وأنامله تعزف لحنها الأثير بين خصلاته.

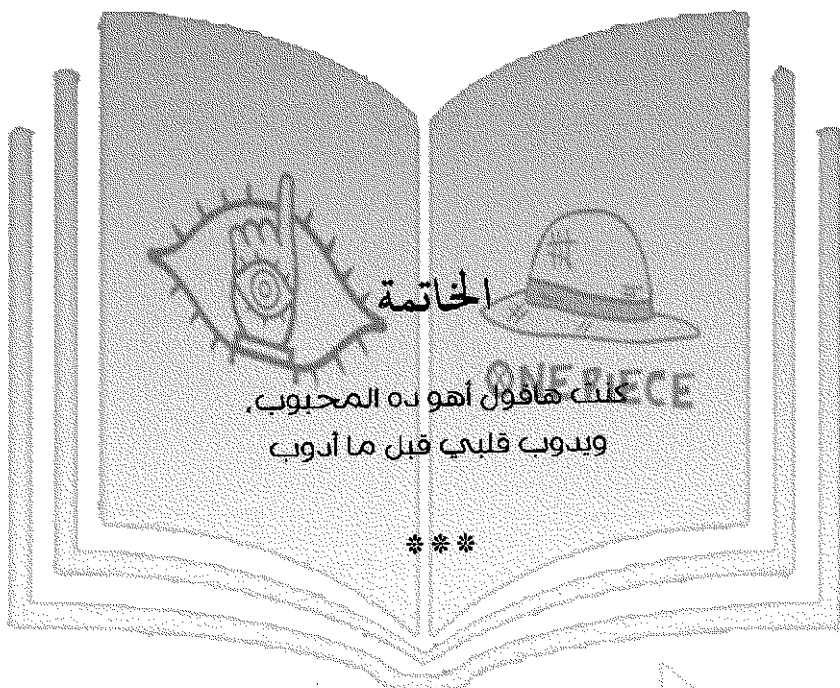
- تحبين الحكايات الغريبة؟

- أحب منك أي حديث.

- إذاً، أحكي؟

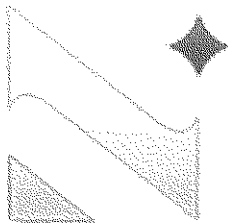
- احكِ!

فتتسع عيناها بذهول وأنا أستمع منه لما يرويه.



\*\*\*

BOOKS



## يونس

\*\*\*

إلى الآن لا أعلم حقيقة عالم «هيولان» هذا الذي دخلته، هل كانت مجرد هلوسة في غيبوتي التي دخلتها بعد الحادث؟ هل هو مجرد حديث عقلي الباطن؟ مخاوفه من ضلالي القديم ورعبته في طريق نور جديد؟ ربما هذا هو التفسير الأقرب للواقع، لكن ما يناقضه بعقلي أن كثيراً من الأحداث التاريخية التي عشتها لم أكن أعلم عنها شيئاً أصلاً.

أهلكني التفكير في هذا الأمر بعد إفاقتي، لكنني قررت تجاهله، كفايتني أنني عشت هذه التجربة الفريدة وعدت منها شخصاً آخر.

أنا قدمت حياة يونس القديمة كلها قريباً لحياة شهاب الجديدة، ما بقي من عمري لن يكون إلا لخدمة ديني ووطني، وضيء كوابيسي غادرتني تماماً، ربما لهذا أصررت أن أزيل «ندبتي الهلالية» في تلك العملية التي أجريتها لتغيير ملامح وجهي، ذلك اليوم الذي نظرت فيه لوجه «شهاب» لأول مرة في المرآة وقد فقدت ندبتي القبيحة أدركت أن حياتي حقاً ستغير للأبد.

أعدائي؟

أعداء الماضي لم يعودوا ينشبون مخالفهم في صدر ذكرياتي، بل صاروا مجرد صور مطموسة من الماضي تكاد تختفي في واقع حقيقتي الجديد.

قمر؟ دياب أخبرني أنه خلّصها من القضية التي ورطتها فيها، أخبرني أنها هجرت قريتنا وعثرت على زوج مناسب. الشيخ غريب؟ دياب عاد إليه تلك الليلة التي تركناه فيها في الصحراء، يقول إنه أصيب بحالة نفسية أودع على إثرها إحدى المستشفيات العقلية، أشعر بنوع من العدالة القدرية في هذا المصير، هو طالما طمس العقول بسّمه الذي كان يدهس وسط العسل، وأن الأوان أن يتجرع الآن مرارته.

مجدي؟

- محكمة.

الصوت الهادر يقاطع أفكاري وأنا أجلس مكاني في آخر صف في قاعة المحاكمة، إنها جلسة الحكم في قضية مجدي التي سأنال بها حق جابر، أبي! أبي! الآن فقط يمكنني قولها بملء فمي. أشبك أنامل بترقب والعرق يغزو جبينني، إنها لحظة النطق بالحكم.

قديمًا كانت تدخل الأمور في دائرة المجاملات والاكتفاء بالعقاب الإداري في مثل هذه الحالات، لكن الآن..

يخفق قلبي بجنون وأنا أسمع القاضي يعلن الحكم أخيراً.  
يعلنه وقد تلون في عيني بألوان «العلم القريب»، أحمر،  
أبيض، أسود، ونسراً يقسم أنه سيحلق دوماً مهما قمعته أسوار  
ظلم وطمغيان.

السجن المشدد لمدة ثلاث سنوات لمجدي مع عزله عن  
وظيفته.

تدمع عيناى وأنا أقف مكاني أطالع وجه مجدي الذي سودته  
ذنوبه خلف أسواره، لا يعنيني أنه لا يعرف أنني أنا من أقف  
الآن بقدر ما يعنيني أنه نال ولو نذراً قليلاً من جزائه.  
صحيح أنني تمنيت لو يموت كما مات أبي، لكن يكفيني ما كان.  
- يونس!

صوت دياب الودود يأتي من خلفي بعدما غادرت مبني  
المحكمة وقد جلس في سيارته معتمة النوافذ، فألتفت نحوه  
لتغنيه عيناى عن الحديث.

تراه تعمد أن ينطق باسمي «الحقيقي» الذي افتقدته في هذه  
اللحظة بالذات وهو يعلم كم أحتاج الآن لمن يشاركني هويتي؟  
أعلم أنه قد تعمد لها، كعهدي به يفهمني دون حديث.  
يتسم لي من بعيد في مكانه بودّ صداقة حقيقي وهو يهز رأسه  
بحركة ذات مغزى بيننا تخبرني أننا سنلتقي ليلاً في مكاننا المنعزل  
الذي اعتدنا اللقاء فيه منذ كنت «يونس»، فأرد له ابتسامته وأنا



أقدر له حرصه على أن يكون جوارى في هذه اللحظة بقيمتها  
العظيمة عندي.

أراقبه وهو يمضي بسيارته ثم أعود إلى خاصتي فتستقبلني  
ضي الجالسة فيها بلهفة لأبتسم وأنا أخبرها بما كان، فترفع كفيها  
نحو السماء بالحمد.

- تعلمين أين أريد الذهاب الآن؟

- قرينتك!

تهتف بها دون تفكير فتتسع ابتسامتي وأنا أرفع كفيها نحو  
شفتي بقبلة امتنان لحدسها الرائع هذا والذي لم يخذل كلينا يوماً.  
سيارتنا تنهب الطريق نحو قرينتنا فتغزوني ذكرياتي العامرة،  
الآن فقط يمكنني زيارة قرينتنا وقد صارت خالية من قمر وكامل  
وغريب ومجدي.

بقيت فقط لجابر ونجية، لي، ولأولادي من بعدي.

أقف أخيراً أمام قبر والدي، أخفي وجهي بين كفي وأنا

أجتهد بالدعاء فأشعر أن أرواحنا تتعاقب رغم كل شيء.

- من؟! يونس؟! -

أرفع عيني نحو الصوت الأثوي الغريب لامرأة ترتدي  
السواد كعهد نساء قرينتنا والتي كانت ترمقني بود لا يجلو من  
فضول فأرد بصوت متحرج:

- لا.

تتسع عيناها وهي تنقل بصرها بيني وبين ضي لتستطرد  
بإدراك:

- صحيح! سمعنا أن يونس مات في «مصر» ودُفن هناك،  
اعذرنى يا ابني، لما رأيتك واقفاً هنا ظننتك هو وتذكرت وصية  
أمه لي، المسكينة كانت تمنى أن تراه قبل موتها، كانت دوماً تقول  
إنه سيعود إلى هنا، وكانت توصيني أن أبلغه رسالتها.

- أنا صديق يونس، هو أيضاً كان يوصيني أن أزور قبر  
والديه، أخبريني ماذا كانت رسالتها؟  
أهتف بها بأقصى ما أملكه من ثبات محاولاً كبت لهفتي،  
فتتهل المرأة وهي ترفع كفيها للسماء:  
- رحمك الله يا نجية.

ثم تعود ببصرها لي مردفة:  
- كانت تذكر شيئاً عن لوحة مرسومة، عن دعوة كانت  
تدعوها له، «جعلك الله في قلب العتمة الضي»، طلبت مني أن  
أذكره بها.

تضغط ضي كفي في راحتها بينما تدمع عيناها وأنا أتذكر ما  
تحكي عنه، فأهم بسؤالها عن المزيد، لكن صوت الأذان يقاطعنا  
فأصمت قليلاً أردده قبل أن أسألها:

- لا يزال المسجد في مكانه القديم؟  
- أين سيذهب يا بني؟ الشيخ فقط هو من تغير، شيخ

مبروك كلنا نحبه، صوته آية من آيات الله، اذهب وصلّ خلفه  
وادعُ لصاحبك وأهله.

تقولها المرأة بطيبة وهي تسير جوارنا نحو المسجد القريب،  
أترك ضي معها وأدخل المسجد، تجتاحني صورة قديمة لغريب  
لكنني أسحقها بقوة، أسحقها وجسدي يقشعر بصورة أخرى  
- لي - طفلاً يأتي إلى هنا بالذات وقد تعلق بجلباب جابر.. أبي.  
أجدد وضوئي ثم أتجه للأمام لأصلي خلف الشيخ الذي  
أخذتني عذوبة صوته يخشوعه دون تكلف.  
خيّط من الدموع يسيل من عيني فلا أملك منعه، ها هنا  
بالذات أجد للصلاقي معنى آخر، ها هنا، حيث رائحة جابر  
ونجبة، أبي وأمي، حيث جذوري، حيث بذرة الفطرة التي  
ظننتها احترقت فعادت لتنمو من جديد كي تثبت بصدري جنأنا  
من نور.

هل يسامختي الله على طول غفلتي؟! هل يعفو عني بعدما

ظلمت أسير ظلماتي لسنوات؟! \*

- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من  
رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً.

بصوت الشيخ تأتيني كأنها هي رسالتي، لا أشعر بالخجل  
ودموعي الصامتة تتحول لنشيج خافت، أركع فأشعر أن المكان  
قد خلا إلا مني، أسجد لأغمض عيني لكنني أبصر خلفهما نوراً

يخبرني أن العفو قريب، بل هو أقرب إليّ من حبل الوريد، يخبرني  
أنني لو أتيت بقراب الأرض خطايا ثم لقيت الرحمن غير مشركٍ  
للقيني بقراها مغفرة.

أسلم من صلاتي فأشعر أنني أغتسل بهذا الطهر الذي لن  
يدنسني بعده شيء، كأنني ها هنا فقط أدركت كمال توبتي.

\*\*\*

أراقب وجه ضي النائمة جواري بحنان وأنا أزيح خصلات  
شعرها عن وجهها، أتحمس بطنها المتفخخ بأنامل مر تجفة وأنا  
أتخيل ملامح طفلنا المنتظر، هل سيثبه طفلي الذي كان في  
هيولان؟

أبتسم لعدوية الذكرى وأنا أشرد في تفاصيل عالمهم  
الساحرة، تمنيت كثيرًا لو يزورني حلم واحد عنهم، لو أعيش  
حياة واحدة أخرى هناك، أنجح فأنال ضلعًا ماسيًا أو حتى  
أفضل فتتالني لسعة مجساتهم على عنقي، لكنهم للأسف قد  
هجروا أحلامي تمامًا.

- افتقدتكم أيها الشهابيون، تراكم كنتم حقًا وهما من  
أوهامي؟

أهمس بها لنفسي وأنا أتطلع لبقعة معصمي البيضاء التي  
تركت فيها ضي ندبتها فتبدولي كفتديل بحر بمجس واحد.

صوت المنبه جواري يقاطع أفكارني فأغلقه بسرعة كي لا

يوقظ ضي، اليوم حافلٌ بعلمي «السري» في بحثي الأخير الذي أكاد أنهيه بفخر من أمكنه أخيراً أن يقدم شيئاً ذا قيمة لوطنه.

أجل.. الوطن لم يعد بالنسبة لي موقع بلد على الخريطة، الوطن صار هوية أتمنى أن يضيف إليها اسمي كما أضافت هي له.

أتوقف قليلاً أمام لوحتي الزيتية المعلقة على الحائط ببصمتها الملتطخة، أتذكر ثمنها الذي دفعه جابر، ووصية نجية الأخيرة التي تركتها لي مع تلك المرأة، وكم بينهما! كم بينهما! أؤدي صلاة الضحى ثم أتناول حاسوبى المحمول لأطالع آخر الأخبار فيستوقفني هذا الخبر.

مجددي! معقول؟

- يا الله! انظر إلى الصورة يا يونس!

تهتف بها ضي من خلفي وقد استيقظت لتوها لترى ما أراه، فألتفت نحوها والصورة لا تكاد تغادر ذهني.

مجددي مقتول وقد وضع أحدهم قدمه فوق صدره.

تفاصيل الخبر تقول إنه هرب من السجن بمساعدة أحد زملائه الفاسدين، وقد كان في سبيله للسفر خارج البلاد لكنها اختلفاً كما يبدو بعدها، ليقبله صاحبه ويسرب هذه الصورة نكالاً به.

- رحمك الله يا يافا! دوماً كانت تقول «سبحان من يمهل ولا يهمل»، خطّاب كذلك كانت نهايته من جنس عمله،

مشاجرة مع واحد من رفقته الضالة جعلته يقتله ليقضي هو  
بقية عمره في السجن.

كلماتها تشوش في سمعي مع إدراكي لحقيقة القصاص،  
القصاص العادل من ذي الجبروت الذي لا يعجزه شيء في  
السموات ولا في الأرض.

تدمع عيني وتذوب الكلمات على شفتي لكنها كعهدها  
تفهمني، تجلس جوارِي ثم تسند رأسها على صدري مكتفيةً  
بفيض حناها الصامت، لكنني أرفع إليها رأسي هامسًا أخيرًا:  
- قرأت يومًا مقولة: «ينبغي أن نحمل داخلنا سديًا كي  
تولد نجمة راقصة»، الآن فقط أدرك أن ضبابي الفوضوي قد  
تمخض أخيرًا عن نجمتي.

تبسم وهي تقبل جيبي بعمق، «لجأتها الصافيتان» تترقرقان  
بموج عاطفتها الأزرق، وعلى ألحان عشقها ترقص حروفها:

- نجمتك لم تنطفئ يومًا، هي فقط ضلت طريقها وسط  
ليلك الطويل، تعلم؟! مرآة روحك ما عادت مشروخة، صرتُ  
أرى في عينيك قدسي.

أضمها نحوي بقوة كعهدي في كل مرة أشعر فيها أنها تتعمد  
غرس بذور إيمانها في، فتأوه بدلال وهي تمسد بطنها هامسة  
بلكنتها الفلسطينية التي أعشقها كلما تسربت منها رغما عنها:  
- يومًا ما سأخبر طفلنا أنني لصة، أنني سرقت قلبك.

- لم تسرقه، هو جثا على ركبتيه طوعاً أمامك بلا حول ولا قوة.  
تطلقين هذه الضحكة العالية التي تثير جنوني فأشاركك  
إياها وأنا أتنفس شعور حريتي الجديد.

- سأطلي له غرفته بنفسي كما كان يفعل أبي، وعندما يأتي  
سأعلمه قيمة الألوان عندما تلقي سحرها على جدار باهت، لون  
الدين، لون الوطن، ولون الحب.

ملاحك تشرق مع كلماتي فترجف قلبي بهذه الانتفاضة  
الساحرة التي تشد الوثاق بيننا أكثر.  
من كان يحبرني أن «سرداب الظلال» بينما سينتهي بسماء  
رجبة من صبي ٢٩؟

تشابك أناملنا وعيناك الحنونتان جداً، الأموميتان جداً،  
والطفوليتان جداً جداً تناشدانني المزيد من اعترافات عشقي،  
فأردف بكل ما أوتيت من حب:

- في كل مرة كنت ألعن ظلماتي «الثلاث»، كانت اللعنة

تصطدم بحرف من حروف اسمك، تتضافر مع خصلات  
شعرك، تتعثر بلمعة حدقتيك، وتذوب على صفتي شفقتك،  
تموت هي وتبقين أنت، فلا ظلمة تحل ليونس وأنت قمره  
وشمسها، أجل، كنت وستبقين... ضي يونس.

ترفعين معصمي حيث بقعتي البيضاء لتطبع فوقها شففتك

قبلة ناعمة:

- طالما عاتبني عقلي فيك، كنت أقول لنفسي: ما دمت عبدًا  
لظلامك وما دمت ملكة للنور فكيف عسانا نلتقي سوى في  
خداع الظلال؟ وحده قلبي كان يدرك أن الظلام لم يكن يليق  
بروح كروحك، أنه لا يزال في الليل ضي.

فتشرق فوق شفتي ابسامة تشبهك وأنا أعيد ضم رأسك  
لموطنه فوق صدري:

- لا تلومي الظلام، فقط خبيثه خلفك، وأشرقني.

تمت بحمد الله

مايو ٢٠٢٠

نرمين نحمد الله

\*\*\*

BOOKS

